

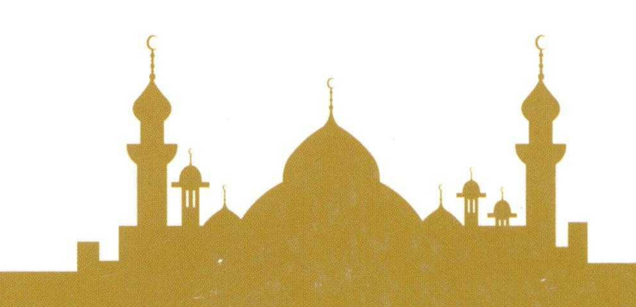


الندوة الدولية العلمية حول

كُتُبُ السِّيَرِ الإِبَاضِيَّةِ

٣١ أكتوبر - ٢ نوفمبر ٢٠١٤م

الجزء الثاني



رقم الإيداع المحلي: ٢٠١٥/٦٠٧
رقم الإيداع الدولي: (ISBN): ٩٧٨-٩٩٩٦٩-٠٠-٧١٨-٠

الندوة الدولية العلمية حول

كُتُبُ السِّيَرِ الإِبَاضِيَّةِ

٣١ أكتوبر - ٢ نوفمبر / ٢٠١٤م

الجزء الثاني

١٤٣٧هـ / ٢٠١٥م



مركز الدراسات العُمانية
جامعة السلطان قابوس
ص.ب : ٥٤
الرمز البريدي: ١٢٣
الخوض-سلطنة عّمان
هاتف: ٢٤١٤٥٨٥١
فاكس: ٢٤٤١٣٩٥٣
البريد الإلكتروني: osc@squ.edu.om

....

Omani Studies Center
Sultan Qaboos University
P.O BOX: 54
Postal Code :123
Al koudh-Sultanate of Oman
Tel: 24145851
Fax:24413953
Email:osc@squ.edu.om

إعداد

مركز الدراسات العُمانية بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عُمان
بالتعاون مع جمعية جربة التواصل بتونس

تصميم

ليلى زهران محمد السيبانية

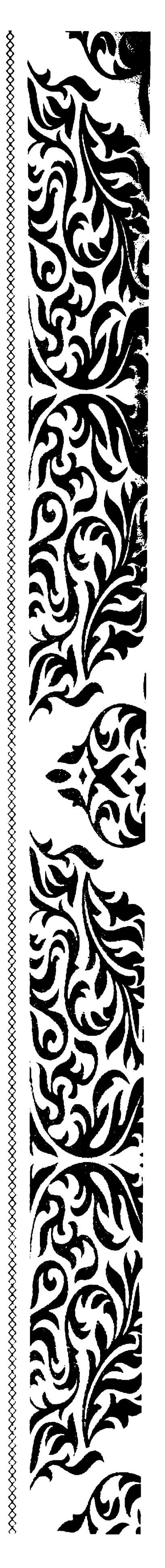


فهرس المحتويات

الأوراق البحثية



الأوراق البحثية



خصائص السّير العُمانيّة (١)

د. محمد بن قاسم ناصر بوحجام
أستاذ محاضر بجامعة الحاج الأخضر باتة / الجزائر
nacer.b.mohamed@gmail.com

مقدمة

١ - لفت نظر الباحث في التّاريخ العماني ظاهرة كتابة السّير بشكل مكثّف ومتواصل في القرون الأولى للهجرة بخاصّة. واللاّفت للانتباه أكثر أنّ أغلب هذه السّير تأتي بعد وقوع أحداث، أو حدوث ما يحتاج إلى تعليق أو معالجة أو تنبيه أو تغيير.. بمعنى إنّها لم تكن تكتب لأجل التأريخ لذاته، التّاريخ يُقرأ فيما بعد؛ بما يستنتجه الدّارس ممّا في طواياها، وفي سياقات ما يكتب. لهذا نميل إلى إعطائها أبعادًا فكريّة بمختلف إفرازات الفكر ومنتجاته: العقديّة والفقهيّة والثّقافيّة والتّربويّة والسّياسيّة والاجتماعيّة... وقد نشطت السّير في فترات وقع فيها في عمان ما حرّك العلماء والفقهاء والزّعماء لتوجيه إرشادات وخطابات وتنبيهات وتحذيرات وتصحيحات إلى مختلف فئات المجتمع العماني ومن يتّصل بهم..فمثلاً نشطت السّير بعد حدث عزل الإمام الصّلت بن مالك، وما أعقبه من نشوء مدرستين فكريّتين في عمان: الرّستاقيّة والنّزوانيّة، وما نتج عنه أيضًا من نتائج مسّت المجتمع العماني في العمق، من أولى مظاهرها سقوط الإمامة الثّانية في عمان..ووقوع عمان في قبضة الدّولة العباسيّة. وتقدّم هذه السّير في مجموعة السّير والجوابات العمانيّة، وسير العلماء المحبوبيّين، والسّيرة القحطانيّة... ويكون محورها حدث عزل الإمام الصّلت بن مالك وما تركه من آثار كبيرة.

كما نشطت السّير – نوعًا ما - في أعقاب الخلاف الذي حدث في إمامة عبد الوهّاب بن

(١) ألقي البحث في « ندوة كتب السّير الإباضيّة»، التي أقامتها «جمعيّة جربة تواصل» التّونسيّة, مدينة العلوم، تونس، أيّام: ٠٧ – ٠٩ من محرّم ١٤٣٦هـ/ ٣١ من أكتوبر– ١، ٢ من نوفمبر ٢٠١٤م

رستم وما قام به يزيد بن فندبن، وفتنة خلف بن السّمح وغيرهما.. وصدور سير من المشارقة، نظرت في هذه القضايا.

ثمّ تجمع مجموعة من السيّر في عهد اليعاربة، واليعاربة جاؤوا بعد فترة عصيبة مرّت بها عمان بعد عهد النّباهنة وأعمال البرتغاليّين في عمان. «إلاّ أنّ العمانيّين قد نشطوا منذ عهد اليعاربة في تقصّي تاريخهم وفي تدوينه، ونتج عن ذلك ظهور كتابات ومدوّنات تاريخيّة عديدة. يرجع بعضها إلى بداية القرن الحادي عشر للهجرة/ السّابع عشر للميلاد. وازداد عدد تلك الكتب في القرون التّاليّة، بحيث تشكّل ثروة تاريخيّة هائلة، لا غنى عنها للباحث في التّاريخ العماني الحديث...» (١)

ماذا يعني هذا؟ وبماذا نفسّر هذا السّلوك؟ وماذا يعني في التّفسير الحضاري لمسيرة أيّة أمّة؟؟!

٢ - السّير العمانيّة عُدَّت مصادر للتّاريخ العماني، في غياب تدوينه في أوانه؛ بسبب عدم إيلاء الأوائل للتّأريخ أهميّة؛ لاعتبارات ذكرها الدّارسون. لذا يبقى تاريخ عمان مليئًا بالثّغرات والفجوات، التي لا يمكن أن تملأها السّير؛ لأنّها أصلاً لم تكتب للتّأريخ، ثمّ هي تتناول أحداثًا محدّدة، تقدّم بطريقة خاصّة، يغلب عليها الطّابع الفكري، وليس التّاريخي. ولا ننكر أهميّتها؛ بما أفاد منها بعض الدّارسيبن والباحثين في المجال التّاريخي.

٣ – تاريخ عمان في القرون الأولى للهجرة لم يكتب في أوانه..الاهتمام به جاء متأخّرًا جدًّا..وكان للسّير دور في سدّ بعض النّقص فيه؛ بما يمكن استنتاجه من وقائع وواقعات وأحداث وغيرها. لكنّها تظلّ غير قادرة على نقل كلّ ما حدث وما وقع. مع تسجيل أنّها كانت تنقل هذا التّاريخ مصبوغًا بصبغة خاصّة، متأثّرة بالعوامل والظّروف التي صاحبت كتابة هذه السّير، وخاضعة للأهداف التي كان يرمي إليها كاتب السّير.. ومتلوّنة بألوان التّفسيرات والتّأويلات التي كان يقدّمها صاحب كلّ سيرة.

هذه ملاحظات أوّليّة للسّير العمانيّة، تدفعنا إلى البحث فيها والتّعمّق لمعرفة خصائصها ومميّزاتها وطبيعتها وحقيقتها. نبدأ بتقديم تعريف تقريبي للسّي رض عليه طبيعة هذه السّير.

(١)عمان في التّاريخ، وزارة الإعلام، سلطنة عمان. ودار إيميل للنّشر المحدودة، لندن١٩٩٥، ص: ٢٤٩

تعريف السّيرة

وردت للسّير معانٍ كثيرة في القواميس لغويًا. منها: السّنّة، الطّريقة، العادة، والهيئة...[١]واصطلاحًا: التّحدّث بأحاديث الأوائل[٢] بما أنّ السّيرة تكتب كتابة، وتقدّم بأسلوب أدبي، أو على الأقلّ يراعى فيها جانبا اللّغة والأسلوب...؛ حتّى تقدّم بشكل مقبول[٣] نعرض التّعريف الأدبي لها، قد نستعين به في عرض خصائص السّير العمانيّة والملاحظات التي يمكن تقديمها عنها.

يقول الدّكتور سالم المعوش: « هي من الفنون الأدبيّة التي تتّخذ القصّ شكلاً تعبيريًّا، يراد به الحديث عن حياة شخصيّة ما بأسلوب مشوّق، يراعي تاريخها في وجودها الخاصّ والعام، يكتبها أفراد عن أنفسهم وحياتهم وأعمالهم وآثارهم.. أو يكتبون عن سواهم. يتابعون فيها تطوّرها ومراحلها المختلفة وتحوّلاتها في الزّمان والمكان، من حالة إلى أخرى، مراعين وجود الشّخصيّة ضمن بيئتها وعلاقاتها بهذه البيئة ..» [٤]و يقول عليّ بوملحم: « هي ترجمة صادقة لإنسان بإعطاء صورة صادقة مشوّقة عن حياته» [٥].

إنّ موضوع السّيرة هي حياة فرد في مختلف أبعاد شخصيّته الجسميّة والاجتماعيّة والعقليّة والعاطفيّة والتّاريخيّة، تقدّم بطريقة تتيح للقارئ التّعرّف على هذه الجوانب. هذه الشّخصيّة غالبًا ما تكون من العباقرة أو العظماء أو الأدباء أو الشّعراء أو السّياسيّين، الذين أثروا الحياة، أو أثّروا في محيطهم. أو تركوا آثارًا مهمّة للتّاريخ تشكّل نقطًا مضيئة في حياة البشر. فما هو مكان السّير العمانيّة من هذه التّعريفات والمفهومات؟

للإجابة عن هذا السّؤال نذكر النّقط الآتيّة:

---

(١) ابن منظور لسان العرب، ج٤، ص: ٣٨٨. القاموس المحيط، ص: ٢٠٨

(٢) لسان العرب، ج٤، ص: ٣٩٠

(٣)تناول الدكتور عبد الرّحمن بن سليمان السّالمي – في بعض أبحاثه – السّير العمانية تحت هذا العنوان: « السّيرة العمانيّة كجنس أدبي»، مجلّة نزوى، سلطنة عمان، عدد: ١٩، يوليو ١٩٩٩، ص: ٦٢ – ٧٨

(٤)الدّكتور سالم المعوش، الأدب العربي الحديث، دار النّهضة العربيّة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص: ٣٨٩

(٥) عليّ بوملحم، في الأدب وفنونه، المطبعة المصريّة للطّباعة والنّشر، صيدا، لبنان، (د.ت)، ص: ١٦١

١ – لم تنطلق السّير العمانيّة – التي تعنينا في هذه الدّراسة – من منطلق المفهوم المتعارف عليه في كتابة السّير، كما كانت في القديم، ولم تتقيّد بالمفهوم الذي انبثقت منه لغة واصطلاحًا.

٢ – حدث تطوّر في مضمون المصطلح عبر الفترات المتعاقبة على تاريخ عمان المبكّر في ظلّ الإسلام. ويبدو أنّ هذا التّطوّر حدّدته العوامل أو الدّوافع التي تدفع الكاتب إلى إعداد سيرة، ووجّهتها الأهداف المسطّرة لها. هذا ما جعل الدّكتور مسلم بن سالم الوهيبي يقول: « يبدو أنّ مصطلح السّير عند العمانيّين خاصّة ليس اصطلاحًا ثابتًا، بل طرأت عليه تغييرات جذريّة...لكنّنا نجد أنّ هذا المصطلح في المؤلّفات العمانيّة القديمة يستخدم للدّلالة على بعض الأعمال القصيرة التي تسرد الحديث مع شيء من التّحليل عن حدث من الأحداث.»(١)

إذن للسّيرة عند العلماء العمانيّين خصوصيّة، تختلف بها عن المتعارف عليه في كتابة السّير. يبدو أن مسلّم الوهيبي تأثّر بهذه الخصوصيّة فقدّم التّعريف الآتي للسّير بعد أن أقرّ بصعوبة تقديم تعريف جامع مانع للسّير بعامّة، وعن السّير العمانيّة بخاصّة؛ نظرًا لتنوّع محتوياتها ومناسبات كتابتها،باختلاف الظّروف والدّوافع، واختلاف الزّمان والمكان: « وقد يكون أقرب تعريف اصطلاحي لهذه السّير – من وجهة نظري – هو: أنّها عبارة عن رسائل، في معظمها ذي[ذات] طابع سياسي، تعبّر عن وجهة نظر كاتبها حول مسألة أو مجموعة مسائل عقديّة أو فقهيّة مثارة من الواقع السّياسي أو الاجتماعي أو الدّيني المحيط بالكاتب أو سابق عليه.» (٢)

رغم بروز الخصوصيّة العمانيّة في هذا التّعريف، إلا أنّه غير دقيق للأسباب الآتية:

١ – قصر الباحث طبيعة السّير على الجانب السّياسي، مع أنّ منطلق علماء السّير العمانيّة لم يكن سياسيًّا. إنّما هو عقدي وفقهي، ولكنّ الحسّ السّياسي قد يؤثّر في مناقشات كاتبي هذه السّير، فيبدو وكأنّ عرضهم وتحليلهم سيّاسيٌّ. كان الأجدر أن يقول عنها هي ذات طابع فكري؛ ليكون هذا شاملاً لما تناولوه.

---

(١) الدّكتور مسلم بن سالم بن علي الوهيبي، « السّير العمانيّة كمصدر أوّلي للعلوم العمانيّة سيرة خلف بن زيّاد البحراني نموذجًا»، أعمال الملتقي العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، وحدة الدّراسات العمانيّة، جامعة آل البيت، الأردن، منشورات جامعة آل البيت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص: ١٣١

(٢) المرجع السّابق، ص: ١٣٠

٢ – في الفقرة أو التّعريف تناقض أو عدم دقّة، فهو يحدّد طابع السيّر بأنّه سياسي، لكنّه يورد مناحي أخرى في السّير: العقدي الفقهي الاجتماعي، الدّيني السّياسي..فيكون – بذلك - الطّابع السّياسي جزءًا من مكوّنات هذه السّير.

مع ذلك سجّل الباحث التّطوّر الذي حدث على مصطلح السّيرة عمليًا، وليس نظريًا، أي لا نجد تنظيرًا لها عند العمانيّين، إنّما نستنتج هذه المفهومات من خلال قراءاتنا لتناول الموضوعات في هذه السّير. فإذا كان القرنان الثّاني والثّالث الهجريّان وما بعدهما قد شهدت ظهورًا بارزًا للسّير، بالمواصفات التي ذكرت عن طابع السّير كما سردناها من قبل، فقد وجد في سيرة محمد بن عبد الله بن مداد، في القرن التّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي «تدوين أخبار وفيات أئمّة وعلماء عمان وتراجم الشّخصيّات العمانيّة البارزة التي سبقت المؤلّف.» (١)

هذه الملاحظة أو هذا التّقرير يضيف في محتوى السّير العمانيّة تراجم. وفي القرن التّاسع عشر يستعمل ابن رزيق لفظة سيرة، ويعني بها كتاب، في مؤلّفه: « الفتح المبين في سيرة السّادة البوسعيديّين» وفي القرن الرّابع عشر الهجري / العشرين الميلادي نلتقي مع كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للشّيخ عبد الله السّالمي..» الذي وسّع مفهوم السّير وجعله شاملاً لمفهوم التّاريخ. يقول في مقدّمة كتابه (فإنّه لا يخفى على عاقل أنّ علم التّاريخ ممّا يعين على الاقتداء بالصّالحين، ويرشد إلى طريقة المتّقين. وقد كنت عزمت أن أجمع سيرة تجمع أحوال المذهب... فعجّلت للنّاس السّيرة العمانيّة..» (٢)

في الفقرة السّابقة دلالات أو ملاحظات لابدّ من الإشارة إليها:

١ – ظلّ سائدًا - إلى عهد الشّيخ نور الدّين السّالمي – أنّ من أهداف كتابة السيّرة توجيهها للاعتبار والتّأسّي. يفهم من هذا أنّ الجانب الذّاتي قد يتدخّل في كتابة التّاريخ أحيانًا. تقول سيّدة إسماعيل كاشف: «وقد أراد كتّاب هذه السّير أن يفيد منها الأعقاب والذّريّة، كما أفادوا هم من أسلافهم. ووردت هذه الفكرة في عدّة سير. ومثال ذلك ما ذكره العالم العماني الجليل منير بن النّيّر الجعلاني، في سيرته إلى الإمام غسّان بن عبد الله اليحمدي، إمام عمان في فترة من القرن الثّاني

(١) المرجع السّابق، ص: ١٣٢

(٢) المرجع السّابق، ص: ١٣٢، ١٣٣

الهجري وأوائل القرن الثّالث الهجري(١٩٢ ـ ٢٠٧هـ) [١]

٢ ـ ارتباط التّاريخ بالسّيرة في سياق تطوّر الحياة العمانيّة، قد يكون مؤشّرًا على أنّ السّير مصدر أساس في تأريخ الحياة في عمان، وأنّها قامت لتعوّض ما أهمله التّاريخ نفسه. هذا ما يضيف دليلاً آخر على خصوصيّة طبيعة السّير العمانيّة.

٣ ـ التّطوّر حصل في الكمّ ـ زيادة على الكيف- إذ أصبحنا في القرن العشرين أمام سير تشتمل على مئات الصّفحات، بعد ما كانت لا تتعدّى ورقات معدودة في بداية التّأليف فيها. [٢]

ما هي خصائص السّير العمانيّة؟

١ ـ مصدر من مصادر الفكر الإباضي

خضع مفهوم السّيرة عند العمانيّين إلى التّطوّر في مضامينها؛ ويعكس هذا التّطوّر الظّروف التي مرّ بها المجتمع العماني، لذا لم تخضع لمفهوم السّيرة بالمفهوم الاصطلاحي، بل كان للسّير العمانيّة خصوصيّة في كتابتها، وإن بقيت محتفظة بالدّلالة على المنهج والطّريقة والسّنة.. القصد منها التّوجيه والإرشاد والاقتداء.. بواسطة تقديم بعض الأحداث والتّعليق عليها، والتّركيز على مكامن العبر فيها. لذا يقول الدّكتور عليان الجالودي: « إنّ هذه السّير في المصطلح العماني أشبه ما تكون بالمذكّرات السّياسيّة والعقائديّة. وتدور حول نسق واحد وهو الوعظ والتّوجيه الدّيني والدّفاع المذهبي، ولم يكن هدفها التّسجيل التّاريخي، بقدر ما كان بيانًا لموقف ديني أو حكم فقهي أو سلامة رأي سياسي. وأنتجت غالبًا من فقهاء أو أئمّة إباضيّين للدّفاع عن عقائدهم إزاء الأحداث المرتبطة بالصّراع حول الإمامة.»[٣]

سيرة الشّيخ محبوب بن الرّحيل من أهمّ المصادر في التّعريف بالمذهب الإباضي وأصوله

(١) السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، ص: ١٠

(٢) عن التّطوّر الذي حدث في مفهوم السّيرة، وفي شكل السّير العمانيّة ومضمونها ينظر أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٣٦ ـ ٣٨. وعمان في التّاريخ، ص: ٢٤٧ ـ ٢٥٨

(٣) الدّكتور عليّان الجالودي، « السّير العمانيّة مصدرًا لتاريخ عمان»:، الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ، ص: ٢٠. ينظر أيضًا السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ص: ٦ ـ ٩

وعلمائـه الأوائـل [1] وعـن أهمّيتهـا قـال الإمـام أفلـح بن عبد الوهّـاب الرّسـتمي (ت ٢٥٨ه):» عليكم بدراسـة كتـب المشـارقة، لا سـيّما كتـاب أبـي سـفيان [2]. ولابنـه الشّـيخ محمـد بـن محبـوب سـيرة أرسـلها إلـى إخوانه الإباضيّـة فـي المغـرب [3]. عالجـت هـذه السّـيرة أكثـر مـن خمسـين مسـألة: فـي العقيـدة والفقـه والأخـلاق والسّياسـة الشّـرعيّة والحـدود.. وتناولـت موضوعـات أخـرى كالارتـداد والتّقيّـة والغـزو والجهاد..ودعا فيها الشّـيخ إلـى الالتـزام بمسـالك التّقوى، وإلـى طاعـة الأئمـة... كمـا كان لهـذه السّـيرة دور فـي القضـاء علـى فتنـة خلـف بـن السّـمح..وزخرت السّـيرة بفقـه غزيـر، وأحـكام شـرعيّة مهمّـة، كشـفت عـن كفايـة صاحبهـا العلميّـة، وتميّـزه الفكـري، وسـجّلت ريادتـه فـي تقريـر بعـض الحقائـق، وتأصيـل بعـض المسـائل..[4] لـذا كانـت سـيرته مـن المصـادر التـي عرّفت بالفكـر الإباضـي، وأصّلـت أصولـه..[5]

بالرّجـوع إلـى السّـيرة القحطانيّـة لأبـي قحطـان خالـد بـن قحطـان، التـي بيّـن فيهـا رأيـه فـي حـدث عـزل الصّلـت بـن مالـك، ومـا أفـرزه مـن نظـرات فيـه، ومـا أنتجـه مـن مواقـف سـردها وحلّلهـا بنظـرات فكريّـة، ركّـز فيهـا علـى نظريّـة الإمامـة عنـد الإباضيّة..بحسـب مـا يـراه هـو، مـع عـرض وجهة نظـره في مسـألة العـزل، وبيّـن أخطـاء مـن قـام بهـذا الفعـل، ومـن أيّـده ومـن سـار فـي ركابه،وسـرد تطـوّر الأحـداث فـي القضيّـة ،ومـن خـلال هـذا العـرض والتّحليـل والمناقشـة تسـجّلُ أخبـار عـن عمـان.

يقـول عبـد الحميـد الصّمـادي: « وبهـذا أصبحـت سـيرة أبي قحطـان مصـدرًا مهمًّا من الفكر السّياسـي الإباضـي، حتّـى إنّنـا نجـد أحيانًـا فـي بعـض المصـادر الإباضيّـة فـي الفقـه والفكـر السّياسـي وغيرهـا علـى سـبيل المثـال لفظ(أبـو قحطـان. واجتمعـت فـرق الأمّـة علـى...) دلالـة علـى أهميّـة سـيرة أبـي قحطـان كمصـدر مـن مصـادر الفكـر السّياسـي الإباضـي. هـذا ناهيـك عـن أنّـه ورد فـي كتـاب المصنّف بـاب خاصّ

(١) ينظر عمان في التّاريخ، ص: ٢٢٢ وما بعدها..

(٢) أبو القاسم البرّادي، رسالة في تقييد كتب أصحابنا. ينظر الدّكتور عمّار الطّالبي، آراء الخوارج الكلاميّة، الجزء الثّاني، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتوزيع، الجزائر، ١٣٩٨ه/ ١٩٧٨م، ص: ٢٨٤.

(٣) ينظر « سيرة الشّيخ الفقيه محمد بن محبوب رحمه الله»، السّير والجوابات، ج٢، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ص: ٢٢٣ – ٢٦٨.

(٤) ينظر الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام، التّواصل الثّقافي بين عمان والجزائر، ط١، مكتبة الضّامري للنّشر والتّوزيع، السّيب، سلطنة عمان، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٣م، ص: ١١١ – ١١٩.

(٥) ينظر تعليق الدّكتور فرحات بن علي الجعبيري على هذه السّيرة، كتابه: علاقة عمان بشمال إفريقيا، ط١، المطابع العالميّة، رويّ، سلطنة عمان، ص: ٣٣.

لأحكام أبي قحطان في بعض المجالات الفقهيّة.»[1]

٢ – مصدر من مصادر كتابة التّاريخ العماني

ما تضمّنته السّير العمانيّة من أخبار وسرد الأحداث - التي لم تقصد لذاتها، ولم تكن تذكر لتدوينها- غدت من المصادر التي رجع إليها من كتب عن التّاريخ العماني، بخاصّة كتّاب العصر الحديث. يقول عليان الجالودي: « إنّ القراءة المتمعّنة في التّرتيب الزّمني للسّير التي اشتمل عليها مخطوط سير العلماء المحبوبيّين تشير إلى أنّ جلّها يعود إلى الفترة ما بين القرنين الثّالث الهجري/ التّاسع الميلادي إلى السّادس الهجري/ الثّاني عشر الميلادي (٣٦ سيرة من أصل ٤٢) تنصبّ مضامينها على الأحداث التي رافقت عزل الإمام الصّلت بن مالك(٢٣٧ - ٢٧٣هـ / ٨٥١- ٨٨٦م) من قبل قاضيه موسى بن موسى السّامي متّخذًا من تقدّمه في السّنّ ذريعة للعزل، وتنصيب راشد بن النّظر (٢٧٣ – ٢٧٧هـ/ ٨٨٦ – ٨٩٠م)، ثم عزله بعد خمس سنوات من تنصيبه على يد موسى ابن موسى نفسه.» [2]

يقول عبد الحميد الصّمادي: « تعدّ السّيرة القحطانيّة لأبي قحطان خالد بن قحطان من المصادر المهمّة المبكّرة للتّاريخ العماني في فترة الإمامة الإباضيّة الثّانيّة. حتّى إلى فترة ما بعد سقوطها في ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م بوقت قليل. ذلك أنّ كاتبها كان شاهد عيان للأحداث المهمّة التي رافقت الفترة قبل سقوطها، وبالخصوص مسألة عزل الإمام الصّلت بن مالك، وما رافقها من تراكمات أدّت في النّهاية إلى سقوط الإمامة في يد العبّاسيّين.» [3]

أهميّة هذه السّيرة تكمن في كون صاحبها شاهد عيان على ما حدث، إذ عاصر الأحداث، وأدلى برأيه فيما وقع وما أعقبه من نتائج، وفي كون هذا الحدث أصبح محور سير كثيرة تناولته واستلهمت منه أفكارًا كثيرة، طبعت المرحلة التي وقعت فيها، وأسهمت في تطوّر الحياة

(١) عبد الحميد الصّمادي، « السّيرة القحطانيّة سيرة أبي قحطان خالد بن بن قحطان»، الملتقي العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ١٨١. ينظر أبوبكر أحمد بن عبد الله الكندي، المصنّف، ج١، منشورات وزارة التّراث القومي والثّقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٣، ، ص: ٢١٥، وج١٥، ص: ٢٦٩.

(٢) أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٤٢. ينظر تفاصيل كلّ هذا الشّيخ عبد الله بن حميّد السّالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، ج١، ص: ١٢٦ وما بعدها.

(٣) أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ١٨٠.

فـي عمـان، بخاصّـة فـي الجوانـب الفكريّـة والسّياسـيّة والاجتماعيّة..لـكلّ ذلـك تكـون هـذه السّـيرة والسّـير التـي تناولـت الحـدث مصـدرًا مهمًّـا فـي تاريـخ عمـان فـي بدايـات حكـم الأئمّـة.

مـا يبيّـن أنّ السّـير العمانيّـة المبكّـرة كانـت مصـادر للتّاريـخ العمانـي، الـذي لـم يكتـب بسـمات التّأريخ...الملامـح التـي نجدهـا فـي الكتـب التّاريخيّـة التـي ألّفـت فـي العصـر الحديـث، التـي حاولـت اسـتدراك االنّقـص فـي مجـال التّأليـف التّاريخـي؛ بالإفـادة مـن هـذه السّـير، وقـد أورد أصحـاب هـذه التّآليـف نصوصًـا كثيـرة منهـا فـي كتبهـم.. أمثـال المشـائخ: عبـد الله السّـالمي فـي كتابـه تحفـة الأعيـان، وسـالم بـن حمـد الحارثـي فـي العقـود الفضيّـة، وسـيف بـن حمـود البطّاشـي فـي إتحـاف الأعيـان. و طالـب مهـدي هاشـم فـي دراسـته الإباضيّـة فـي المشـرق العربـي.

ممّـن اهتـمّ بهـذه السّـير ونشـرها قصـد الإفـادة ممّـا تضمّنتـه مـن مسـائل تاريخيّـة، وممّـا فيهـا مـن أمـور أخـرى ولكنسـون Wilkinson.j.c وفـاروق فـوزي وسـيّدة إسـماعيل كاشـف وغيرهـم. يقـول عليـان الجالـودي « ويلاحـظ فـي الآونـة الأخيـرة اتّجـاه لنشـر سـير عمانيّـة مفـردة مـع دراسـة لهـذه السّير. فقد درس أحمد عبيدلـي سيرة محمـد بـن محبـوب(ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م). وأعـاد زايـد بن سـليمان الجهضمـي نشـر سـيرة شـبيب بـن عطيّـة العمانـي، مـع دراسـة وتحليـل للنّـصّ واسـتدراكات علـى نـصّ السّـير التـي سبق نشـره فـي مخطـوط السّـير والجوابـات. وأعـاد جاسـم ياسـين الدّرويـش تحقيـق ونشـر كتـاب الأحـداث والصّفـات للإمـام أبـي المؤثـر الصّلـت بـن خميـس الخروصـي(عـاش فـي القـرن الثّالـث الهجـري/ التّاسـع الميـلادي). ولعـلّ أحـدث الكتابـات التـي أمكننـي الاطّـلاع عليهـا حـول هـذه السّـير هـي محاولـة الباحـث العمانـي عبـد الرّحمـن السّـالمي، ومـا قـام بـه مـن جهـد طيّـب يشـكر عليـه فـي عمـل تكشـيف ببلوغرافـي بحصـر مـا أمكـن حصـره مـن سـير عمانيّـة وترتيبهـا ترتيبًـا زمنيًّـا، مـع ملاحظـات منهجيّـة حـول هـذه السّـير» [١]

إذن لئـن أغفلـت مصـادر التّاريـخ الإسـلامي تنـاول تاريـخ عمـان – كمـا أكّـد علـى ذلـك كثيـر مـن الباحثيـن- : هـذه الكتـب التـي هـي معتمـد الباحثيـن فـي الحصـول علـى المـادّة التّاريخيّـة، وقـد كتبهـا

(١) المرجع السّابق، ص: ٢٢. ينظر عبد الرّحمن السّالمي، « السّير العمانية كجنس أدبي»، مجلّة نزوى، عدد: ١٩، ص: ٦٢ – ٧٨. وأحمد عبيدلي دراسة « السّير العمانيّة كمصدر لتاريخ عمان سيرة محمد بن محبوب»، مجلّة نزوى، عدد: ٢، مارس ١٩٩٥. أورد عليان الجالودي مجموعة من الدّراسات التّاريخيّة الأكاديميّة الحديثة عن التّاريخ العماني، التي أفاد أصحابها من السّير العمانيّة. ينظر أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٢٣.

أساطين التّاريخ أو المراجع فيه.. أمثال اليعقوبي والمسعودي والطبري وابن الأثير...فإنّ في هذه السّير – كما يؤكّد الباحثون العمانيّون – تفصيلات كثيرة عنه في مختلف العصور. « وإن لم يكن القصد كتابة التّاريخ. فلولا وجود هذه السّير لخفيت جوانب سياسيّة وثقافيّة وشرعيّة واجتماعيّة كثيرة، وجوانب أخرى مهمّة تتعلّق بحضارة الإنسان العماني وشخصيّته.» (١)

تقول سيّدة إسماعيل كاشف: « والحقّ إنّ «كتاب السّير والجوابات» إلى جانب كافّة التّراث العماني لهو أصدق من يقدّم للباحثين والمؤرّخين المحدثين تاريخ عمان، وأصدق من ينقض الزّيف، ويكمل النّقص الذي ارتبط بالتّاريخ العماني، إمّا للجهل بتاريخه، أو لعدم الاكتراث به، أو للتّعصّب الأعمى ضدّه.» (٢)

٣ – السّير العمانيّة المصدر الأوّل لسائر العلوم العمانيّة

يرى مسلم الوهيبي أنّ في السّير العمانيّة المادّة الأولى لكثير من القضايا المختلفة. فكثير ممّا جاء في الموسوعات العمانيّة كانت مصادرها السّير. مثل الجامع لابن جعفر، والضّياء للعوتبي، وبيان الشّرع للكندي... في هذه المصنّفات وغيرها نُقولٌ كثيرة من السّير العمانيّة.

« وقد اعتمد المؤرّخون العمانيّون القدماء منهم كالرّقيشي في مصباح الظّلام، والأزكوي في كشف الغمّة، وابن رزيق في مؤلّفاته التّاريخيّة. واللاّحقين كنور الدّين السّالمي وغيره على هذه السّير، وتعاملوا معها كمصدر أوّلي للتّاريخ العماني.. وفي العموم فإنّ هذه السّير تأتي كمصدر مهمّ لدارس مواقف الإباضيّة العقديّة والفكريّة والمواقف السّياسيّة على وجه الخصوص.»(٣)

٤ – متنوّعة في محتوياتها أو كتابتها

هي على أنماط وأشكال متعدّدة، ما يعطيها صفة الخصوصيّة، ما دامت غير سائرة أو منسوجة على ما هو متعارف عليه في كتابة السّير. فهي تبدو في شكل رؤية خاصّة لعالم أو فقيه في موضوع محدّد. وتكون على شكل مراسلات بين أشخاص حول قضيّة معيّنة، أثيرت

(١) المرجع السّابق، ص: ١٣٤.

(٢) السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ص: ٢٦، ١٧.

(٣) المرجع نفسه.

للمناقشة أو وقع فيها جدل.. وأكبر مظهر لها ما وقع من حوار ونقاش وتبادل الآراء وتقابلها بين المدرستين الرّستاقيّة والنّزوانيّة بعد حدث عزل الإمام الصّلت بن مالك وتأتي ردودًا وتحليلات لمسائل بين العلماء. وتكون رسائل يرسلها بعض العلماء إلى بعض الأئمّة لنصيحتهم في أمور معيّنة، وتكتب لبيان بعض قواعد المذهب الإباضي فيما أشكل على النّاس من مسائله.. ومنها رسائل أرسلت إلى الجماعات الإباضيّة في حضرموت واليمن وشمال إفريقيّة في شؤون مختلفة، لكنّها ظلّت مرتبطة بما له علاقة بالمذهب الإباضي..وبعض هذه السّير كانت متضمّنة أخبارًا لأحداث حصلت، ودوّنت في هذه السّير..[1]

من أمثلة هذه السّير، سيرة المنير بن النيّر الجعلاني إلى الإمام غسّان، وسيرة أبي سفيان محبوب بن الرّحيل إلى أهل عمان، وسيرة في أمر هارون بن اليماني، وسيرة أبي سفيان محبوب بن الرّحيل إلى أهل حضرموت، وسيرة أبي الحواري محمد بن الحواري إلى أهل حضرموت، وسيرته إلى أهل عمان، وسيرة أحمد بن محمد بن صالح في أحداث نزوى...[2]

٥ - البعد الحضاري في السّير

من خلال الموضوعات التي تناولتها السّير، نلمس فيها الحسّ الحضاري أو البعد الحضاري أو الهدف الحضاري في كتابتها؛ إذ كانت تحرص - أغلبها – على البناء والإعداد والتّربيّة والتّكوين. فقد اهتمّ الكتّاب بشرح أصول المذهب الإباضي، وحرصوا على محاربة البدع، ومناهضة الأفكار الدّخيلة على الإسلام. وقاوموا التّطرّف والغلوّ.. كما نقرأ في هذه السّير بعض الشّذرات عن تاريخ عمان في العصر الإسلامي. أكّدوا في هذه السّير على وَحدة المسلمين، ووجّهوا دعوات للقيام بالدّعوة إلى الإسلام، « وتظهر مسألة (الدّعوة والجهاد) في سيرهم المختلفة. ففي سيرة محمد بن محبوب إلى جماعة المسلمين من المغرب، يبيّن الواجب على (الدّعاة السّائرين في الأرض المجاهدين)» كما عالجت بعض المسائل المتعلّقة بالإمامة؛؛ مطلبًا شرعيًّا لإقامة أمور المسلمين، وفصّلوا في الموضوع من منظور عقدي وفقهي وسياسي..

---

(١)لمزيد من التّفصيلات ينظر مسلّم الوهيبي، المرجع السّابق، ص: ١٣٠، ١٣١. وعبد الرّحمن السّالمي، « السّيرة العمانيّة كجنس أدبي»، مجلّة نزوى، عدد: ١٩، ص: ٦٢ – ٧٨. وعمان في التّاريخ، ص: ٢٤٧، ٢٤٨...

(٢) ينظر كتاب السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، الجزء الأوّل تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ، ص: ٢١ ما بعدها.

تشتمل - أيضًا - على موضوع العلم وبعض الأحكام في نقل أحكام الأخبار والرّوايات... [1]

٦ – تجميع السّير للتّعبئة العامّة

لم يتمّ تجميع السّير العمانيّة في مجاميع – على أقلّ تقدير - قبل القرن العاشر الهجري/ السّادس عشر الميلادي. فنسخة « السّير والجوابات» التي حقّقتها سيّدة إسماعيل كاشف، نسخت عشيّة الثلاثاء السّابع من شهر جمادى الأولى ١٠٠٩هـ.[2] يقابله عام ١٦٠٠م. أي إنّها جمعت في عهد اليعاربة، الذي نشطت فيه حركة جمع السّير ونسخها. إنّ لهذه الحركة دوافعها ودلالاتها:

١ – فيها إشارة أو تسجيل للوعي بأهميّة التّاريخ لتسجيل التّجربة العمانيّة في مجال صنع التّاريخ، الذي كان قد دوّن، ولو على شكل سير، حَفِظَتْ جزءًا منه. هذا الجزء يجب أن لا يضيع. وقد عدّ هذا الجمع لبنة أولى من لبنات هذا الوعي بأهميّة التّاريخ..[3]

٢ – التّطوّرات التي حدثت في الحياة العمانيّة؛ بفعل عوامل داخليّة وخارجيّة، أسهمت في إحداث تغييرات وتحوّلات في مختلف النّواحي الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة.. وقد أثّرت بصفة خاصّة على سلطة الإمامة ونفوذها وتحكّمها في زمام الأمور في عمان..نتيجة لذلك احتيج إلى التّعبئة العامّة؛ بتوظيف عنصر التّاريخ فيها.. البداية كانت جمع السّير والإفادة منها في « التّعبئة العقائديّة ضمن حلقات العلم.» كما ذكر عليان الجالودي[4]

أعطى الباحث أمثلة على هذا التّوجّه بسيرة أحمد بن مداد. وقد أكّد في مفتتح سيرته حين وجّه نقده للإمام محمد بن إسماعيل (٩٠٦ – ٩٢٤هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٨) « على أهميّة الدّور الذي ينبغي أن يقوم به العلماء. فقد أخذ الله سبحانه وتعالى الميثاق على العلماء أن يبيّنوا للنّاس ما علّمهم وأتاهم من العلم...ولا تخرج عن هذا الإطار المبرّرات التي ساقها صاحب كتاب كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة، المنسوب للأزكوي (عاش في القرن الثّاني عشر الهجري/ الثّامن عشر الميلادي) لتدوين كتابه. فهدفه يتمثّل بالحفاظ على المذهب الإباضي وتراثه، عندما لاحظ

(١) ينظر المرجع السّابق، ، ص: ١٠ – ١٦.

(٢) المرجع السّابق،ص: ١٧.

(٣) ينظر الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٣٥.

(٤) المرجع السّابق، ص: ٣٦.

عـزوف النّـاس عـن ذلـك، وقلّـة الكتـب فـي هـذا البـاب بقولـه: (...فقـد دعتنـي الهمّـة إلـى جمـع هـذا الكتـاب وتأليفـه وتلخيـص معانيـه وتصنيفـه، وذلـك لمـا رأيـت أهـل زماننـا قـد غفلـوا عـن أهـل مذهبهـم الشّـريف، ورغبـت أنفسـهم عـن قـراءة الكتـب التـي خلّفهـا السّـلف.» [١]

إذا تذكّرنـا أنّ كتـاب كشـف الغمّـة كانـت مـن مصـادره السّـير العمانيّـة، علمنـا علاقـة الكتـاب بهـذه السّـير، وأدركنـا هـدف الكتـاب مـن التّعبئـة التـي تبنّاهـا المؤلّـف للالتفـاف حـول المذهـب الإباضـي، والتّشـبّع بفكـره للبقـاء فـي خطّـه وفلكـه.

٧- السّـير العمانيّة لون عمانيّ خالص

سبق أن ذكرنـا أنّ السّـير العمانيّـة المتقدّمـة منهـا - بخاصّـة - عمانيّـة خالصـة، بمـا تناولتـه مـن موضوعـات تخـصّ عمـان وحدهـا، وتـكاد تنفـرد بمعالجـة مسـائل لهـا علاقـة بالإمامـة والمسـتجدّات فيهـا زمانًـا ومكانًـا وأشـخاصًا وجماعـات وأحداثًـا.. يقـول عليـان الجالـودي: « ويتّفـق الباحـث مـع مـن سـبقه مـن الباحثيـن فـي أنّ السّـير العمانيّـة شـكّلت لونًـا عمانيًّـا خالصًـا، مختلفًـا كليًّـا عـن السّـير بمفهومهـا الإسـلامي العـام. وينتظمهـا محـور واحـد هـو الوعـظ والتّوجيـه والدّفـاع المذهبـي. ولـم يكـن الهـدف منهـا بـأيّ حـال مـن الأحـوال التّسـجيل التّاريخـي...» [٢]

٨ - سـجّلت تاريخ عمان بطريقة أفقيّة

وصفت بعـض الكتابـات التّاريخيّـة الإباضيّـة - ومنهـا السّـير- بأنّهـا عبـارة عـن سـير لأشـخاص، وأنّ التّاريـخ الإباضـي جـاء علـى شـكل طبقـات.. بمعنـى إنّـه سـجّل الأحـداث والمواقـف بشـكل أفقـي، بمـا لا يتيـح الفـرص لربـط الأحـداث بعضهـا ببعـض؛ حتّـى يمكـن الوقـوف فيـه علـى السّـببيّة التّاريخيّـة. والتّاريـخ - كمـا يقـول المـؤرّخ الهولنـدي بيتـر خيـل (جـدال لا ينتهـي) [٣]. مـع الاعتـراف أنّ العمانيّيـن الذيـن كتبـوا السّـير فـي القـرون الأولـى لـم يكونـوا يقصـدون كتابـة التّاريـخ أو تسـجيله أو تدوينـه، كمـا لا يجـب التّقليـل مـن أهميّـة التّراجـم وهـذه السّـير، فقـد تمكّنـت مـن بلـورة بعـض الأمـور فـي المذهـب

---

(١) المرجع السّابق، ص: ٣٨. ينظر الأزكوي، تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة، ص: ١٠٠٩

(٢) أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني، ص: ٥٥

(٣) الدكتور طريف الخالدي، بحث في مفهوم التّاريخ ومنهجه، ط١، دار الطّليعة، بيروت، تشرين الثّاني (نوفمبر) ١٩٨٢، ص: ١٠

الإباضـي، وقامـت بعمليّـة إثـارة الحماسـة فـي النّفوس للمذهـب.

إلاّ أنّ هذا التّناول للتّاريخ وكتابة السّير بهذه الطّريقة أوجد في تاريخ الإباضيّة فجوات وثغرات، لم تملأ ولم تسدّ، أو جُبِرَ النّقص فيها عن طريق التّأويل الخاطئ أو التّفسير غير الصّحيح، وغير النّزيه – أحيانًا – فنتج عن ذلك توجيه الأحداث وجهة غير سليمة.(١)

٩ – تفتقر السّير إلى منهج واضح

بمـا أنّ هـذه السّـير لـم تكتـب لتدويـن التّاريـخ، وبمـا أنّهـا كانـت توضـع اسـتجابة لظـروف خاصّـة، لتـؤدّي هدفًـا محـدّدًا، لـه خصوصيّـه البالغـة.. فإنّهـا لـم تنسـج علـى منهـج واضـح، ولا علـى منهـج الكتابـة التّاريخيّـة. فـإنّ هـذا لا يعيبهـا، ولا ينقـص مـن قيمتهـا؛ فـإنّ نهجهـا أو خطّهـا كان مسـطّرًا بيـن نقطتـي ارتـكاز، لا محيـد عنهـا: نقطـة المبـادئ الثّابتـة والأهـداف المحـدّدة، لـذا فـإنّ مناهجهـا تختلـف تبعًـا لهـذا. يقـول عليـان الجالـودي: «...وتفتقـر هـذه السّـير لمنهـج التّدويـن التّاريخـي فـي أسـاليب التّدويـن أو فـي طريقـة العـرض والتّبويـب. وبالتّالـي جـاءت قاصـرة عن تقديم صـورة واضحـة الأبعـاد والملامح لتاريـخ عمـان أو مؤسّسـات المجتمـع العمانـي فـي الفتـرة التـي تغطّيهـا هـذه السّير. غيـر أنّ هـذا لا ينفـي إمكانيّـة الإفـادة منهـا وتوظيفهـا التّوظيـف الأمثـل فـي قـراءة الجوانـب المتّصلـة بالتّاريـخ السّياسـي والفكـري للمجتمـع العمانـي..» (٢)

بينمـا لسـيّدة كاشـف نظـرة أخـرى للسّـير التـي حقّقتهـا، فهـي تـرى أنّ لكتّـاب السّير منهـج واضـح وعلمـي؛ تبعًـا لهدفهـم مـن كتابتهـا، كمـا ذكرنـاه سـابقًا: « ومنهـج الكتابـة فـي هـذه (السّـير والجوابـات) منهـج يسـتند قبـل كلّ شـيء إلـى القـرآن الكريـم، وإلـى الأحاديـث النّبويّـة، كمـا يسـتند إلـى كافّـة الأصـول والمصـادر التّاريخيّة.ويتّبـع بعـض كتّـاب هـذه السّـير طريقـة طـرح الأسـئلة وإعطـاء أجوبتهـا.» (٣)

فـي الحقيقـة لا أجـد تعارضًـا فـي تقويـم عليّـان وتقويـم سـيّدة كاشـف، فـالأوّل نظـر إلـى الموضـوع

---

(١) ينظر محمد بن قاسم ناصر بوحجام، تاريخنا القديم (كيف ندرسه وكيف نحقّقه)، ط٢، المطبعة العربيّة، غرداية، الجزائر، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص: ٣٠، ٣١

(٢) أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني ص: ٥٥

(٣) السّير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان، ج١، ص: ٩، ١٠

من منظور المنهج التّاريخي، فوجد خللا فيه، والثّانية حلّلت الموضوع انطلاقًا من واقعيّة الظّروف التي كتبت فيها هذه السّير، ومن منطلق طبيعة عرض كتّابها، التي كانت لها أهداف محدّدة، وتوجّه خاصّ. ثمّ إنّ حكم سيّدة كاشف ينطبق على السّير التي وجدت ما بين القرنين الأوّل والسّادس الهجريّين. وعليّان أصدر حكمه على سير تجاوزت هذه الفترة.

رأي علي بن حسن بن خميس اللّواتي واضح ودقيق في الموضوع. حين ردّ على من أعطى للسّير الصّبغة التّاريخيّة. فقال إنّ من خلع عليها هذه الصّفة هو واهم: «إذ المصطلح وكما يفهم من استعمال المصادر العمانيّة، يستعمل للدّلالة على الرّسائل التي يبعث بها بعض العلماء إلى الأئمّة، فيما يتوقّع من الإمام أن يسير عليه. ولا ينكر ما لتلك السّير من فائدة للمؤرّخ من حيث ما يرد فيها من معلومات تعين الباحث، وتخدم غرضه، فيما يشبه الفائدة التي يجنيها الباحث من العلوم المساعدة الأخرى. ومنها علم الفقه. لكن اعتبارها كتابة تاريخيّة علميّة محلّ نقاش وتأمّل.» (١)

الأستاذ عليّ اللّواتي لا يوافق على إضفاء صفة الكتابة التّاريخيّة على السّير العمانيّة، فإنّ هذا يجانب الموضوعيّة، ولا يتناسب مع النّظرة العلميّة لمحتوياتها، لا نجد فيها التّاريخ إلاّ قليلاً، مع أنّ هذا القليل يفيد في معرفة بعض الحقائق التّاريخيّة.إذن لا ينطبق على هذه السّير المنهج التّاريخي، أو قواعد التّدوين التّاريخي للأحداث؛ لأنّنا نجد فيها: « نصًّا عقديًّا وفقهيًّا، ينطلق في إطار مناقشة موقف هذا الإمام أو ذاك، وتلك الشّخصيّة أو هذه.على أساس عقائدي وفكري، يحاول تفسير الموقف أو تخريجه تخريجًا ينسجم مع القواعد الفكريّة أو الفقهيّة المعروفة بين العلماء. وذلك يؤكّد أنّ الكتابة التّاريخيّة المنهجيّة في عمان لم تكن بارزة المعالم حتّى القرن الرّابع الهجري.» (٢)

ذكرت سيّدة كاشف في النّصّ السّابق أنّ منهج أصحاب السّير التي درستها استندت « إلى كافّة الأصول والمصادر. التّاريخيّة» يبدو هذا التّقرير غريبًا؛ بالنّظر إلى قلّة الإمكانات التي تتيح لهؤلاء الكتّاب الحصول على المصادر. فما مقدار أو نصيب هذه الحقيقة من الصّحّة؟

---

(١)أعمال الملتقى العلمي الثّاني حول مصادر التّاريخ العماني ص: ١٠٤

(٢)المرجع السّابق، ص: ١٠٣

الخاتمة

هذه بعض الخصائص التي تميّزت بها السّير العمانيّة. وهي في مجملها مميّزات خاصّة، تختلف كثيرًا عمّا هو متعارف عليه في كتابة السّيرة. فهي وإن اختلفت عن المألوف، وإن رأى فيها بعض الباحثين قصورًا عن تأديّة مهمّة التّأريخ كما هو منتظر من السّير. إلاّ أنّها كانت ذات فوائد في تأصيل أصول الإباضي، التي احتاج إلى هذه السّير لفرض وجوده، والدّفاع عن فكره ومبادئه. كما كانت هذه السّير مصادر لكثير من الأحداث التّاريخية والواقعات والوقائع.. هي وثائق لعرض الفكر الإباضي في مختلف جوانبه.

لقد كانت محلّ اهتمام الباحثين في العصر الحديث؛ إذ كوّنت نواة لكثير من مصنّفاتهم حول التّاريخ العماني. لحاجتهم إليها في غياب مصادر تاريخيّة خالصة في هذا التّاريخ..

رغم الجهود المخلصة المشكورة التي قام بها الباحثون لدراسة السّير العمانية: جمعًا وتحقيقًا ودراسة..إلاّ أنّ كثيرًا من هذه الدّراسات في حاجة إلى نقد وإعادة النّظر. وبعض التّحليلات تنتظر من يواصل العمل فيها لإثرائها ونقدها وربّما نقضها، وتقديم تفسيرات أخرى لهذه السّير..

السِّيرات في المجتمع الإباضي بوادي مزاب

أ.د/ إبراهيم بن بكير بحاز
أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة غرداية /الجزائر
bahazhistory@yahoo.com

الكتابة عن السيرة عند الإباضية في المشرق والمغرب كتابات، لأنها أي السيرة، ليس لها معنى واحد عندهم:

فالسيرة تعني بلا شك سيرة الرسول محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - كما هي عند جميع المسلمين وغير المسلمين[1] ممن اهتم بحياة نبينا -عليه السلام-.

والسيرة أو السير بصيغة الجمع، تعني تراجم العلماء بخاصة وهم ورثة علم النبي، والأعلام بعامة ممن له بصمة بارزة في قومه أو مذهبه أو مجتمعه أو زمانه.

والسير عند العُمانيين هي مواقف في العقيدة أو هي اتجاه في الفتوى وهي أيضا كتابة للتاريخ، فقبْل أن يُعرف مصطلح «التاريخ» عند العرب المسلمين في القرن الأول والثاني للهجرة، اختار العُمانيون مصطلح «السير» ليعبِّروا به عن التاريخ، ويكتبوا تحت مصطلحه بصيغة الجمع تاريخهم، فسيرة سالم بن ذكوان[2] في أوائل القرن الثاني الهجري إنما هي تاريخ ابن ذكوان، أو السير

---

(١) من المعروف أن العرب والعجم كتبوا عن الرسول «ص" كتابات طويلة ومتعددة، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن سيرة نبي الإسلام عرفت من الكُتاب والكتابات ما لم يعرفه بشر على وجه البسيطة عددا ومجلدات، ولا تزال سيرته تثير الاهتمام وتدعو الأقلام إلى الغوص في جواهرها ولآلئها، ويكفي أن أشير إلى كتاب «المائة الأوائل" لمايكل هارت الذي لم يجد من بين مائة من البشر من لدن آدم عليه السلام إلى زمانه هو في أواخر القرن العشرين، من يستحق مقدمة وريادة وأول المائة بجدارة، من غير محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) عن سالم بن ذكوان وسيرته انظر: بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية ، قسم المغرب، الترجمة رقم ٣٦٥ وانظر عمرو خليفة النامي(الدكتور) دراسات عن الإباضية، ترجمة ميخائيل خوري، مراجعة ماهر جرار، محمد صالح ناصر مصطفى صالح باجو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١: ٢٠٠١م، ص ٦٢ وما بعدها.

المحبوبية[1] هي التاريخ المحبوبي تماماً كما نقول تاريخ الطبري أو تاريخ ابن خلدون، مع الفارق في حجم الكتب بين هذا وذاك.

وقد دعوتُ في ملتقًى من ملتقيات وحدة الدراسات العُمانية بجامعة آل البيت، في مدينة المفرق بالمملكة الأردنية الهاشمية، إلى الاهتمام بهذه السير العُمانية تحقيقا ونشرا تحت عنوان "جمهرة السير العُمانية"، لعلمي بأهميتها وصدقها وعمقها والمادة التاريخية الغزيرة التي تحويها فضلا عن العقيدة والفقه، ولولاها ما استطاع الشيخ نور الدين السالمي -رحمه الله- أن يكتب كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان»[2].

والسير عند إباضية المغرب، هي سيرة الحلقة أي حلقة العزابة[3] كما ضبطها مؤسسها الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي[4] في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد، ثم بعد قرن تقريبا، تطور نظامها فكتب الشيخ أبو عمار عبد الكافي[5] في القرن السادس الهجري، الثاني عشر للميلاد، كتابه المعروف بـ «سير أبي عمار عبد الكافي»، ويقصد سيرَ الحلقة ونظامَها وضوابطَها.

والسير عند إباضية المغرب كذلك تعني التراجم للعلماء والأعلام، ولذلك نجد سلسلة من المؤلفات تحمل عنوان السيرة أو السير مثل: «السيرة وأخبار الأيمة « كما هي عند أبي زكرياء الوارجلاني في ق٥هـ/١١م، و «سير الوسياني» لأبي الربيع سليمان الوسياني في ق: ٦هـ/١٢م، و

---

(١) انظر عنها عليان الجالودي(دكتور) السير العُمانية مصدرًا لتاريخ عُمان، قراءة في مخطوط سير العلماء المحبوبيين، ص، ١٥ . ٦٧، وانظر د/ عبد الرحمن السالمي(دكتور) دراسة لكتابة قواميس البيوغرافيا في عُمان، ص ٧١، الملتقى الثاني لوحدة الدراسات العمانية، ٢٠٠٣، منشورات جامعة آل البيت ، المملكة الأردنية الهاشمية،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٢) تحقيق أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، مط. الشباب، القاهرة، ١٣٥٠ هـ، مجلدان . وتوجد منه اليوم عدة نشرات لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان ولوزارة الثقافة العمانية أيضا فضلا عن الناشرين الخواص.

(٣) عن مصطلحيْ الحلْقة والعزّابة عند إباضية المغرب، انظر: بحاز وآخرون: معجم مصطلحات الإباضية، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان، ٢٠٠٩م ج.

(٤) عن مؤسس نظام الحلقة انظر معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة رقم: ٨٠٣

(٥) عن أبي عمار عبد الكافي وكتابه انظر معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة رقم: ٥٦٢

«سير الشماخي» في ق: ١٠هـ/١٦م[1]، وملحق السير لأبي اليقظان[2] في ق: ١٤هـ/٢٠م

وهذه سير لطالما دَعَونا إلى إعادة تحقيق بعضها وتحقيق ما لم يُحقق بعد، ثم طبعها ونشرها مجملة تحت عنوان "جمهرة السير الإباضية المغربية"[3].

والسيرات عند إباضية مزاب[4] بالجزائر، مصطلح لم نقيّده في معجم مصطلحات الإباضية التي تفضَّلَت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان بنشره عام ٢٠٠٩م مشكورة، هي من المصطلحات التي فاتتنا وغفلنا عنها، ويبدو لي أن أصلها اللغوي هو السيرة المسورية البكرية[5] أي سيرة الحلقة عند تأسيسها، ولما وصلت وادي مزاب مُزِّبت أي وُضعت باللسان المزابي، وأُعطِي لها جمعٌ هو السيرات وهو عادةً جمعٌ للمفرد الأعجمي وإن كان بلغة العرب.

اختار المزابيون صيغة «السيرات» ولم يقولوا السِّيَر لأنها أخف على لسانهم الأمازيغي، ولأن السير تعني سير الرجال أي تراجمهم، والسيرات بعيدة كل البعد عن هذا المعنى المباشر للسيرة، ثم إن هذا الجمع أي المؤنث السالم موجود في النطق الأمازيغي المزابي، مثل تَامَطُّوتْ تِيمَطَّاتْ أي: المرأة النساء ومثل سْتِيلُو: القلم، سْتِيلاَّوَاتْ: الأقلام، وهكذا.

السيرات هي مجموعة ضوابط للسلوك المثالي كما عبر عنها الشيخ محمد صدقي -حفظه الله- في كتابه «السيرة تجسيد للسلوك المثالي رسالة في موضوع السير(السيرات)" الذي نشره عام ٢٠٠٣م والسيرات بصيغة الجمع المؤنث السالم، وهي أقرب إلى التعبير الأمازيغي بهذا الجمع، فيما يبدو لي من الجمع على «سِيَر»، وهذه السيرات ليست للعزابة فقط، وإنما تشمل

---

(١) عن أبي زكرياء الوارجلاني وكتابه وأبي الربيع سليمان الوسياني وكتابه وأبي العباس أحمد الشماخي وكتابه انظر معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، الترجمة رقم: ٩٨٤، ورقم ٤٥٢، ورقم ٠٨٠ وراجع كتبهم فهي مطبوعة متوفرة.

(٢) عن أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي وكتابه المخطوط ملحق بسير الشماخي، انظر معجم أعلام الإباضية، الترجمة رقم:٠٤٢، علما بأن الطالب كروشي نور الدين قد قام منذ عامين بتحقيق جزئي لهذا الملحق في مذكرة للماجستير بقسم التاريخ جامعة قسنطينة ٢.

(٣)كان هذا في ملتقى بجامعة ليون ٢ بفرنسا عام ٢٠١٢م وملتقى بجامعة كامبريدج بابريطانيا عام ٢٠١٤م

(٤) مزاب وادي مزاب انظر علي يحي معمر: الإباضية في الجزائر الحلقة ٣ ، مراجعة أحمد أوبكة، المطبعة العربية، غرداية، وانظر الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية، ط٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، وراجع معجم مصطلحات الإباضية: المصطلح : مزاب، وادي مزاب، المزابيون.

(٥) عن هذا المصطلح ينظر معجم مصطلحات الإباضية، مصطلح مسورية ومصطلح بكرية.

العزابـة وإيـروان[1] وتيمسـيريدين[2] وإمصـوردان[3] وغيرهـم مـن العناصـر الفاعلـة فـي المجتمـع المزابـي بـوادي مـزاب.

فالسـيرات كمـا أسـلفت، هـي ضوابـط للسـلوك الاجتماعـي عمومـا، تبـرز مـن خـلال مـا يجـب أن يلتـزم بـه العزابـي أو إيـرو: أي طالـب العلـم أو تَمْسِـيرَتْ: أي المـرأة المكلفـة مـن هيئـة العزابـة بغسـل الموتـى مـن النسـاء والأطفـال ذكـورا دون البلـوغ والإنـاث، وأَمَصُّـورْدُو: الفـرد المتطـوع للخدمـة العامـة.

تَقَدُّمُ العزابـة فـي كل شـيء هـو مـن السِّيرات، فهـم المرجعيـة العليـا فـي مجتمـع مـزاب، وتقدُّمُهـم مضبـوط بسـيرات فـي سـلوكهم فيمـا بينهـم كلامـًا ووعظًـا ومشـيًا ووقوفًـا وتحليقًـا وترتيبًـا فـي الحلقـة أثنـاء تلاوتهـم لكتـاب الله، وفـي مجالسـهم الخاصـة ودخولهـم المجلـس وخروجهـم منـه، وفـي دروسـهم وأكلهـم وشـربهم، وفـي توزيـع الصدقـات اليوميـة والموسـمية والسـنوية، وفـي حضورهـم الأعـراس والجنائـز، وحضورهـم الأسـواق وإن كان مـن السـيرات ألا يُكثـروا مـن دخـول الأسـواق.

السـيرات سـلوك منضبـط يتقيد بـه أفـراد المجتمـع بـوادي مـزاب، مسـتلْهَمة مـن كتـاب الله وسـنة رسـوله كمـا كتـب الشـيخ الشـهيد بلحـاج قشـار -رحمـه الله- فـي الثمانينيـات مـن القـرن الماضـي، كتابـه (عوائـد مـزاب سـنن لا تقاليـد)[4]، فعمـل علـى تأصيـل العديـد مـن العـادات المزابيـة، وإن لـم يعطهـا مصطلـح السـيرات، ولكـن شـعَرت أنـه يريـد هـذا بالـذات.

فمن السيرات التي يمكن ذكرها للتمثيل لا الحصر ما يلي:

١- لبـاس الحانـك الصوفـي الخفيـف أو الثقيـل، بحسـب الموسـم حـرا أو بـردا، خـاص بالعزابـة لتمييزهـم بـه، وهـو حانـك متواضـع جـدا، وطريقـة لبسـه هـي نفسـها مـن السـيرات.

٢- مواسم التلاوة، وأماكنها في قرى وادي مزاب من السيرات.

(١) إيروان جمع إيرو وهو طالب العلم، لمزيد من التوضيح والشرح انظر المصطلح في معجم مصطلحات الإباضية

(٢) عن تيمسيريدين أي غاسلات الموتى من الإناث، انظر المصطلح في معجم مصطلحات الإباضية.

(٣) عن إمصوردان أي الأفراد المتطوعون، انظر المصطلح في معجم مصطلحات الإباضية.

(٤) الكتاب مطبوع ، ومتداول في مكتبات وادي مزاب.

٣- مواسم الصدقات المسجدية، أو الوقفية مثل ما يُعرف بـ: «تِنُوبَاوِينْ»[(١)] تُؤدى بنظام السيرات، وتُفرَّق وتُوَزَّع بذلك النظام.

٤- الأدعية "تُوَاْتَرَا" في البدايات والنهايات لجل الأعمال إن لم أقل كلها، هي من السيرات وكيفية أدائها ومن يؤديها بحسب مناسبتها من السيرات، وتتم الأدعية وجوبا بضم الكفين معًا ورفعهما قليلا وكلُّها من السيرات...

٥- ضوابط الجنائز، غسلا للميت وحملا له وأدعية وتوجيها ودفنا وتحليقا وصدقات في المقبرة أو في دار الميت من السيرات..

٦- ضوابط الأفراح مثل الأعراس تتم بإشراف العزابة وجوبا لمن يرجو بركة حضور العلماء من حفظة كتاب الله عرسَه، وتسير مجرياتها ضمن السيرات المتعارف عليها... وغيرها كثير جدا في الواقع المعيش للمزابيين في الجزائر وكذلك إباضية وارجلان.

ومما يحمي هذه السيرات ويتركها حية متداولة، قول أحدهم للآخر:

- لا تقتل السيرات.

- افعل هكذا فإنه من السيرات.

- أو السيرات أن تفعل هكذا.

وأغلب هذه السيرات شفوية، ولذلك أجدني أدعو إلى تسجيل هذه السيرات كتابًا، فكم تمنَّيت لو أن الشيخ محمد صدقي كتب في هذا كتابه الذي سلف ذكر عنوانه، وقد رمى فيما بدا لي إلى ذلك في بداية الكتاب، إلا أنه لم يفعل واكتفى بذكر سير حياة بعض مَنْ كتب في السير ومحتوى بعض تلك الكتب.

إذن فالدعوة قائمة وملحة لتحرير كتاب في السيرات، يَحفظ للأجيال ما تبقّى منها، ويذكّرنا بما فات، ويصنفها ويرتبها بحيث تتَّضِح أكثر، ويشرحها لتبيان مراميها ومغزاها، ثم يبين مدى

---

(١) جمع اتنوبة هي صدقة موسمية تتبع العقارات من المساكن، عنها انظر: معجم مصطلحات الإباضية.

علاقتها بمزاب وحده، أم هي في الأصل عند إباضية المغرب عموماً، فلماذا بقيت في وادي مزاب بالجزائر وتقلصت أو اختفت تماماً عند إباضية جربة ونفوسة اليوم؟ هل لبقائها علاقة ببقاء نظام العزابة قائما كمرجعية قوية في وادي مزاب، وغيابه عن جربة ونفوسة بسبب غياب العزابة؟

وما أحوج المجتمعات الإسلامية إلى هذه الضوابط للاقتراب من سير الراشدين وسلوكهم الذي أُمِرْنا باتباعه في قول رسولنا الكريم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» إن أردنا الاقتداء ورُمْنا اللحاق بركب الحضارة في إطار ديننا ومرجعيتنا.

وأختم بأن معظم الانضباط والالتزام عند إباضية المغرب، إنما هو راجع للعقيدة الإسلامية التي تمكَّنت في نفوس الإباضية من جهة، ويعود من جهة أخرى إلى هذه السيرات التي ضَبَطت سلوك المزابيين بوجه خاص ولا تزال تؤدي دورها إلى يوم الناس هذا.

البُعد الخطابي السلطوي

(قراءة في كتاب تحفة الأعيان)

د . عيسى بن محمد بن عبدالله السليماني

أستاذ مشارك في كلية العلوم التطبيقية بنزوى وباحث في وزارة التعليم العالي بسلطنة عمان

issaa55@yahoo.com

أ.حافظ بن أحمد البوسعيدي

أستاذ بالكلية التقنية بنزوى

Hafedh75@yahoo.fr

تمهيد

قابلية التأثير بين الخطاب والسلطة ، قابلية مزدوجة تتكئ على القوة التي تنبثق من كل واحد منهما ، وبالتالي فتغليب طرف على الآخر دون مرجعيات تفسيرية واضحة يجعل الأمر ضرباً من التخمين، بل هو ضرب من الاستسلام لسلطة المعرفة الموجهة .

إنّ مصطلحي الخطاب والسلطة مصطلحان عميقان ينبنيان على ثيمات تختزل الكثير من أطر التنظير التي يتنازعها تفسيرات مختلفة تنبني على سلطة المعرفة التي توجه أصحاب النظريات المتعلقة بهذا السياق، كما أن مصطلح الخطاب قد يتقاطع مع مصطلحات أخرى أهمها مصطلح النص، مما شكل خلافا بين الباحثين في التفريق بينهما أو توحيد المفهوم المنبثق منهما . ولذلك فقد شكل عمق تناول القضية عند فوكو منطلقا لكثير من الباحثين الذين يتجهون لدراسة موضوع السلطة وعلاقته بالمجالات الأخرى، وهو يتوسع في تناول السلطة متجاوزا " دور كايم " الذي يعطي للظاهرة الاجتماعية هيمنة مطلقة ملزمة؛ ففوكو يدرسها معتنيا بتحليل علاقات القوى الفعلية التي يجسدها تصادم الاستراتيجيات الاجتماعية المتعارضة والأهداف السياسية الملازمة لها مؤكدا على ضرورة تتبع الظاهرة العقلانية بتلمس وسائل العقلنة والترشيد التي سعت إليها المجتمعات الحديثة .

إن البحث في الجانب النظري الذي يستلهم الرؤية الفلسفية في تفسير علاقة الخطاب بالسلطة سيفضي إلى دعم أو تحسين العناصر المعرفية التي يتكئ عليها الباحثون في هذا المجال، كما أن التطبيق سيسفر عن ضبط بعض القيم النظرية وفق تطبيقات الخطاب المبحوث؛ للكشف عن الاستراتيجيات الخطابية في إنتاجه، والمحيط الفكري المتصل بالخطابات الأخرى المنتجة في ظل التجربة الاجتماعية والحضارية الواحدة أو المتقاربة على أقل تقدير .

إننا ننظر إلى الخطاب من منطلق عدم براءته[1] بالنسبة للمتلفظ به ؛ فهو يترفع عن الحيادية والشفافية التي تسلمه إلى المعنى المجمع عليه، وعدم براءة الخطاب لا يعني براءة المتلفظ مما يحتمله، بقدر ما يشير إلى القوى الكامنة فيه على بلورة اللاشعور المتسرب إليها دون قصدية الانزلاق إلى بسطها أمام المتلقي .

على أن خوض غمار مسالك التلفظ يجب أن يتحلى بوسطية التناول دون الزج بعناصر تأويلية لا يحتملها الخطاب، وذلك وقفا على ما يمنحنا إياه التحليل من جوانب يحملها الخطاب وفق ضوابط النظريات والحدود النظرية التأويلية.

مدونة البحث

كتاب " تحفة الأعيان " لنور الدين عبدالله بن حميد السالمي كتاب مهم في هذا السياق ، فهو كتاب تاريخي صدر ضمن ميكانزمات اجتماعية في فترة تسعى إلى تكوين نظام سياسي مختلف ، كما أن صاحب الكتاب هو أصولي فقيه أنتج العديد من الكتب في هذين المجالين، وقد كان الركن الأساس الذي قامت عليه حركة التغيير السياسي في سلطنة عمان من خلال قيام حكم الإمامة .

والكتاب يتكون من جزأين، بدأ الجزء الأول بالتعريف بعمان وفضائل أهلها، ودخول العرب فيها على يد مالك بن فهم، ثم إسلام أهلها وجهودهم ، وقيام الإمامة الأولى بمبايعة الإمام الجلندى بن مسعود، واستعرض المؤلف الأحداث اللاحقة في هذا الجزء إلى أن انتهى بحكم أسرة النباهنة واصفا حكمهم بالجور والظلم بعد حكم الأئمة العادلين السائرين سيرة الخلفاء الراشدين.

---

(١) انظر، نعيمة سعدية ، تحليل الخطاب والدرس العربي ، في قضية شفافية اللغة وصدقها بين تشومسكي وأتباعه ، وبارث وأتباعه. ، جامعة محمدخيضر.

أما الجزء الثاني فيبدأ بأسرة اليعاربة بداية بإمامة الإمام ناصر بن مرشد ويطيل في هذا المحور إطالة تنطوي على عظيم أخباره وقدرته على إعادة العدل واستقرار الأمن وطرد الأعداء من الفرس والبرتغاليين ، ثم استعراض الأئمة الذين جاءوا بعده، وصولا إلى أسرة البوسعيد الحاكمة وما لابس ذلك من إمامة الإمام عزان بن قيس ثم خروج تركي بن سعيد عليه بدعم الاستعمار الإنجليزي، وما لحق ذلك من أحداث انتهاء بحكم السلطان فيصل بن تركي، وكان الحد الزمني للكتاب يقف عند عام ١٣٢٨هـ أي قبل قيام إمامة الإمام سالم بن راشد الخروصي بسنتين إلى ثلاث سنوات .

إن تسلسل أحداث الكتاب وترتيبه تنبني على تبؤر السلطة الخطابية نحو بؤرة إقامة الإمامة العادلة سيرا على نهج الخلفاء الراشدين، ويمكن رصد ذلك عموما من خلال الترتيب الزمني لأحداث الكتاب؛ فهو وإن كان مرتبا ترتيبا تصاعديا إلا أنه يعتني بالأحداث التي تتصل بعملية تعبئة الأمة لإعادة حكم الإمامة، فقبل قيام الإمامة الأولى أورد المؤلف بابا في صفاء عقيدة أهل عمان ثم قيام الإمامة الأولى وهو ما يعكس أن صفاء العقيدة هو الدافع والمحرك لمبايعة الجلندى بالإمامة.

وليس عبثا أو صدفة زمنية أن ينتهي الجزء الأول بعهد النباهنة الطغاة الظالمين ويبدأ الجزء الثاني بمبايعة الإمام ناصر بن مرشد بالإمامة ، وليس من العبث إطالة الحديث عن عهد الإمام ناصر ابن مرشد بعد أن عانى الناس الأمرين من حقبة حكم بني نبهان.

وهكذا كان استنهاض الهمم ودفع العزائم هو العنصر الكامن خلف سير الأحداث التاريخية الزمنية، وهو ما جعل عنصر الإمامة البؤرة الحقيقية التي تدور عليها الأحداث المتتابعة والتواريخ الزمنية.

هذه القراءة العامة لمجمل الكتاب نتبعها بنموذجين تحليليين من نصوص الكتاب بعد أن نمضي في مهاد يقف على مصطلحي الخطاب والنص.

والبحث يسعى إلى بلورة عناصر السلطة (بتعددها أو بتوحدها) التي حركت عملية إنتاج كتاب " تحفة الأعيان " من خلال تحليل نماذج خطابية تضمنها الكتاب، واستثمار بعض السياقات المعرفية التي لعبت دورا في تكوين الخطاب وانعكاسات ذلك في ما أنتجه، كما أنه يسعى لبسط التحليل في انعكاس سلطة الخطاب من خلال رصد الاستراتيجيات البنائية له .

مصطلح الخطاب

الخطـاب المنطـوق يظهـر بعـده مـن خـلال المتلقـي ونوعيـة الخطـاب ، إذ الخطـاب يتنـوع بعده بتنـوع دلالتـه . وفـي هـذا الإطـار سنتحدث عـن نوعيـة البعـد النصـي مـن خـلال منطوقـه ، إلا أننـا نجـد أنفسـنا أمـام إشـكال نقـدي هـل الخطـاب = النـص ، أم هنـاك ثمـة فـرق بيـن هذيـن المصطلحيـن .

فالخطـاب فـي اللغـة يقصـد بـه كل مـا ينطلـق مـن مملكـة الـكلام ، وقـد عرفـه ربيعـة العربـي بـأن «الخطـاب وحـدة لغويـة طبيعيـة توظـف باسـتمرار فـي عمليـة التواصـل[1]» كمـا النـص يقصـد بـه المـادة الخـام للمنطـوق ، وقـد عـد النقـاد الغربييـن كلمة النص أقـدم من الخطـاب[2]، وبعـد قـراءات نقديـة قدمهـا ربيعـة العربـي فـي بحثـه « الحـد بيـن النـص والخطـاب» تبيـن أن هنـاك تداخـل بيـن المصطلحيـن «فنلاحـظ بـأن مفهـوم النـص يقتـرب بـل يتماهـى مـع مفهـوم الخطـاب فـي التصـورات التـي تـدرج بعـد السـياق التواصلـي ، بحيـث يصبـح المفهومـان تداوليـين ، وبالتالـي يصعـب التفريـق بينهمـا ، بـل أحيانـا يصبـح الخطـاب أعـم مـن النـص، كمـا عبـر ذلـك مفتـاح ، أو النـص أعـم مـن الخطـاب كمـا عبـر ذلـك سـعيد يقطيـن»[3]. مـن جانـب آخـر نجـد «اختلافـات بيـن هـذه الخطابـات علـى مسـتوى كميـة الإخبـار ونوعيتـه فـي مجـرى الخطـاب ، وكذلـك الرؤيـة السـردية التـي مـن خلالهـا يتـم إرسـال الخطـاب ، لكننـا مـع ذلـك نجـد صيغـة الخطـاب المسـرود فـي هـذه الخطابـات هـي المهيمنـة [4]» .

تحليل لغة الخطاب

إن مسـار تأويـل الخطـاب الأدبـي وتلقيـه لا يمكـن فصلـه عـن مسـارات التأويـل المرتبطـة بـه، وقـد ظهـرت عـدة طرائـق لتأويـل الخطـاب ، ولسـنا بصـدد الحديـث عنهـا ، إلا أن النظـرة الحديثـة للنقـاد فـي قضيـة التأويـل توصلـت لقـول حاسـم مفـاده . " غلبـة التأويـل، أي الحضـور الأكبـر للقـارئ دون أن

---

(١) ربيعة العربي ، الحد بين النص والخطاب ، كلية الآداب اكادير ، مجلة علامات في النقد ، ٢٠١٠ ، العدد ٣٣ ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠

(٣) المرجع نفسه ص ٤٢

(٤) يقطين سعيد ، تحليل الخطاب الروائي- الزمن – السرد – التبئير – ، ط٣ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ص ٢٥٤.

يحصل الغياب الكلي للنص ، ولا المؤلف " [1]. فالخطاب المؤول، تكونه مفردات وجمل تختلف استعمالاتها بمقتضى السياق ؛ لذلك نجد أنفسنا مضطرين للتفرقة بين المفردة واستعمالاتها ، وقد أشار جون لاينز في كتابه إلى هذا المعنى[2] .هذه القضية لم تكن جديدة على البلاغة العربية ، فالواقعة اللغوية تُعوّض بدلالة جديدة ، غير الدلالة المعجمية الظاهرة ، وهذا ما فسّره عبد القاهر في دلائله حين قال " هي أن تقول المعنى ومعنى المعنى ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر "[3].هذه الدلالة الجديدة تُستقى عن طريق المخيلة ، خارجة عن الإدراكات الحسية ، مخترقة للحدود المرئية ؛ لتبلغ عمق الأشياء ، فتقرب بين الدلالتين المتنافرتين ، فتصبح صورة ذات شاعرية أرفع وأقوى.

وترجمة لتلك المعطيات النقدية المنهجية ، فإننا سنتوقف مع نماذج تمثل السلطة والخطاب ، بمنهج يحاول قراءة منطوق النص ، وبعده الدلالي المتولد من النص .

- **الأنموذج الأول**

بسم الله الرحمن الرحيم

" من إمام المسلمين سلطان بن سيف بن مالك رأس العرب اليعربي العربي العماني ، إلى عالي ذروة الجانب المعظم الهمام المكرم : إسماعيل بن القاسم القرشي العربي .

أما بعد : فإنا نحمد الله على آلائه وجميل صنعه وبلائه ، ونسترشده إلى سلوك سبيل رضاه ، ونستزيده من خزائن مواهبه وعطاه ، إنه بيده مفاتيح كل خير ، وكفاية كل بؤس وضير ، وإن سألت أيها المحب عنا ورمت كيفية الحال منا ، فإنا بحمد الله في حال يسر به الودود ، ويساء به الحسود . ثم لتعلم أيها الملك أنه قد وصل إلينا في مدة أيام قد تصرمت ، وشهور قد تخرمت، رجل من جانبكم يزعم أنكم أرسلتم بيده طروساً بها درر من رائق لفظكم وخطابكم ؛ غير أنه

---

(١) الحمداني ، حميد ، من قضايا التلقي والتأويل ، منشورات كلية الآداب الرباط ، ط الدار البيضاء ، ١٩٩٥ ، ص ٩-١٠ .

(٢) لا ينز ، جونز ، اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة عباس صادق عبد الوهاب ، ط دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٨ -١٩ .

(٣) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تعليق السيد محمد رشيد رضا ط ، دار المعرفة – بيروت لبنان –١٩٨١، ص ٢٠٣.

يقول : إن المركب الذي اقبل فيه ، عابه الانكسار ، فغرق في اليم ، فأدرك الطروس المسطرة حكم التلف ، ثم بيد أنه قد أفاه إلينا من نتائج لسانه ، واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه ، أنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ؛ لأجل قطع خدامنا في العام الماضي مراكب رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم ؛ ولعمري إنا لندري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائد محض المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم، وانتهاك المحارم ، فإنا نحن لم نقصد إلى انتهاك ذلك سبيلا ، ولا نجد لك على إلزام فعل ذلك دليلا، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ مخالبنا ليسارة رعيتك ، ولا استباحة دم أهل حكمك وقضيتك؛ ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددنا اللهاذم والبواتر ؛ لتدمير عبدة الأوثان، وأعداء الملك الديان، تعرضاً منا لرضاء رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة في إدراك أجر الصابرين المجاهدين . وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام وأعداء الله والإسلام، ألست من سلالة علي بن طالب ، الساقي للمشركين روبى المشارب ؟ وأنت تدري بما جرى بيننا وإياهم من قبل في سواحل عمان وفي سائر الأماكن والبلدان ، من سفك الدماء ، وكثرة الصيال وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لنأخذهم في كل موضع تحل به مراكبهم وتغشاه ، حتى من كنج وجيرون بدرى الشاه ، ولم يظهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً ، وإن كنت في شك من ذلك فسأل به خبيراً ، أو لا نذكرك أيها الملك ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وإنا لك من المنذرين ، وعليك من المحذرين ، إنا لما ملكنا تلك الأيام بلدة ظفار ، وهي عنا نازحة الفيافي والقفار ، لم نر ملكها صلاحاً لشيء أوجبه منا النظر ، وحاكته الاذهان والفكر ، فتركناها لا من خوف قوة قاهرة ، ولا كلمة علينا ظاهرة ، ولا يد غالبة ، ولا كف سالبة ، وحينما خرج عنها عاملنا ، خلف بها شيئاً من مدافع المسلمين ؛ لغفلة جرت عن حملها في ذلك الحين ، ولما ملكتم أنتم زمام عيسها ، واجتليتم ضوء بدرها وشمسها ، لم تدفعوا لنا تلك المدافع ، كأن لم يكن وراءها ذائد ولا دافع ، فأعلم أيها الملك أن البعل غيور ، والليث هصور ، والحر على غير الإهانة صبور ، ومن أنذر فقد أعذر ، وما غدر من حذر ، على أنا في إصلاح ذات بيننا وبينكم راغبون طالبون ، وفي استبقاء صحبتك راغبون ، ولإطفاء الفتن وإخماد المحن بيننا وإياك مؤثرون ، فإن كنت راغباً في الذي فيه رغبنا وطالباً لما له طلبنا ، فادفع لنا إياها ، ولا تحتس بسرعة الاعتداء حمياها ، وإن أبيت إلا الميل إلى اغتنامها ، والجزم على خبط ظلامها ، ففي الاستعانة بالله على من اعتدى سعة ، ومن كان مع الله

كان الله معه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .[1] ''

أبعاد النص :

أولا : جاءت اللغة الخطابية مصدرة بمفردات اكتنزت أبعادا فخرية = إمام المسلمين + رأس العرب " من إمام المسلمين سلطان بن سيف بن مالك رأس العرب اليعربي العربي العماني " غاية تلك السلطة الخطابية زرع البعد السلطوي في ذاتية المتلقي ؛ ذلك مما يوحي بقوة استبطنها الخطاب في براعة استهلاله ؛ كما أن ذلك المعنى يعد بُعدا إشاريا لما ستلقيه منطوقية المفردات النصية على المتلقي . ثم استرسل النص في تبجيل المُخاطب بقوله : " إلى عالي ذروة الجانب المعظم، الهمام المكرم : إسماعيل بن القاسم القرشي العربي " . تلك مفردات صنعتها بلاغة الباث ؛ لإشعار المُخاطب بلغة الاحترام والتقدير ، وذلك مما تتطلبه اللياقة الخطابية لكسب ذاتية المتلقي . فالتبجيل والتعظيم للمخاطب برز بأسلوب سجعي جميل ، جسد لغة التماثل الصوتي ، جراء التتابع الموسيقي الذي بوقعه جسد الدلالة ، إذ وظيفة الإيقاع لا تقف عند حدها ؛ بل تتعدى لتدعم المعنى المعجمي ، كما يرى لوتمان[2]

إن من شأن اللغة الخطابية أن تبدأ بالإجمال ثم التفصيل ،'' أما بعد : فإنا نحمد الله على آلائه، وجميل صنعه وبلائه ، ونسترشده إلى سلوك سبيل رضاه ، ونستزيده من خزائن مواهبه وعطاه، إنه بيده مفاتيح كل خير ، وكفاية كل بؤس وضير " هذا النمط الخطابي سلكته مقدمات الرسائل في العصور السابقة ، فهذا التكثيف السجعي الذي برز في مقدمة هذا الخطاب غايته إبراز مكانة المخاطب . وهذا الأسلوب الخطابي كان متداولا بين الكتاب الأقدمين[3] . فالحمد والثناء ، والاستعانة والاعتماد على من خلق النفع والضر ، والخير والشر ، هو ما اكتنزته تلك السلطة الخطابية المبطنة ، والتي توحي ببعد تهديدي مبطن ، مفادها : لسنا ضعفاء ولا الجبن لباسنا ، فنحن اعتمادنا على الذي وهب النصر لعباده المخلصين ، والقوة والمنعة . تلك السياقات

---

(1)تحفة الأعيان ، ج٢ ص ٦٢ – ٦٤ .

(2)يحياوي ، رشيد ، شعرية النوع الأدبي في قراءة النقد العربي القديم ، ط ١ افريقيا الشرق ١٩٩٤ .، ص ٨٥ .

(3) رمضان ، صالح ، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم – مشروع قراءة شعرية ط٢، دار الفارابي بيروت ،٢٠٠٧، ص.الرسائل الأدبية ، ص ٥٦٣ .

النصية أعطت المنطوق دفقا دلاليا محملا برسالة للمتلقي ، تمهيدا لما سيلقى عليه من تفصيل قادم . " وإن سألت أيها المحب عنا ، ورمت كيفية الحال منا ، فإنا بحمد الله في حال يسر به الودود ، ويساء به الحسود ". فأسلوب الشرط المصدر بعبارة " وإن سألت أيها المحب عنا " يفيد بعدا جديدا حملته لغة امتطت القوة والسلطة ، فالتوازي بالتخالف بين :

حال = يسر به الودود

حال = يساء به الحسود

خلق توترا صوتيا انعكست إيقاعيته على بعده الدلالي ؛ ذلك مما عمق بعدا نفسيا في ذاتية المتلقي ، فجعل منه قراءة ثانية في بعده المنطوق .

إن سلطة الخطاب جديرة بخلق توترات نفسية ، والدليل على ذلك المنطوق الخطابي المصدر بأسلوب النداء والذي افتتحه بعبارة " ثم لتعلم أيها ..... " فالعبارة وما ارتبطت بها من سياقات، حملت لغة إخبارية عتابية " ثم بيد أنه قد أفاه إلينا من نتائج لسانه ، واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه ، أنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ؛ لأجل قطع خدامنا في العام الماضي مراكب رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم " فأسلوب العرض الذي جاء به الخطاب للطرف الآخر له غاية وبعد دلالي ، إذ ليس المنطوق تبريري بقدر ما هو تقريري ، وإثبات دليل للمحاكمة النصية التي تتبعها محاكمة قضائية ، ويؤكد ذلك ما ساقه الخطاب جوابا لذلك الطرح بأسلوب تصدرته لغة القسم " ولعمري إنا لندري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائد محض المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم وانتهاك المحارم " فبعد استنطاق المنطوق الذي فاه به رسول ملك صنعاء ، تبين أنه يحمل تهديداً ووعيدا ، ولذلك جاءت لغة الرد ممهدة بتوطئة تلفها الأخوة والمحبة والصفاء ، فالعتاب بين الخلان أمر جيد ؛ لكن استدرك الخطاب بلغة استثنائية حولته إلى سياق سلطوي ، تحكمت فيه قوة الخطاب المدعومة بسلطة مكانية " غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم وانتهاك المحارم " فأسلوب الاستفهام الإنكاري مسيطر على لغة الخطاب ، إذ العتاب يأتي عندما تحدث المخالفة، وهنا جواب مبطن = لم نرتكب مخالفة تذكر ، حتى تسرع بخطابك العتابي ، وقد تبدى ذلك التبرير في سياق " فإنا نحن لم نقصد إلى انتهاك ذلك سبيلا ، ولا نجد لك على إلزام فعل ذلك

دليلا، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ونتخذ مخالبنا ليسارة رعيتك، ولا استباحة دم أهل حكمك وقضيتك"، إن اللغة النصية أبانت بعدها، وتجلى سياقها من منطوقها الذي كان واضحا صريحا لذلك المعاتب، وهنا جاء السياق محملا المُعَاتب الجريمة ، فكان الأصل عليه أن يدفع الشر ، ويحمي الديار من الدخيل المستعمر ، وهو ما أبانه السياق بلغة تقريرية تفصيلية ، إذ الإطناب هنا لم يكن عيبا في لغة السياق ؛ كون السياق النطقي محتاج لذلك التبرير ؛ دفعا لتلك التهم التي أرسل فيها رسائله الصوتية .

وفي سياق آخر نجد أن أسلوب الاستدراك في سياق الجملة الفعلية التي ارتبطت بزمن الماضي" ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددنا اللهاذم والبواتر " كان جوابها " لتدمير عبدة الأوثان، وأعداء الملك الديان ، تعرضاً منا لرضاء رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة في إدراك أجر الصابرين المجاهدين " إن الخطاب هنا لم يكن للإخبار فحسب ؛ بل يحمل لغة إشارية كبرى ، هي القوة الكامنة في ذاتية الباث ، وإيحاء منه للمتلقي بأننا وراء كل هذه الأمور التي تخرج في إطار العبودية لغير لله .

بعد ذلك التبرير الخطابي المحمل بدلالات الشدة واللين ، انتقل منطوق السياق وبلغة خطابية مباشرة ، حاملة استفهاميا إنكاريا " وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام ، وأعداء الله والإسلام ، ألست من سلالة علي بن طالب الساقي للمشركين روبى المشارب ؟ " لم يتوقف البعد الخطابي عند ذلك الاستثناء المبطن بلغة الاستفهام الإنكاري التقريعي " ألست من سلالة ..... " وهنا تجلى البعد التأريخي ، والرابط النفسي ، وهو ما شحن به الخطاب ؛ ليعطي أفقا دلاليا مدويا في نفسية ذلك المُخاطب الذي عتى على الواقع ، وحاول التنكر للحقيقة في رابعة النهار ، فما كان من الباث إلا أن يخاطبه بذلك الأسلوب التقريعي ، علّه يحدث في نفسه تغيرا .

لم تتوقف اللغة السياقية عند ذلك الحد ؛ بل امتدت لتثبت بلغة تقريرية من المتلقي أنه على علم بما جرى " أنت تدري بما جرى بيننا وإياهم من قبل في سواحل عمان ، وفي سائر الأماكن والبلدان ، من سفك الدماء وكثرة الصيال ، وتناهب الأملاك والأموال " فالمنطوق تعدى تذكيره بعشيرته ، إلى إثبات الحجة والبراهين " أنت تدري ..... " هذه الجملة الأسمية المرتبطة بزمنية الماضي = تدري ، أكدت معرفته ، ولامناص من التهرب من ذلك ، وبتلك المفردة حاكمه وأثبت

عليه الدليل . إن أسلوب التعريض الذي جاء به الخطاب ، لم يكن اعتباطيا ، وإنما غايته التقرير ، وإثبات الدليل للاعتراف بذلك .

قوله : " وإنا لنأخذهم في كل موضع تحل به مراكبهم وتغشاه ، حتى من كنج وجيرون بدرى الشاه ولم يظهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً " جاء بلغة الضمير المعظم نفسه مدعما بالتوكيد ، وبلغة دالة على الاستمرار " وإنا لنأخذهم ...... " فالنص بمفرداته يحمل خطابا يكتنفه التهديد والإنذار والوعيد ، وهنا تتجلى سلطوية الخطاب المدعوم بدعائم مادية ومعنوية ، وهي ما يمتلكها باث الخطاب . وقد أكد سياقه المنطوق " حتى من كنج وجيرون بدرى الشاه ، ولم يظهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً " فتلك القوى المتمكنة لم تقل شيئا عندما خضنا المعارك وطهرنا أدانس الأرجاس عند أراضيها ، فكيف لكم ذلك . إن ذلك التهديد جاء بلغة انزياحية أشارت إليها لغة السياق . لذلك استمر الخطاب في إرسال صوته مدويا بقوله : " وإن كنت في شك من ذلك ، فسأل به خبيراً " دلالة اكتنزت الكثير من السلطة النصية ، والبعد الإشاري ، الذي لا يمكنه إلا من الخضوع والانقياد .

التقرير والتوبيخ ، مارسه الخطاب في أذن المتلقي ، بلغة تكاد أشد وطأة من سياقها السابق " أو لا نذكرك أيها الملك ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وأنا لك من المنذرين ، وعليك من المحذرين ، إنا لما ملكنا تلك الأيام بلدة ظفار ، وهي عنا نازحة الفيافي والقفار ، لم نر ملكها صلاحاً لشيء أوجبه منا النظر ، وحاكته الأذهان والفكر ، فتركناها لا من خوف قوة قاهرة ، ولا كلمة علينا ظاهرة ، ولا يد غالبة ، ولا كف سالبة ، وحينما خرج عنها عاملنا، خلف بها شيئاً من مدافع المسلمين ؛ لغفلة جرت عن حملها في ذلك الحين ، ولما ملكتم أنتم زمام عيسها ، واجتليتم ضوء بدرها وشمسها ، لم تدفعوا لنا تلك المدافع ، كأن لم يكن وراءها ذائد ولا دافع " .

أسلوب جاء في غاية القوة من باثه ، وإذلال للمتلقي بجميع صوره ، إذ يطلب منه إرجاع المدافع ، وعدم الاستيلاء عليها ، ويحاول تذكيره بأن ظفار تركناها لعدم فائدة مرجوة؛ كونها نازحة عن مركز سلطتنا ، فلا تظن أنك أرهبتنا بقوتك أو سلطانك . وكأنه يود القول

لمخاطبه ، يمكننا أخذ تلك الديار ، واسترجاع مافيها ، فما عليك إلا إرجاع ما طلبناه منك ، وإلا حل عليك الخسف والعذاب .

وبذلك حملت لغة السياق بُعدا تهديديا بلغة سلطوية عالية ؛ لكنه أعطاه فرصة ليراجع نفسه ، ويعود لرشده .

ثم عادت لغة الخطاب بين المد والجزر ، إلى الصولة والشدة " فاعلم أيها الملك أن البعل غيور ، والليث هصور ، والحر على غير الإهانة صبور ، ومن أنذر فقد أعذر ، وما غدر من حذر " فقوله " فاعلم " تهديد تسلطي مباشر ، بأن من تتعامل معه يملك ما يستطيع حماية ذوده ، والقيام بواجبه ، وأنه لا يقبل الذلة والإهانة ، وهذا السياق يُعطي الحق لمهاجمته ، لأنه قال " ومن أنذر فقد أعذر ، وما غدر من حذر "

كما أن التماثل الصوتي أحدث إيقاعا تداخلت أبعاده مع السياق :

البعل غيور

الليث هصور

والحر على غير الإهانة غيور

تلك التماثلات الصوتية ، اندمجت مع سياقات النص التي أوحت بمدى صلابة الخطاب، وبذلك تجلت سلطة الخطاب ؛ لكونها صدرت من يملك القوة العسكرية . إن تلك المفردات لم تكن لغة إعلامية عارية من الكيان الحيوي ؛ بل جاءت لتحقق بعدا عسكريا ، قدم له بهذا الخطاب المدعم بالأدلة القانونية .

وهنا قد يتفاجأ القارئ الثالث ، من خاتمة النص الخطابي ، عندما تغيرت أبعادها المنطوقة لفظيا عن سياقها المتقدم " على أنا في إصلاح ذات بيننا وبينكم راغبون طالبون ، وفي استبقاء صحبتك راغبون ، ولإطفاء الفتن وإخماد المحن بيننا وإياك مؤثرون ، فإن كنت راغباً في الذي فيه رغبنا ، وطالباً لما له طلبنا ، فادفع لنا إياها ، ولا تحتس بسرعة الاعتداء حمياها ، وإن أبيت إلا الميل إلى اغتنامها والجزم على خبط ظلامها ، ففي الاستعانة بالله

علـى مـن اعتـدى سـعة ، ومـن كان مـع الله كان الله معـه ، وحسـبنا الله ونعـم الوكيـل ، والسـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاتـه'' .

البعـد الشـرعي الداعـي للإصـلاح ، هـو مـا هيمـن علـى لغـة الخطـاب ، ويعـد ذلـك لغـة اسـتباقية قبـل الدخـول فـي القطيعـة ، أو المعركـة الحقيقيـة التـي تسـبقها المعركـة الكلاميـة ، والسـياق بدلالتـه هـذه ، أوجدنـا أمـام منطـوق راق ، اسـتخدم لغـة الدبلوماسـية الراقيـة بـكل مـا تحملـه مـن أبعـاد حقوقيـة ، سـبقت مـا دعـت إليـه حقـوق الإنسـان اليـوم ، فالبـاث يوجـه لغـة واضحـة دون غمـوض لمتلقيـه " علـى أنـا فـي إصـلاح ذات بيننـا وبينكـم راغبـون طالبـون ، وفـي اسـتبقاء صحبتـك راغبـون ، ولإطفـاء الفتـن وإخمـاد المحـن بيننـا وإيـاك مؤثـرون " فالنطـق اختـار إخمـاد الفتـن ، وسـعى نحوالألفـة والمحبـة ،›› فـإن كنـت راغبـاً فـي الـذي فيـه رغبنـا ، وطالبـاً لمـا لـه طلبنـا ، فادفـع لنـا إياهـا ، ولا تحتـس بسـرعة الاعتـداء حمياهـا ، وإن أبيـت إلا الميـل إلـى اغتنامهـا ، والجـزم علـى خبـط ظلامهـا ، ففـي الاسـتعانة بـالله علـى مـن اعتـدى سـعة ، ومـن كان مـع الله كان الله معـه ، وحسـبنا الله ونعـم الوكيـل ، والسـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاتـه " إن خيـار الصلـح مشـروط بتنفيـذ الطلـب ، وهنـا تتبيـن لغـة القـوي علـى الضعيـف ، فـإن كنـت راغبـا لعـودة الميـاه لمجاريهـا ، فأعـد الحقـوق إلينـا ، وإلا سـيكون الفيصـل شـيء آخـر ، ولذلـك نجـده يختـم الخطـاب بنهايـة يملـك زمامهـا القـوي . وعليـه فالخطـاب كأنـه يُعطـي خيـارا واحـد وهـو إعـادة المدافـع ، أو المواجهـة ، مسـتعينا نصرتـه مـن الله .

• الأنموذج الثاني[١]

ورد في كتاب تحفة الأعيان في باب إمامة الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك الخروصي:

" بويـع لـه بالإمامـة بعـد راشـد بـن الوليـد بزمـان طويـل، تجبـر فيـه السـلطان علـى أهـل عمـان، وسـامهم سـوء العـذاب، بمـا بدّلـوا مـن نعمـة الله، ولعـدم وفائهـم بعهـد الله حيـن خذلـوا الإمـام راشـد بـن الوليـد وظاهـروا عليـه عـدوه، ومـن أعـان ظالمـا سـلطه الله عليـه، وبقـي أهـل عمـان يكابـدون

(١) تحفة الأعيان ، ج٢ ص ٢٥٦ .

النكال تحت قهر الجبابرة من بني سامة وغيرهم، حتى عقدوا الإمامة على الخليل بن شاذان، في سنة سبع وأربعمائة، فسار بهم سيرة جميلة، ودفع عنهم الجبابرة، وأمنت بعدله البلاد، واستراحت في ظله البلاد، ودانت له الممالك، ووفدت إليه الوفود لظهور العدل، وانتشار الفضل» .

الخطاب في ظاهره محاولة توثيق تاريخي لحقبة زمنية تعاقبية من تاريخ عمان، تتمثل في إمامة الخليل بن شاذان الخروصي، لكنّه يتأسس على حزمة من استراتيجيات الخطاب التي تفضي لدلالات واسعة لتحقيق أهدافه.

يشكل حدث مبايعة الإمامة بؤرة استراتيجية للخطاب في هذا المقام، وهو تبؤر يقوم على تكريس التفوق لعنصر الإمامة على سواها، يتأتى لنا ذلك من جوانب مختلفة بدءا بالمنظور الزمني الذي يتساقب مع المنظور البصري المتمثل في الأحداث المصاحبة.

فالامتداد الزمني لا يحد بفترة معينة بل يتجه في سياقات الحديث عن الحكم والسلطة إلى الزمن الممتد، ولكن الخطاب يوسّع الامتداد الزمني بنعته بالطويل، وهي لفظة بسيطة في تركيبها، ولكن في هذا السياق[1] تحمل بعد معنويا لإيجاد مساحات من المقارنات في الأحداث المتصلة بين زمنين من الحكم، وهما زمنان يحملان صفات متناقضة، كما أن الاتساع في الزمن يزج بالمتلقي بعمق في إطار ينقله إلى التفاعل مع تلك المقارنات من الأحداث من خلال المنظور البصري الذي يصوره له في الزمنين المختلفين.

يرصد الخطاب صفات التجبر والعذاب والظلم والقهر والتسلط في الزمن الأول في صورة قاتمة مما يصاحب ذلك كله من ظروف الحياة المختلفة، بينما يتحول الوضع في الزمن الآخر المحدد تاريخيا لاتصافه بالسيرة الحسنة ودفع الجبابرة وانتشار الأمن والعدل، ووجود الراحة والطمأنينة والانقياد، ولعموم العدل وانتشار الفضل.

(١) انظر: فضل ، صلاح ، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة ، الكويت، ١٩٩٢ ، ص ٦٥ وما بعدها .

لا يتمثل هذا التفاضل على المستوى المعنوي فحسب، بل يتعدى ذلك إلى توظيف الإمكانات اللغوية والبلاغية التي تدور حول بؤرة الخطاب؛ فبناء فعل المبايعة للمجهول يلغي المشوشات التي قد تستقطب حيزا من التفكير في غير حدث الإمامة، فليس المهم من قام بإنجاز الحدث، ولكن المهم قيامه، وما يتعلق بتأخير العنصر الزمني عن قيام الحدث يصب في تحقيق الهدف ذاته.

ويأتي الفعل تجبّر لتأكيد وقوع الحدث مصحوبا بحرف الاستعلاء المشفوع بمكانة المتجبر وقوته وسلطته في تنفيذ ذلك على أهل المكان بصيغة الجمع الدالة على العموم، وتأكيدا لذلك ترد اللفظة بصيغة أخرى متمثلة في مفردة الجبابرة المضافة إلى كلمة قهر؛ للدلالة على قوة المعاناة والانتشار والكثرة المنبثقين من صيغة الجمع، وفي مقابل ذلك يأتي تكرير مفردة العدل في الزمن المقابل تأكيداً لرسوخ الحدث وعمومه وانتشاره كذلك .

إنّ عموم الألفاظ في الزمن الأول تأتي من حقل الألم والمعاناة والقلق الذي يعكس الاضطراب النفسي لمن يعيش في ظرفه، وينقل أثره إلى المتلقي لاتخاذ موقفه منه، ويستمر ذلك حتى ورود الحرف حتى الذي ينتقل بالحدث إلى حقل الرخاء والأمن والعدل المتأتي من تغير الأحداث تأسسيا على عقد الإمامة .

يمكن النظر كذلك في الآليات البلاغية التي تمثل ضربا من الحجاج والإقناع فالاقتباس من القرآن في " وسامهم سوء العذاب " تجعل الصورة جلية في وضع أهل عمان في ذلك الزمن، ليس لأنها تنطلق من استعلاء قدرات الاستعارة على التعبير الحقيقي فحسب ، بل لأن النص القادمة منه هذه الجملة نص مقدس له تأثير وقدرة على الإقناع في مكانزمات الحياة الاجتماعية الإسلامية .

وتأتي الاستعارة مرة أخرى في الجهة المقابلة إثباتا للأثر المتمثل في الطمأنينة والاستقرار في " واستراحت في ظله العباد ، فالظل مكان تتوق له النفوس وتستقر فيه الأجساد، كما أنّ تلمس الظل إنما يأتي بعد تعب ونصب .

أما الفقرة اللاحقة للنص السابق فجاءت على النحو الآتي:

" وممن وفد إليه في ذلك، أبو إسحاق إبراهيم بن قيس بن سليمان الحضرمي، جاء مستنصرا مستنجدا على حضرموت واليمن، فقال في مسيره:

لقد جاءني من بعد أرضي وأوطاني رجاء لنصر الدين من نحو إخواني

وذكر إمام شاع في الناس ذكره وطاب الثنا فيه الخليل بن شاذان

فقطعت غيطانا وجاوزت أبحرا إليهم أجر المجد من آل قحطان

إن الخطاب في هذا الجزء يحيلنا مباشرة إلى الوقوف عند الواو التي تسمح لمجموعة من الأحداث قبلها بالمرور، ولكن أيّ أحداث؟ هي الأحداث المؤطرة بين سيادة فترة العدل والرخاء، وبين قدوم أبي إسحاق إلى الإمام، وهي بذلك أحداث تنتمي إلى فترة العدل والصلاح واستبشار الناس وفرحهم بما حدث من تغيير سياسي انعكس على الجانب الاجتماعي والاستقرار النفسي.

أما "من" التي أدغمت في "من" الموصولة ينطوي عطاؤها الدلالي في سلطة الخطاب على مكونين:

- إن إدغامها يتجه إلى القفز الزمني نحو الحدث الأساس المتمثل في قدوم أبي إسحاق الحضرمي للقاء الإمام فلا سبيل للانتظار ولا غاية منه.

- المعنى التبعيضي الذي تحمله " من " الجارّة من كثرة الوافدين المبايعين والمهنئين والمستنصرين ، ولاسيما أنها ترتبط بالاسم الموصول " من " الدالة على الجمع في هذا السياق، أي من الذين، ليكرس ذلك عنصر الكثرة المتأتي من تلاحم حرف الجر والاسم الموصول، وهي كثرة غير محدودة بعدد وفق دلالة الجمع العام المنبثق من الاسم الموصول الذين ، الذي يفتح دائرة العدد والكثرة .

وتأتي كلمة (وفد) لدعم كثرتين تتمثلان في كثرة التعدد من الوفود القادمة من مناطق

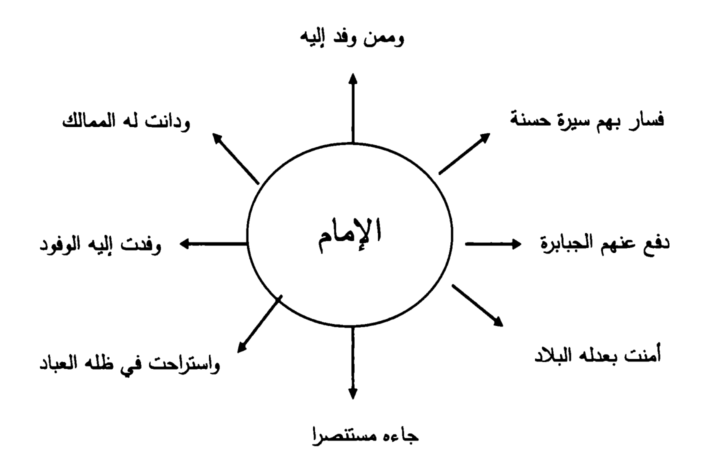
مختلفة، وكثرة الأشخاص في كل وفد من الوفود، وهي وفود قادمة للإمام لإمامته وليس لشخصه وهو ما يقدمه لنا الضمير في كلمة " إليه" فارتباط الاتجاه المكاني والقصدي الكامن في حرف الجر يتمحوران حول الضمير الإمام، ولا يخفي الإضمار ما يحمله من عظمة تجاه الإمام متجاوزا التعبير عنه بالظاهر.

ويتعاضد مع هذا كله ورود اسم الإشارة " ذلك " في صورة إحالة إلى ما تقدم ذكره من صنوف العدل والراحة في ظل الإمامة، وهذا الربط يتعدى ذلك إلى معاني الرفعة والعظمة والسمو المتأتية من قيام الإمامة، فالوفود القادمة لم تأت سياحة أو زيارة أو تهنئة فحسب، بل جاءت مبايعة وراضخة طالبة العدل والرخاء، وهي دلالة تنبثق من ورود حرف الجر (في) الذي يحمل معنى السببية في هذا السياق أي بسبب ذلك الفضل والعدل والرخاء.

والكنية دالة على الشهرة، فالوفود القادمة ليست مجرد وفود لتكملة العدد، وإنما هي وفود لها مكانتها الدافعة لها للقدوم ، والكنية يعضدها هنا ورود الاسم الثلاثي والعائلة لتأكيد المنزلة والمكانة في هذا السياق.

وتكرار الضمير العائد إلى الإمام في الجملة الثانية يكرس حضوره بقوة ، وأنه الهدف والغاية والمطلب والمقصد، فالتعدي للفعل (جاء) إلى المفعول يؤكد قصدية أبي إسحاق في قدومه للإمام، فهو لم يأت لعمان بل جاء للإمام، فأورد الضمير لتحديد مسار القصد، كما أن الضمير يعمل على بناء الاتساق بين جمل الخطاب انطلاقا من كتلة الخطاب.

على أن إيراد الإضمار في مرات متتالية متتابعة يحيل إلى الإمام بصفاته وشخصيته الموردة سابقا، ولا ينشئ إماما بصفات لاحقة، وشخصية جديدة، ويوضح الشكل اللاحق أهمية الضمير في الاتساق التركيبي الدلالي.



هكذا من خلال كل هذه الجمل المتتابعة المتعاقبة يضطلع الضمير بدور مهم في ربط النص تركيبيا ودلاليا، ويبقى المتلقى مشغولا بشخصية الإمام لايفتأ يتركه حتى يعيده الضمير إليه مرة أخرى، واستخدام ضمير الغائب يجسد قوة وجود الإمام كونه من الضمائر الوجودية، كما أنه ينتمي إلى ضمائر الغيبة التي تعد من أهم الضمائر التي تقوم بواجب الاتساق النصى على جانب جدير بالاهتمام [١].

ويدعم استخدام الضمير في صورته السابقة توظيف اسم الإشارة (ذلك) توظيفا يربط الخطاب في كليته، وهو من أسماء الإشارة التي تتميز بالإحالة الموسعة، أي إمكانية الإحالة إلى جملة واحدة أو متتابعة من الجمل[٢] ، وإحالتها هنا إلى مجموعة الجمل التي قبلها، وهي جمل مصحوبة بالضمير عائدة إلى الإمام .

أما عنصر الحال فيكتسب قوته من كونه طرفا مهما في عملية تبئير الإمام والإمام، لأن صاحب الحال جاء مستنجدا استنجادا قصديا مبنيا على السمات الشائعة المذكورة سابقا، ثم إن لفظة الإمام كامنة ضمنيا في الحالين (مستنجدا ، مستنصرا) لأنهما جاءا بصيغة اسم الفاعل مفتوح التعدي، فالفراغ البنوي يستحضر تلقائيا لفظ الإمام المحذوف من التركيب، كما أن تعدد الحال يدل على الإلحاح في الطلب انطلاقا من ثقة الوافد في قدرة الإمام على تحقيق المراد، والوصول إلى

(١) (مدخل إلى انسجام النص)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م، ص١٨ . خطابي ، محمد لسانيات النص

(٢) المرجع السابق، ص١٩ .

الغايـة، ويعـزز هـذه الثقـة ذكـر اللفـظ المكانـي (حضرمـوت واليمـن)، فالاتسـاع الجغرافـي والبعـد المكانـي لـم يحـولا دون الاسـتنجاد، ولـن يحـولا كذلـك دون تحقيـق النصـر؛ بنـاء علـى قـوة الإمـام المسـتمدة مـن عدلـه وسـيرته.

إن حضـور المـكان مجسـدا فـي اليمـن وحضرمـوت يمنـح الإمامـة قـوة مـن حيـث قدرتهـا علـى الامتـداد إلـى مناطـق خـارج حدودهـا المنطقيـة، وقدرتهـا علـى بـث العـدل والاسـتقرار فـي تلـك المنطقـة، بينمـا يؤكـد بـأن هـذه البقعـة ليسـت هـدف الاسـتدلال والتمثيـل، بقـدر كونهـا اسـتدراج للمتلقـي نحـو الثقـة فـي تلـك القـدرة علـى بسـط نفوذهـا العـادل المنصـف إلـى مناطـق جغرافيـة مختلفـة ومتباعـدة.

يأتـي هـذا النـص قائمـا علـى الجملـة الخبريـة التـي تناسـب سـياق حكـي الحديـث عـن الزمـن الماضـي لأحـداث الإمامـة، بينمـا يؤسـس تأكيـد صفـات الإمامـة وقدراتهـا التـي تجعلهـا قـارة فـي نفـس المتلقـي دون فتـح منافـذ الشـك أو التـردد فـي قبـول ذلـك.

يحفـل الخطـاب بالسـرد النثـري المباشـر بفنياتـه المتعـددة، وهـو هنـا ينقلنـا إلـى الشـعر فـي صيغـة تهـدف إلـى تنـوع سـبل إقنـاع المتلقـي، وكسـر رتابـة السـرد النثـري.

إن هاجـس الإمامـة يشـغل الوافـد إلـى الإمـام حتـى فـي مسـيره، فالأبيـات قالهـا فـي مسـيره إلـى الإمـام حيـث توهجـت العاطفـة نحـوه، وتاقـت نفسـه إليـه، والأبيـات خطـاب مبنـي علـى سـلطتين لأنهـا تنطلـق مـن باثيـن اثنيـن إلـى متلقييـن اثنيـن، ومـا يتصـل بالخطـاب فـي هـذا السـياق السـلطة المتأتيـة مـن ورود الأبيـات فـي سـياق الحـدث البـؤرة.

وجـاءت الأبيـات تكـرس سـمات العـدل وصفـات التفـوق التـي شـكلت باعثـا للسـعي نحـو الاسـتنجاد بالإمـام وطلـب النصـرة .

إنّ توفـر اسـتراتيجيات الخطـاب يبنـي قـدرة لـه علـى السـلطة[١] التـي قـد تتبايـن فـي قـوة حضورهـا بيـن الانكمـاش والتمـدد، إلا أنهـا تبقـى كامنـة فـي بـؤرة الخطـاب الـذي يعمـل علـى بنائهـا وتعمـل علـى نهوضـه إنجازيـا.

---

(١)منذر عياشي ، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ٢٠٠٢م.ص١٢٨.

الخاتمة

بعد تلك القراءة الدلالية للأنموذجين يمكنا استنتاج الآتي :

١- جاءت لغة الخطاب تكتنفها السهولة وعدم التعقيد .

٢- لم تكن اللغة مثقلة بالمحسنات البديعية سوى ما جاء متساوقاً مع سياقة النص .

٣- جاءت اللغة منسجمة مع السياق التي صيغت له .

٤- البعد التركيبي بتناسقة وتداخله مع بنيات النص الأخرى حول النص إلى لغة ذات معنى ودلالة ، وذلك مما يعطي إشارة لتماسكه وترابطه .

٥- لم يخرج المنطوق إلا بحقيقة واقعية ؛ وذلك مما ساعد على الاستجابة لمفردات الخطاب.

٦-اللغة السردية كانت بارزة في الأنموذج الثاني ، خلافا للأنموذج الأول الذي يغلب عليه اللغة الحوارية .

٧- اللغة الخطابية المباشرة كانت اللغة المسيطرة على الأنموذج الأول .

٨- رسمت حيثيات المدونة التأريخة في تحفة الأعيان أبعاد سياسية مكتنزة في ذاتية النص هدفت إلى تحقيق بعد سياسي ؛ ارتسم فيما بعد على أرض عمان .

المصادر والمراجع

١. الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تعليق السيد محمد رشيد رضا ط ، دار المعرفة – بيروت لبنان -١٩٨١.

٢. الحمداني ، حميد ، من قضايا التلقي والتأويل ، منشورات كلية الآداب الرباط ، ط الدار البيضاء ، ١٩٩٥.

٣. خطابي ، محمد ، لسانيات النص - (مدخل إلى انسجام النص)، ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١.

٤. السالمي – عبدالله بن حميد – تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، ج١ -٢ ، الناشر مكتبة الاستقامة ب ط ، ت ١٩٩٧ .

٥. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة ، الكويت، ١٩٩٢

٦. لا ينز ، جونز ، اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة عباس صادق عبد الوهاب ، ط دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٧٨ .

٧. منذر عياشي الأسلوبية وتحليل الخطاب، ، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ٢٠٠٢ .

٨. نعيمة سعدية ، تحليل الخطاب والدرس العربي، في قضية شفافية اللغة وصدقها بين تشومسكي وأتباعه ، وبارث وأتباعه.، جامعة محمد خيضر .

٩. يحياوي ، رشيد ، شعرية النوع الأدبي في قراءة النقد العربي القديم ، ط ١ افريقيا الشرق ١٩٩٤ .

١٠. يقطين ، سعيد ، تحليل الخطاب الروائي- الزمن – السرد – التبئير – ، ط٣ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء .

١١. **الدوريات :** ربيعة العربي ، الحد بين النص والخطاب ، ، كلية الآداب اكادير ، مجلة علامات في النقد ، ٢٠١٠ ، العدد ٣٣ .

سيرة أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري من خلال كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلّاني

د.حنان الطرابلسي

أستاذة مساعدة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة /تونس

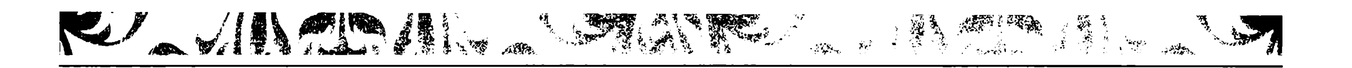
trabelsihanen54@yahoo.fr

مقدّمة

لقد اخترنا أن نوجّه أنظارنا نحو كتب السّير والطبقات الإباضيّة باعتبارها كتب تراجم حملت في ثناياها وجهة نظر جديدة لتاريخ بلاد المغرب من خلال تقديمها لسير أعلام المذهب الإباضي ومشايخه الذين ذاع صيتهم ولمعت صورتهم في الأوساط الإباضيّة وخارجها، وهو ما فرضته حاجتنا إلى إعادة كتابة تاريخ بلاد المغرب من زاوية نظر أخرى تراعي اختلاف المدونات التاريخية وتنوعها، وقد اخترنا للاستدلال على البعد التّاريخي في كتب السّير والطّبقات الإباضيّة البحث في سيرة أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري من خلال كتاب السّيرة وأخبار الأئمة لأبي زكريّاء يحيى بن أبي بكر الوارجلآني.

وقد ركّزنا بحثنا هذا على النّقاط التّالية :

- لمحة عن أبي زكرياء الوارجلآني
- كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة
- أبو الخطّاب من خلال كتاب السّيرة
- أبو الخطّاب بين كتاب السّيرة وكتب التّاريخ العامّة



• أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني

أبو زكرياء هو يحيى بن أبي بكر بن سعيد اليهراسني الوارجلاني ت ٤٧١ - أو بعد ٤٧٤هـ/ ١٠٧٨ – أو بعد ١٠٨١ م ولد في وارجلان[١] بالجزائر، وهو صاحب «كتاب السيرة وأخبار الأئمة» الذي بين أيدينا اليوم وعليه اعتمد كلّ أصحاب السّير والطبقات الإباضيّة.[٢]

يقول عنه الوسياني[٣]: «له فضل السبق في هذا، لم يأل خيرا برأفته وهمّته وفراسته»[٤]

تلقّى العلم في وادي أريغ[٥]عند الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي[٦].

روى عنه أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي[٧]، وكانت له حلقة علم ربّما كانت تعقد في المحضرة القديمة بآجلو[٨] بوادي أريغ.

---

(١) وارجلّان بفتح أوّله، وسكون ثانية وفتح الجيم وآخره نون، كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البرّ كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجّانة. ياقوت الحموي: «معجم البلدان»، دار صادر، بيروت لبنان، ١٩٨٦، ج ٥، ٣٧١.

(٢) كتب السّير والطبقات الإباضية ببلاد المغرب :»كتاب السير « لسليمان الوسياني، «سيرة أهل نفوسة» لمقرين بن محمد البغطوري، «طبقات المشايخ بالمغرب» لأبي العباس أحمد بن سعيد الدّرجيني، كتاب الجواهر المنتقاة لما أخل به صاحب الطبقات» لأبي الفضل أبي القاسم البرّادي،»كتاب السّير » لأحمد بن سعيد الشمّاخي.

(٣) هو أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسياني (حي في ٥٥٧ هـ/ ١١٦١ م) من أبرز أعلام الإباضية، ترك آثارا عميقة في الفكر الإباضي بتدوين سير أعلام المذهب وإنقاذها من الاندثار.معجم أعلام الإباضية من القرن الأوّل إلى العصر الحاضر : قسم المغرب الإسلامي، جمعية التراث : لجنة البحث العلمي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٢١/٢٠٠٠، ج٢، ص ص ٢١٥-٢١٦.

(٤) معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٤٥١.

(٥)أريغ : تقع شرق وارجلّان طولها نحو مسيرة خمسة أيّام بها حروث ونخل كثير ومياه كثيرة تنبع على وجه الأرض، ولها سوق كبيرة تعقد يوم الجمعة وأرض تبعد عن أشير عاصمة بني زيري بمرحلتين. مسعود مزهودي، الإباضية في المغرب الأوسط، نشر جمعية التراث، القرارة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م، ص ٢٨.

(٦)(ت ٤٧١ هـ/ ١٠٧٩م) هو الأصولي والفقيه، تعددت نسبته : الوسلاتي، المزاتي، النفطي، القابسي لكثرة أسفاره بين مواطن الإباضية في ربوع المغرب وكثرة ترحاله طلبا للعلم ونشرا له أخذ العلم عن أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي وأبي محمد ويسلان بن أبي صالح اليراسني. له مؤلفات منها : «كتاب التحف المخزونة في إجماع الأصول الشرعية». معجم أعلام الإباضة، ج٢، ص ص ٢١٥-٢١٦.

(٧) (ق ٦ هـ/ ١٢ م) أحد أعلام الإباضية البارزين، أصله من بلاد سوف، أحيى المذهب بتآليفه الهامّة، كانت له حلقات للعلم تخرّج فيها علماء أفاضل، ترك تراثا فكريا هامّا، من مؤلفاته : «كتاب السؤالات» – «رسالة في الفرق». معجم أعلام الإباضة، ج٢، ص ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٨) وارجلّان بـ ١٩٠ كيلومتر. مسعود مزهودي، الإباضية في المغرب الأوسط،ص ٢٨.

قال عنه الدّرجيني[1] وعن أخيه المذكور كانا من الأفاضل المقتفين آثار الأوائل بأدلّة ذات إقناع، وحجج تملأ القلوب والأسماع، تغني عند المحاضرة ما تغني المشرفية عند القراع، فكانا مراد الفارّين، على تباعد الدارين[2].

كان الوارجلاني يشتغل بالزراعة للاسترزاق، وكان كريما سخيّا يزور أهل وارجلاّن ليؤنسهم، طلبوا منه مرّة الإقامة ليستأنسوا به فقال لهم : «قولوا أقم عندنا قليلا يمت قلبك، لما اطّلع عليه من سوء طريقتهم ورداءة أحوالهم»[3]

يذكر المؤرّخون له «أجوبة وفتاوى في علم الكلام» ورسائل في الفقه يبدو أنها فقدت، إلاّ أنّنا نجد بعض العلماء يستشهدون بأقواله وآرائه الكلامية ومنها ما ذكره أبو سهل يحيى بن إبراهيم [4] في بداية كتابه في العقيدة[5].

• **كتاب السّيرة وأخبار الأئمة**

يعتبر الكتاب أقدم ما ألّف في تاريخ سير الإباضيّة وتراجم علمائها ومشايخها وهو وكما قال عنه الوسياني أوّل ما كتب في السّير الإباضيّة وعنه أخذ جميع كتّاب السّير والطبقات الإباضيّة الّذين أتوا بعده.

اهتمّ الكتاب بسير المشايخ الإباضيين من أهل المغرب وأهمّ الأحداث والمراحل الّتي مرّ بها التّاريخ الإباضي في بلاد المغرب وقد انقسم الكتاب إلى جزأين :

- جزء أوّل اشتمل على أخبار لا تدلّ إلاّ على مؤرّخ اقتفى أثر الأحداث والتطوّرات التّاريخية

---

(1) هو أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف الدّرجيني(ت ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م) أشهر علماء درجين ببلاد الجريد جنوب تونس، واحد من العلماء الخمسة في سلسلة نسبه كلهم علماء نحارير، وهو فقيه ومؤرّخ وشاعر، وكان إماما وقدوة. له كتاب : «طبقات المشايخ بالمغرب»، في جزأين. وهو مجموعة من السير والتاريخ والفقه. معجم أعلام الإباضة، ج٢، ص ص٤٥-٤٦.

(2) معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٤٥٢.

(3) معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٤٥٢.

(4) هو أبو سهل يحيى بن إبراهيم بن ويجمّن الوارجلاني (ط١٢ : ٥٥٠ - ٦٠٠ هـ / ١١٥٥ - ١٢٠٣ م) سليل أسرة عريقة في العلم، فأبوه إبراهيم وجدّه سليمان وجدّه الثاني إبراهيم وجدّهم الأعلى ويجمّن، كلّهم معدودون في جملة المشايخ الكبار ولهم ذكر في كتب السّير. نشأ بوارجلاّن له مؤلف معروف وهو : العقيدة في علم التوحيد والعلم والسّير». معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ص ٢٥٤-٢٥٥.

(5) معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ص ٤٥١- ٤٥٢.

الّتـي عرفهـا المذهـب الإباضـي فـي بـلاد المغـرب فـي علاقتـه بالأوضـاع السـائدة فـي المنطقـة، بـدءا مـن أطـوار دخـول المذهـب والدعـوة الإباضيّـة وتشـكيل الإمامـة، ثـم تطـرّق أبـو زكريـاء إلـى دولـة بنـي رسـتم[1] الّتـي تأسّسـت بتاهـرت وصراعهـا مـع الفاطمييـن الّـذي انتهـى بإسـقاطها، فضـلا عـن احتـواء هـذا الجـزء أخبـارا تعلقـت بسيرة أبـي الرّبيـع سـند أبـي زكريـاء الـذي نقـل عنـه جميـع الأخبـار والأحـداث الـواردة فـي الكتـاب.

- الجـزء الثانـي مـن الكتـاب هـوّ جـزء اهتـمّ فيـه أبـو زكريـاء بجمـع أخبـار تعلّقـت بسيرة بعـض شـيوخ الإباضيّـة المنتميـن إلـى الطبقـات مـا بيـن السـابعة والعشـرة مـع بعـض الأخبـار المتفرقـة، حتّـى أنّ محقّـق الكتـاب الدكتـور عبـد الرحمـان أيـوب عنونهـا بـ «فصـل فـي أخبـار ملتقطـة»

ونعتمـد فـي هـذا البحـث نسـخة الكتـاب المحقّقـة مـن طـرف الدكتـور عبـد الرحمـان أيّـوب نشـر الـدار التونسـية للنشـر، تونـس، بتاريـخ ١٤٠٥/١٩٨٥.

وبمـا أنّ كتـاب السّـيرة وأخبـار الأئمـة هـو كتـاب تراجـم لأعـلام الإباضيّـة ومشـايخها يعتبـر أبـو الخطّـاب عبـد الأعلـى المعافـري مـن أهـمّ أعـلام الإباضيّـة الّذيـن سـاهموا فـي تركيـز المذهـب ونشـره فـي بـلاد المغـرب.

وقـد أورد محقّـق الكتـاب بـأن الكتـاب يقدّم معلومـات وتفاصيـل تاريخيـة حـول تاريـخ إفريقيـة وطرابلس بيـن سـنتي ١٤٠ و ١٤٤ هـ فضـلا عـن تقديـم الخصائـص الأخلاقيـة والإيمانيـة لشـخصية أبـي الخطاب.

• أبو الخطّاب وسيرورة الأحداث التاريخية من خلال كتاب السيرة وأخبار الأئمة

فـي هـذا القسـم مـن البحـث سـنفصّل مـا جـاء فـي كتـاب السّـيرة حـول المهـام الّتـي قـام بهـا أبـو الخطّـاب عبـر مراحـل نجـد آثارهـا ولـو جزئيـا فـي كتـب التّاريـخ الّتـي تناولـت بيـن دفّتيهـا تاريـخ بـلاد المغـرب خـلال النصـف الأول مـن القـرن الثانـي للهجـرة (الثامـن للميـلاد).

- مرحلة النشأة والدراسة في البصرة

(١) الدولة الرستميّة هي الدولة المؤسسة في تاهرت والتي تأسست وتمكنت من الصمود مدّة طويلة (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٧-٩٠٩م) بفضل الأئمة الرستميين. بحاز إبراهيم بكير « الدولة الرستمية، (١٦٠ و ٢٩٦هـ/٧٧٧ و ٩٠٩م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية»، ط. لافوميك، الجزائر، ١٩٨٥.

- مرحلة الإمامة في طرابلس

- مرحلة السيطرة على القيروان

- مرحلة الصراع الإباضي العباسي ووفاة أبي الخطاب

وفي إيراد أبي زكرياء لسيرة أبي الخطّاب بطرابلس والقيروان وهو أحد حملة العلم من البصرة استطاع أن يرسم لنا صورة له متعددة الجوانب والزوايا انطلاقا من سلوكياته تجاه المجتمع الإباضي من جهة وتجاه مخالفيه من غير الإباضيّة من جهة أخرى.

- الدور الاجتماعي لأبي الخطّاب

- أبو الخطّاب القائد العسكري

- أبو الخطّاب القائد السياسي

- أبو الخطاب الفقيه

❖ مرحلة النشأة والدّراسة

أورد أبو زكرياء في كتاب السّيرة وأخبار الأئمة أخبارا تعلّقت بأبي الخطّاب ابتداء من انضمامه إلى حملة العلم الّتي سافرت إلى البصرة لتلقّي العلوم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي[1] وذلك بقوله : «رجع الحديث إلى ذكر النّفر الخمسة الحملة للعلم : أحدهم أبو الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري ومعافر قبيلة من العرب ...»[2]

هذا كلّ ما قدّمه أبو زكرياء عن أبي الخطّاب فيما يتعلّق بنشأته سوى أنّه من قبيلة معافر[3] اليمنية فلا نعلم شيئا من خلال ما أورده أبو زكرياء عن تاريخ ولادته أو فترة الطّفولة والشّباب الّتي سبقت السّفر إلى أبي عبيدة بالبصرة.

---

(1) (ت ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) أصله من فارس، تولّى إمامة الإباضية بعد وفاة الإمام جابر بن زيد الذي توفي سنة ٩٣ هـ / ٧١١ م أنشأ مدرسة في سرداب قرب البصرة أين تلقى الأنفار الخمسة العلم، ترك آثارا علمية منها : كتاب مسائل أبي عبيدة – كتاب في الزكاة. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص

(2) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٥٧

(3) معافر هي بطن من زيد بن كهلان من القحطانية وهم بنو معافر بن يعفر بن مالك وهم حمدان حتى القرن الثامن الهجري أعظم قبائل العرب باليمن. أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٥٧

ولعلّ هذا قد يعود إلى خاصّية مشتركة بين كتب السير والطبقات الّتي لا تكترث بهذه التفاصيل لغياب المعلومات وعدم توفرها لأنّ كتب السير والطّبقات تهتمّ بالشخصيات البارزة في مجال ما ولا يمكن لها أن تعلم مسبقا قيمة الشخص حتّى تدوّن تاريخ ولادته أو مراحل طفولته وشبابه ولذلك غالباً ما نجد في كتب السير والطبقات والتراجم إلاّ تواريخ الوفاة أو التواريخ الّتي تبرز نبوغ شخصيّة وبروزها في وسطها.

ومثلما غابت تفاصيل نشأة أبي الخطّاب عن كتاب السّيرة فقد غابت أيضا عن كتب التاريخ العامّة والّتي تداولت تاريخ المنطقة وتعرضت - ولو جزئيا- إلى شخصية أبي الخطّاب، كما غابت الأسباب الّتي كانت وراء رحلته إلى البصرة أين التقى ببقية المجموعة.

لقد اكتفى أبو زكرياء بإعلامنا وفي سياق الحديث عن عبد الرحمان بن رستم[1]عن تلقي أبي الخطاب العلم مع الأنفار الأربعة وهم عبد الرحمان بن رستم وعاصم السدراتي[2] وإسماعيل بن درار الغدامسي[3] وأبو داود القبلي[4] في حضرة أبي عبيدة متعرضا للظروف التي كان يعيشها أبي عبيدة من بطش أمراء البصرة وجورهم.

لم يحدّد أبو زكرياء مدّة تعلّم أبي الخطّاب مع رفاقه المذكورين عن أبي عبيدة وإنّما قال عنها : «ومكثوا عنده سنين عدّة»[5]، ولكن رجّحت بعض المصادر والمراجع أن تكون المدّة الّتي قضّاها حملة العلم كانت حوالي خمس سنوات نرجّح أنّها كانت دروسا في الفقه والعلوم الشرعية ومبادئ

---

(١)(حكم : ١٦٠ - ١٧٠ هـ /٧٧٧ - ٧٨٨م) علم من أكبر أعلام الإباضية، أطبقت شهرته الآفاق، ولد بالعراق ونشأ بالقيروان، ثم انتقل رفقة حملة العلم إلى البصرة سنة ١٣٥ هـ، ثمّ عين قاضيا على القيروان في دولة أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري (١٤٠ - ١٤٥ هـ/ ٧٥٧ -٧٦٨ م)، أسس دولة بتاهرت بالغرب الجزائري سنة ١٦٠ هـ /٧٧٧ م). ترك كتابين أحدهما في تفسير كتاب الله العزيز ولكنه لم يصلنا، توفي رحمه الله بين ١٧١ هـ / ٧٨٧ م. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

(٢)(ت ١٤١ هـ / ٧٥٨ م) من أيمة المغرب ومشاهير علمائه، قيل أنّ أصله من قبيلة سدراته في جبال الأوراس بشمال الجزائر وهو أحد حملة العلم الخمسة، مات سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ٢٣٩.

(٣) (حي في ٢١١ هـ / ٨٢٦ م) من طرابلس الغرب، سافر إلى البصرة في البعثة العلمية التي أرسلها سلمة بن سعد والتحق بحلقة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، عيّن قاضيا في دولة أبي الخطّاب عبد الأعلى، اشتهر أيضا بالتدريس، من أشهر تلامذته أبو المنيب محمد بن يانس الدركلي. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ص ٥٥-٥٦.

(٤)(حي في ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) أحد الأعلام الكبار، أصله من نفزاوة بتونس، أخذ علومه الأولى عن سلمة بن سعد ثم انطلق مع عبد الرحمان بن رستم من المغرب إلى العراق لتلقي مختلف العلوم، وبرجوعه اعتزل السياسة واهتمّ بالتدريس وتكوين الأجيال وتعليمهم أمور دينهم. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ١٣٩.

(٥)أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٥٩

المذهب الإباضي وأسسه الّتي انبنى عليها رغم أنّ أبا زكرياء لم يقدّم لنا أية تفاصيل عن نوعية الدّروس الّتي كان يلقيها أبو عبيدة لتلاميذه ما عدا الخبرين اللّذين أوردهما في كتابه وهما :

• «فلمّا عزموا على السّفر إلى بلادهم كلّموا أبا عبيدة واستشاروه في شأنهم، فقالوا : « يا شيخنا إن كانت لنا في المغرب قوّة ووجدنا من أنفسنا طاقة أفنولّي على أنفسنا رجلا منّا أو ما ترى؟» فقال لهم أبو عبيدة : «توجّهوا إلى بلدانكم فإنّ يكن في أهل دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدّة من الرّجال، فولّوا على أنفسكم رجلا منكم فإن أبى فاقتلوه» فأشار إلى أبي الخطّاب، رضي الله عنه.»[1]

لنا أن نستشف من هذا الخبر أنّ أبا عبيدة كان يلقّن تلاميذه أصول المذهب الإباضي وقواعد القيادة السياسية، كما يبدو من هذا الخبر أنّ أبا عبيدة كان أوّل من بايع أبا الخطّاب بإمامة الإباضية في بلاد المغرب باختياره له، وكأنّنا بأبي الخطّاب وهو يمني الأصل قد وقع اختياره لتركيز الإمامة الإباضية ببلاد المغرب وبالتعاون مع المجموعة الّتي رافقته خلال فترة تعلّمه على أبي عبيدة.

ولعلّ هذا وراء ما ذهب إليه الباحث في التاريخ المغربي الدكتور عبد الكريم غلاّب من أنّ تولية أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري ومثله كثيرون من المشاركة لمهام القيادة في بلاد المغرب قد يرجع إلى رسوخ قدمهم في الحكم والقيادة السياسية والمذهبية ممّا يخوّل لهم حيازتهم لرصيد هامّ من المعرفة والدّراية بدواليب الإمامة.[2]

أمّا الخبر الثّاني الّذي أورده أبو زكرياء تعلّق بإسماعيل بن درار الغدامسي حين سأل أبا عبيدة عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام قبل أن يستوي على متن الدّابة.[3]

هذا الخبر يقيم الدّليل على أنّ أبا عبيدة كان يدرّس تلاميذه الأحكام الشرعية ومسائل الفقه والشّريعة الإسلامية ليستنيروا بها في القضاء بين النّاس بالعدل.

هذا ما تميّزت به حياة أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري. وحسب ما وصلنا عن طريق أبي

(١) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٠

(٢) عبد الكريم غلاّب، «قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي»، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٦ هـ /٢٠٠٥م، ص ٢٦٠.

(٣) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٠

زكريـاء فـي الفتـرة الّتـي سـبقت نشـاطه السياسـي وقبـل أن يتقلّـد مهـام إمامـة الإباضيـة فـي بـلاد المغـرب الّتـي أفـرد لهـا أبـو زكريـاء إحـدى وعشـرين فقـرة مـن الكتـاب وقـد لخّصـت جميعهـا مـدّة أربـع سـنوات مـن إمامتـه للإباضيـة فـي بـلاد المغـرب سـواء فـي طرابلـس أو القيـروان وصراعـه مـع السـلطة العباسية ولذلـك أفردنـا لهـذه الفتـرة مـن حيـاة أبـي الخطّـاب جـزءا خاصّـا بـه فـي هـذا البحـث ركّزنـا فيـه علـى مـا أورده أبـو زكريـاء حـول النشـاط السياسـي والعقـدي للإمـام أبـي الخطّـاب عبـد الأعلـى المعافـري.

❖ مرحلة الظهور والسيطرة على طرابلس

لقد اخترنا هذا العنوان استنادا على ما تعتمده الإباضية في مسالك إيمانها.

وبالاعتمـاد علـى مـا أورده أبـو زكريـاء فـي كتابـه مـن أخبـار حـول أبـي الخطّـاب لنـا أن نعتبـر أنّ هـذه الفتـرة الّتـي قضاهـا ببـلاد المغـرب يمكـن أن نطلـق عليهـا مرحلـة الظهـور رغـم أنّـه اعتمـد علـى الكتمـان فـي أوّل تواجـد لـه بطرابلـس، وهـذا راجـع إلـى أن المنطقـة تعيـش الكتمـان بعـد مقتـل الإمامين الحـارث[١] وعبـد الجبـار[٢] إضافـة إلـى كـون أنصـار الإباضيـة الموجوديـن فـي طرابلـس اختـاروا مبايعـة أبـي الخطّـاب فـي مـكان يقـال لـه «صيّـاد»[٣] سـرّا، مدّعيـن خروجهـم «فـي أمـر أرض بيـن قـوم أرادوا قسمتها وأظهروا ذلك وأعلنوه»[٤].

كان الاتفـاق علـى مبايعـة أبـي الخطّـاب بإمامـة الجماعـة الإباضيـة وقـد كان هـذا الاتفـاق بإيعـاز مـن القبائـل البربريـة : نفوسـة وهـوارة وهويشـة[٥].

علمـا وأنّ النظـام القبلـي فـي بـلاد المغـرب كان وراء نجـاح المذاهـب واسـتمرارها أو فشـلها وانهيارهـا،

---

(١) هو الحارث بن تليد الحضرمي (ت بين ١٣١ و١٤٠ هـ /٧٤٨ و٧٥٧ م) أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، اشترك مع عبد الجبار بن قيس المرادي في الإمامة على حيّز طرابلس، وجدا مقتولين وسيف كلّ واحد منهما في الآخر ممّا أعقب فتنة بين أتباعهما. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ١١٩.

(٢) هو عبد الجبار بن قيس المرادي (ت بين ١٣١ و١٤٠ هـ /٧٤٨ و٧٥٧ م) من قادة الإباضية الأوائل ببلاد المغرب أخذ العلم عن أبي عبيدة وشارك الحارث بن تليد حكم طرابلس، وبمقتله مع شريكه الحارث بايع الإباضية بعدهما إسماعيل بن زياد النفوسي. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) موقع يقع غربي مدينة طرابلس. أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٢.

(٤) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٢.

(٥) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ص ٦٢- ٦٣.

وقد تهيأت هذه القبائل التي ارتوت بمبادئ المذهب الإباضي وتشبعت به منذ وصوله إلى بلاد المغرب عن طريق الداعية الأوّل : «سلمة بن سعد»[1] لبسط سلطان الجماعة.

وبمبايعة أبي الخطّاب وقبوله البيعة بعد اشتراطه أن لا تذكر في جماعته مسألة الحارث وعبد الجبّار[2]، دخلت الإباضية مرحلة الظهور الّتي دامت أربع سنوات في إمامة أبي الخطّاب.

لقد ركّز أبو زكرياء في الأخبار التي نقلها عن أبي الخطّاب بعد توليه الإمامة ودخوله طرابلس على السيرة الحسنة التي سار عليها تجاه عمرو بن عثمان القرشي عامل أبي جعفر المنصور[3].

يقول أبو زكرياء : « وقصدوا (إلى نحو) العامل ليقتلوه فأبى عليهم أبو الخطّاب (من) ذلك قال لهم : « إنّما دخلنا عليهم بالأمان»[4]، ونفس السّيرة اعتمدها أبو الخطّاب تجاه أهل المدينة أجبر خلالها عامل بني العباس على «الانخلاع من العمالة» أو «الخروج بالأمان»[5]، فاختار الخروج بعد أن سلّم مفاتيح بيت المال لأبي الخطّاب الذي وكما يذكر أبو زكرياء كانت أيامه وأحكامه يسودها العدل والاستقرار.

كما لا يفوتنا في هذا السياق أن نتساءل حول فصل أبي زكرياء بين «أهل طرابلس» من جهة على حدّ تعبيره و»المسلمين» [6] وهم أصحاب أبي الخطّاب.

فلماذا اعتمد أبو زكرياء كلمة «المسلمين» ليعبّر عن أصحاب أبي الخطّاب مقابل أهل مدينة طرابلس ؟

---

(١) هو سلمة بن سعد بن علي بن أسد الحضرمي اليمني (حي ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م) عالم عامل وداعية، صنّفه الدرجيني في طبقة تابعي التابعين، أخذ العلم عن إمام المذهب الإمام جابر بن زيد وعن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وهو أول من جاء بمذهب الإباضية من البصرة إلى بلاد المغرب الإسلامي. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ص ١٨٩. ١٩٠.

(٢) أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي، « الجواهر المنتقاة»، صححه وقدم له وعلّق عليه أحمد بن سعود السيابي، دار الحكمة، لندن، ط ١، ٢٠١٤، ص ص ١٨٩. ١٩١.

(٣)(٩٥ – ١٥٨ هـ / ٧١٤ – ٧٧٥ م) هو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفّاح سنة ١٣٦ هـ. خير الدين الزركلي، «الأعلام»، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط ١٤، شباط، فبراير ١٩٩٩. مج ٤، ١١٧.

(٤) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٤.

(٥) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٤.

(٦) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٥.

كما لنا أن ننوّه بإيراد أبي زكرياء لتواريخ مضبوطة تحدد بدقة تاريخ تولّي أبي الخطّاب إمامة الإباضية بطرابلس ومدّة ولايته. يقول : « وكانت ولاية أبي الخطّاب أربع سنين وقد ولي على رأس أربعين ومائة»[1]

هذه التواريخ تساعد على تحديد دقيق للتواريخ وللتحولات السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية والعقدية التي تشهدها المجتمعات.

ويعتبر دخول أبي الخطّاب طرابلس وكلّل بالنجاح، وآلت المدينة للسلطان الإباضي، هذا النجاح سيكون وراء تحرّك الجماعة الإباضية في اتجاه توسيع مجال نفوذهم، وكانت القيروان[2] هي الوجهة الثانية لأبي الخطّاب وأصحابه نظراً لقيمة هذه المدينة ودورها في المنطقة.

• أبو الخطّاب في اتجاه القيروان

إنّ توجّه أبي الخطاب إلى القيروان يرجعه أبو زكرياء إلى الأوضاع التي كانت تعيشها القيروان في تلك الفترة وقد أورد ثلاثة روايات تفسّر أسباب هذا الخروج وإن صحّ التعبير فهو سبب وحيد مع اختلاف صيغ الرواية وهو جور قبيلة ورفجومة[3] تجاه أهل القيروان، وما يمكن أن يحسب لأبي زكرياء هو إيراده لروايات خبر جور ورفجومة هو محاولة التزامه للحياد في هذا النقل للخبر، لقد اتسمت إحدى الروايات بإضفاء صبغة قدسية على أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري، وهو أن تصيح امرأة من القيروان تستغيث بأبي الخطّاب فيسمعها وهو في مدينة طرابلس[4]، ولعلّ هذا ما جعل أبا زكرياء يورد روايتين يسبقهما عن جور ورفجومة.

---

(١) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٥.

(٢) قال الأزهري : القيروان مغرب وهو بالفارسية كاروان، وقد تكلمت به العرب قديما، والقيروان في الإقليم الثالث، طولها إحدى وثلاثون درجة وعرضها ثلاثون درجة وأربعون دقيقة، وهذه مدينة عظيمة بإفريقية وليس بالغرب مدينة أجلّ منها. ياقوت الحموي، «معجم البلدان»، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ج ٤، ص ٤٢٠.

(٣) إحدى بطون قبيلة نفزة المستقرّة بالجنوب التونسي. أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٥.

(٤) بفتح أوّله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة، وسين مهملة ويقال اطرابلس وقال ابن بشير البكري طرابلس بالرومية والإغريقية ثلاث مدن وسمّاها اليونانيون طرابليطة، وهي على شاطئ البحر.ياقوت الحموي، «معجم البلدان»، ج ٤، ص ٢٥.

كما يذهب عدد من المصادر الّتي اهتمت بتاريخ بلاد المغرب[1] إلى أنّ دخول أبي الخطّاب مدينة القيروان كان بسبب ما آلت إليه الأوضاع مع قبيلة ورفجومة المسيطرة على المدينة.

وقد يكون القضاء على قبيلة ورفجومة هو السبب الظاهر لخروج أبي الخطّاب إلى القيروان ولكننا نرجح أيضا أن يكون قد حرّكته قيمة مدينة القيروان وهي التي قال عنها ياقوت الحموي «مدينة عظيمة بإفريقية، وليس بالغرب مدينة أجلّ منها.»[2]

وفي طريق أبي الخطّاب إلى القيروان سيطر على قابس[3] وجعل عليها عاملاً من طرفه، ثم وصل القيروان الّتي حاصرها حصاراً شديداً،[4] وهنا يمكن أن يتبادر إلى أذهاننا سؤال حول ظروف مسيرته هذه، أي كيف استطاع الإمام أبي الخطاب أن يصل إلى القيروان دون مواجهة تذكر مع عمال بني العبّاس ؟ وكيف له وهو متوجّه من طرابلس إلى القيروان أن لا يسيطر إلاّ على مدينة «قابس» ؟

ولعلّ هذا يجعلنا نفترض أن مسير أبي الخطّاب إلى القيروان مكّنه من السيطرة على مناطق أخرى كجربة وجبل دمّر كما ذكر ذلك محمد المرزوقي.

كما قدّم لنا أبو زكرياء لمحة عن شخصية أبي الخطّاب الإمام الفاتح لمدينة طرابلس، فقدّم له وهو القائد العسكري المنظّم للجيش الذي لا يتوانى في معاركه وحروبه من أن يستأنس بما كان من سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم (في غزوة أحد مثلا) من عدم إلزام أي شخص على الخروج للقتال وجعل الأمر اختياراً ولمن توفرت فيه شروط معينة.

لقد خبر أبو الخطّاب عناصر جيشه للقتال طالبا من كان له أبوان كبيران لا عائل لهما دونه، ومن كانت له عروس حديثة العهد به، ومن كانت له غروس صغار، ومن أراد الرجوع عن

---

(١) عبد الرحمان بن خلدون، «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٣ – ١٤٢٤. –عبادة كحيلة، «المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب»، المطبعة الإسلامية الحديثة، ط ١، ١٤١٨/ ١٩٩٧.

(٢)ياقوت الحموي، «معجم البلدان»، ج ٤، ص ٤٢٠.

(٣)بكسر الباء الموحّدة، مدينة بين طرابلس وصفاقس ثم المهدية وساحل البحر فيها نخل وبساتين غربي طرابلس الغرب بينها وبين طرابلس ثمانية منازل وهي ذات مياه جارية، عرضها خمس وثلاثون درجة. ياقوت الحموي، «معجم البلدان»، ج ٤، ص ٢٨٩.

(٤)أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٦.

القتـال فليرجـع بليـل[1]. ولعلّ اختيـار الليـل للرجـوع عـن القتـال يحمـل معنـى الكتمـان الـذي عرفـت بـه الإباضيـة لتجنـب التأثيـر فـي بقيـة المقاتلين، خاصّـة وأن أبـا الخطـاب قـد ألـحّ علـى مـن يرغـب فـي الرّجـوع بالرجـوع فـي ثـلاث أيّـام متتاليـة حتّـى لا يبقـى إلاّ مـن لـه استعداد مـادي ومعنـوي لذلـك.

كمـا ظهـر أبـو الخطّـاب مـن خـلال هـذه الفقـرة فقيهـا يبشّـر أصحابـه المرافقيـن لـه بالجنّـة فـي حربـه علـى ورفجومـة ويقـدّم فتـاوى للفوز بالجنّـة للمقاتلين معـه : « يقـول إنّـي ضامـن لمـن مـات فـي غزوتنـا هـذه الجنّـة إلاّ مـن كانـت معـه إحدى ثـلاث خصـال، أحدهـا قتـل النفس الّتـي حـرّم الله، والثانيـة مـن كان علـى فـراش الحـرام، والثالثـة مـن كان فـي يـده أرض الغصـب ولـه منهـا مخـرج، أمّـا مـن كان علـى فـراش الحـرام فليـس منهـا ويشـهد أنّهـا ليسـت بامرأتـه ويتـوب إلـى الله، وأمّـا أرض غيـره إذا كانـت فـي يـده بالغصـب فليتبـرأ منهـا ويستشـهد علـى تركهـا، وأمّـا مـن قتـل نفسـا مـن غيـر حلّهـا فليقيـد نفسـه لأوليـاء المقتـول، فـإن لـم يجدهـم فليدفـع نفسـه فـي سـبيل الله.»[1]

يقدّم أبـو الخطّـاب فتـاوى تبـرئ المذنبيـن مـن أصحابـه مـن ثـلاث معاصـي تحـول بينهـم وبيـن الشـهادة والجنّـة كمـا يقـدّم بهـذه الأحكام الفقهيـة دليـلا علـى التكويـن الدينـي الـذي قـد يكـون قـد تلقّـاه فـي حلقـة أبـي عبيـدة مسـلم بـن أبـي كريمـة التميمـي بالبصـرة.

واسـتطاع أبـو الخطّـاب بفضـل حسـن قيادتـه لأصحابـه مـن أن يدخـل القيـروان ويسـيطر عليهـا ويعتمـد تجـاه أهلهـا سياسـة عادلـة، فلـم يجهـزوا علـى جريـح ولـم يهلكـوا زرعـاً ولـم يسـلبوا قتيـلا، ويـروي أبـو زكريـاء أنّ أبـا الخطّـاب وأصحابـه تركـوا القتلـى مـن خصومهـم وكأنّهـم «رقـود»[2] لـم يمسسـهم سـلب فسـمي المـكان بـــ «رقـادة»[3]، ويذكـر ياقـوت الحمـوي فـي تعريفـه لرقـادة الروايـة القائلـة بـأنّ تسـمية المـكان كانـت فـي عهـد أبـي الخطّـاب وهـو يسـيطر علـى القيـروان وسـيرته تجـاه العسـكر المواجهيـن

---

(١) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٧.

(٢) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٩.

(٣) بلدة بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأربعين ذراعا، وأكثرها بساتين ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيما وأرق تربة منها، قيل في تسميتها برقادة إنّ أبا الخطّاب عبد الأعلى القائم بالدعوة الإباضية بأطرابلس لما نهض إلى القيروان لقتال ورفجومة وكانوا قد تغلبوا على القيروان مع عاصم بن جميل التقى بهم بموضع رقادة، فقتلهم هناك فسميت رقادة لرقاد قتلاهم، والمعروف أن الذي بنى رقادة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب. ياقوت الحموي، البلدان، ج ٣، ص ٥٥.

لـه مـن أهلهـا.[1]

وفـي مقابـل ذلـك كان أبـو الخطّـاب شـديداً تجـاه أصحابـه ملحّـا علـى ضـرورة التزامهـم بالأخـلاق الحميـدة وبـآداب الحـرب عنـد المسـلمين، حتّـى أنـه دعـا أن يفضـح الله مـن سـلب قتيـلا مـن أهـل القيـروان فاستجاب لـه وانقطـع حـزام السـرج وبـرز السّـلب ووبّـخ صاحبـه، لقد كان أبـو الخطّـاب خيـر مـن يوجّـه أصحابـه نحـو الخيـر والصّـلاح فتكتمـل صـورة القائـد العسكري الـذي يحـرص علـى سـلامة أصحابـه وحرمـة أعدائـه أحيـاء كانـوا أو أمواتـا.

❖ مرحلة التراجع والانهيار المؤدية للوفاة

هـذه المرحلـة هـي المرحلـة الأخيـرة مـن حيـاة أبـي الخطّـاب حسـب مـا أورده أبـو زكريـاء فـي كتـاب السّـيرة.

لقـد أورد أنّ الرجـل الـذي وبّخـه أبـو الخطّـاب حيـن اكتشـف سـلبه لأحـد المقتوليـن مـن أهـل القيـروان ارتحـل إلـى أبـي جعفـر المنصـور يطلـب نصرتـه وحمايتـه عارضـا عليـه المسـاعدة للقضـاء علـى أبـي الخطـاب وجماعتـه فـي بـلاد المغـرب[2] فلقـي القبـول، ونظـراً لرغبتـه فـي اسـتعادة السـيطرة علـى مـدن أفريقيـة وإيقـاف انتشـار المذهـب الإباضـي أرسـل أبـو جعفـر المنصـور محمـد بـن الأشـعث الخزاعـي[3] الـذي اعتمـد علـى خدعـة أوهـم بهـا أبـا الخطّـاب وأصحابـه بأنـه رجـع عـن قتالـه وعـاد أدراجـه مـن حيـث أتـى، ممّـا جعـل عسـكر أبـي الخطّـاب يعـودون إلـى بيوتهـم ويتفرّقـون مـن حـول إمامهـم ولكنّـه فـي الحقيقـة تخفّـى ثـمّ داهمـه فـي غفلـة مـن أصحابـه، فمـا كان مـن أبـي الخطّـاب إلاّ أن خـرج لقتالـه مـع قلـة مـن أصحابـه فـي مـكان يدعـى تاورغـا[4].

يـروي أبـو زكريـاء أن القتـال كان شـديدا انتهـى باستشـهاده فيقـول : « واستشـهد معـه أربعـة عشـر ألفـا

(١) المرجع نفسه.

(٢) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٧١.

(٣) (ت ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م) وال من كبار القواد في عصر المنصور العباسي، ولاه المنصور مصر سنة ١٤١ هـ ثم أمره باستنقاذ إفريقية بعد مقتل حبيب بن عبد الرحمان الفهري، دخل القيروان سنة ١٤٦ هـ وانتظم لـه الأمر في إفريقية فثار عليه عيسى بن موسى بن عجلان أحد جنده في جماعة قواده وأخرجوه من القيروان، ثم غزا بلاد الروم مع العباس ابن عم المنصور فمات في الطريق. الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٣٩.

(٤) مدينة تبعد ستة أميال في الجنوب الشرقي لمصراطة وحدثت فيها معركة سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م. أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٦٦.

فيما ذكر بعض الرواة، وذكر آخرون اثني عشر ألفا ولم يفلت من عسكره إلاّ اليسير[1]، وبوفاة أبي الخطّاب تراجع الإباضيون وتحصّنوا بالجبال خوفا من جور ابن الأشعث وأصحابه بمن فيهم عبد الرحمان بن رستم الذي خرج من القيروان برفقة ابنه عبد الوهاب بن رستم قاصدين بلاد المغرب[2]، ولعلّ المقصود هنا ببلاد المغرب المغرب الأوسط، أين سيختطّ عبد الرحمان بن رستم مدينة تاهرت ليؤسس الإمارة الرّستمية سنة ١٦٠ هـ.

• أبو الخطّاب عبد الأعلى المعافري في كتب التّاريخ

لقد ورد اسم أبي الخطّاب في مؤلفات المؤرخين المغاربة والمشارقة الّذين اهتموا بتاريخ بلاد المغرب وإفريقية لاعتبارين اثنين :

١- أبو الخطّاب عبد الأعلى المعافري يمثّل مع بقية أصحابه المذهب الإباضي باعتباره المذهب الخارجي المتغلغل في صفوف البربر والمرحبين به لما رأوا فيه نصرة لهم ومكرّسا للعدل والمساواة الّتي طالما نادى بها الإسلام وحرمهم إياها عمّال بني أميّة وولاّتهم[3].

٢- أبو الخطّاب عبد الأعلى المعافري يؤثّر في تاريخ بلاد المغرب في مناسبتين: الأولى مع الورفجوميين الذين بدخولهم القيروان «استحلّوا المحارم وارتكبوا العظائم (...) وقتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب وربطوا دوابهم في المسجد الجامع...»[4]

وقد حرص المؤرّخون المغاربة [5] على إيراد الصّراع الذي دار بين أبي الخطّاب وقبيلة ورفجومة ليسيطر على القيروان [6].

---

(١) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٧٥.

(٢) أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ٧٦.

(٣) الرقيق القيرواني، «تاريخ إفريقية والمغرب»، تحقيق وتقديم الدكتور المنجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م. ص ١٧٢ – ابن عذاري المراكشي، «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» تحقيق ومراجعة ج. س. كولان .إ. ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ج١، ص ٧١.

(٤) الرقيق القيرواني، تاريخ ...، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٥) المرجع نفسه

(٦) الرقيق القيرواني، «تاريخ ...»، ص ١٧٢ – ابن عذاري، «البيان المغرب...»، ص ٧١.

المناسبة الثانية الّتي ذكر فيها الرقيق القيرواني وابن عذاري أبا الخطّاب هي حديثهما عن معركته مع محمد بن الأشعث الذي قاتل أبا الخطّاب سعياً منه لإعادة بسط سلطان الدولة العباسية على بلاد المغرب والقضاء على الفكر الخارجي ممثلا في المذهب الإباضي.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ تعرّض كتب التاريخ المهتمّة بتاريخ المنطقة وتحديدا ابن عذاري والرقيق القيرواني لم يتعرّضا إلى الحديث عن شخصيّة أبي الخطّاب وتنزيله في إطاره – الفكر الإباضي– واكتفيا بالحديث عن تأثيره مع أطراف أخرى سواء قبيلة ورفجومة، أو السلطة الحاكمة في تاريخ المنطقة.

كما نجد مثلا عند ابن عذاري أخباراً لم ترد في كتاب السّيرة تعلّقت بمقتل أبي الخطّاب اذ يقول : «فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم البربر وقتل أصحاب أبي الخطّاب وأبو الخطّاب (...) وذلك في ربيع الأول من السنة ووجه ابن الأشعث برأس أبي الخطّاب إلى بغداد.»[١].

ويقول أبو زكرياء في السياق ذاته (مقتل أبي الخَطاب) «ولم يبرح أبو الخطّاب رحمه الله بقلّة من معه من المسلمين حتّى استشهد واستشهد معه أربعة عشر ألفا فيما ذكر بعض الرواة، وذكر آخرون اثني عشر ألفا ولم يفلت من عسكره إلاّ اليسير»[٢].

هذا الاختلاف بين الروايتين يجعلنا نقرّ بأنّ كتاب السيرة وأخبار الأئمة يمثل قراءة جديدة لتاريخ بلاد المغرب من خلال الترجمة لأعلام أثروا بشكل أو بآخر في التحوّلات السياسية والاجتماعية والفكرية مقارنة مع بقية التيارات الفكرية والمذهبية التي عرفتها منطقة بلاد المغرب.

(١)ابن عذاري، «البيان المغرب...»، ص ٧٢.

(٢)أبو زكرياء، «السيرة ...»، ص ص ٧٤- ٧٥.

المصادر والمراجع

المصدر:

١- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاّني السّيرة وأخبار الأئمّة، تحقيق الدكتور عبد الرحمان أيّوب نشر الدار التونسية للنشر، تونس، بتاريخ ١٤٠٥/١٩٨٥.

المراجع :

١. ابن عذاري المراكشي، «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» تحقيق ومراجعة ج. س. كولان .إ. ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣.

٢. أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي، « الجواهر المنتقاة»، صححه وقدم له وعلّق عليه أحمد بن سعود السيابي، دار الحكمة، لندن، ط ١، ٢٠١٤

٣. بحاز إبراهيم بكير « الدولة الرستمية، (١٦٠ و٢٩٦هـ/٧٧٧ و٩٠٩م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية »، ط. لافوميك، الجزائر، ١٩٨٥.

٤. خير الدين الزركلي، «الأعلام»، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط ١٤، شباط، فبراير ١٩٩٩.

٥. عبد الرحمان بن خلدون، «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٣ – ١٤٢٤.

٦. عبادة كحيلة، «المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب»، المطبعة الإسلامية الحديثة، ط ١، ١٤١٨/ ١٩٩٧.

٧. عبد الكريم غلاّب، «قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي»، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥

٨. الرقيق القيرواني، «تاريخ إفريقية والمغرب»، تحقيق وتقديم الدكتور المنجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

٩. مسعود مزهودي، «الإباضية في المغرب الأوسط»، نشر جمعية التراث، القرارة، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م

١٠. معجم أعلام الإباضية من القرن الأوّل إلى العصر الحاضر : قسم المغرب الإسلامي، جمعية التراث : لجنة البحث العلمي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٢١/٢٠٠٠.

١١. ياقوت الحموي: «معجم البلدان»، دار صادر، بيروت لبنان، ١٩٨

سيرة لبعض فقهاء المسلمين
إلى الإمام الصلت بن مالك -رحمه الله-

أحمد بن مهني مصلح الجربي
مدرس بكلية العلوم الشرعية بمسقط /سلطنة عمان
ajimalkhairi@hotmail.com

تمهيد

حول أهميّة السير ووصف المخطوطة

السير (أدبيات في أصول الدين عند الإباضية تكتب في مواجهة صعوبة ما، تتقصى الآراء العقائدية.) أغلب السير ذات توجه ديني وعظي تشمل آراء الأئمة والفقهاء وقد ترد في شكل رسائل تعبّر عن وجهة نظر كاتبها تجاه أحداث داخلية.

إن التعريف برجال السلف من علماء وأئمة و مؤلفين ونساخ وواقفين، أمانة في أعناق الباحثين من أبناء الإباضية مغاربة ومشارقة إذ لا تزال سيرهم مجهولة عند القريب قبل البعيد .

وقد خضع إحياء التراث المخطوط لفترات مدّ وجزر وانكماش وانتعاش وتلف ونجاة وعلى جيل الصحوة أن يدعم الانتعاش وينقذ كنوز السلف، ولا يبخل بأي مجهود لتحقيق الإرث الثمين.

إن البخيل بلحظة أو لفظة أو عطفة أو وقفة لبخيل

ومن أهم مظاهر المناصرة للمذهب، التأليف في الفروع والترجمة لأعلام المذهب وتوارث آثارهم بنسخها وتحقيقها ونشرها. فقد وردت سيرة سليمان بن القاسم المغربي النفوسي لأهل عمان ذكرت بعض الاضطرابات الموجودة عند إباضية المغرب، وسيرة محمد بن أحمد الخراسيني رد على السيرة السابقة بأمر الإمام ناصر بن مرشد يدعوهم للتوحد ونبذ الخلافات.

قال الشيخ عبد الله الباروني في مدح قطب الأئمة الشيخ أطفيش:

أحيى لنا السيرة الغرّاء حين عفت رسومها واعترى أبوابَها السددُ فأنت قدوتنا ونور مذهبنا
وقطب نحلتنا لك اللوا عقدوا

ولو استعرضنا محطّات التواصل بين المشرق والمغرب للتمثيل لا للحصر، فنجد :

- الإمام أبا عبيدة وإعداده لحملة العلم المغاربة ، ورسالته في الزكاة لأهل المغرب،وإرساله للداعية سلمة ابن سعد إلى تلك الربوع، واستقباله لمحمد بن مغطير النفوسي بسردابه بالبصرة قبل حملة العلم الخمسة.
- سيرة أبي عبيدة وأبي مودود حاجب الطائي إلى أهل المغرب وجوابهما في قضية الحارث وعبد الجبّار، ودعوتهما إباضية طرابلس إلى التوحد بعد النزاع وإلى دفن الخلاف في الولاية والبراءة والوقوف.
- الإمام عبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب والمساعدات الواردة من المشرق تعزيزا للإمامة الناشئة بتيهرت.
- الإمام الربيع وفتواه بتصحيح إمامة عبد الوهّاب واعتبار انشقاق النكار فتنة.
- الإمام أفلح بن عبد الوهاب أقبل على مصنفات المشارقة وأوصى بقراءة كتب أبي سفيان محبوب بن الرحيل.
- رسالة أصحاب خلف بن السمح إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل يستفتونه في تنصيب خلف إماما بدل عبد الوهاب وجوابه بعدم جواز الخروج.
- الإمام أبو غانم بشر بن غانم الخراساني المنطلق من البصرة نحو تيهرت مرورا بجبل نفوسة ومصطحبا للمدوّنة.
- الإمام محمد بن محبوب وسيرته لأهل المغرب ونصحه لإخوانه،وفيها ردّ على أسئلة إخوانه عن السياسة الشرعية. و تذكر السير اجتماع محمد بن محبوب العماني بمكة في موسم الحجّ بعمروس بن فتح النفوسي في القرن ٣ هـ.
- سيرة العلماء المغاربة للإمام الصلت بن مالك، تناقش مسائل متعلقة بالإمامة والسياسة

الشرعية وتتحدث عن مضادة النكار للإمام عبد الوهاب.

- الإمام ابن بركة وتدريسه لسبعين من الطلبة الجربيين والنفوسيين، قال أبو سعيد الكدمي (كان ابن بركة غنيّا اشتهر بغناه ظهيرا للعلم، لذلك يقصده الطلبة من عمان وغيرها حتى قيل إن الطلبة المغاربة لا يفقدون من مقامه) وهو صاحب (الجامع) الذي حقّقه عيسى الباروني.
- الحاج عيسى بن زكرياء(أبي بكر) الجربي وزيارته لعمان، وتحميله بالكتب، عند عودته (حلّ ابن وصاف، جامع أبي الحسن البسيوي، جامع ابن جعفر)، وطلب العمانيين منه تزويدهم بكتاب يتضمّن سير الأوائل ومناقب الأسلاف المغاربة، وقد رشح الجربيون الشيخ الدرجيني لتصنيف الطبقات. (ق ٧ هـ)
- الشيخ أبو القاسم البرادي صاحب الجواهر الذي اطلع على عديد المؤلفات المشرقية واعتنى بالدعائم لابن النضر (شفاء الحائم)، ووضع قائمة في تآليف العمانيين. (ق ٨ هـ)
- الشاعر محمد بن عبد الله الأغبري نظم قصيدة من ٨٤ بيتا ذكر فيها جربة ونفوسة وميزاب . (ق ٩ هـ).
- الشاعر عبد الله بن عمر بن زياد البهلوي وضع مخمّسا لإخوانه المغاربة (ق ١٠ هـ)، وشرح رائية أبي نصر .
- إبراهيم الشماخي اليفرني يواكب الأحداث ويرسل تهنئة بنصب الإمام ناصر بن مرشد اليعربي (ق ١١هـ).
- الشيخ علي بن بيان الجربي يوجه رسالة للشيخ خميس بن سعيد الشقصي تعزية في الإمام ناصر بن مرشد (ق ١١هـ).
- الشيخ نصر بن خميس الشقصي يقوم بزيارة لإخوانه في نالوت (ليبيا) ثمّ جزيرة جربة (ق ١٢ هـ).
- الشيخ عمر بن سعيد بن محمد بن زكرياء الجربي يرد الزيارة ويصل عمان في عهد



السلطان بلعرب ويقترح عليه بناء مدرسة فيستجاب ويشيّد حصن جبرين الذي تخرج منه خمسون عالما(ق١٢هـ).

- الإمام المحقق سعيد بن خلفان الخليلي يراسل المشائخ بالمغرب ويبشرهم بتنصيب الإمام عزان بن قيس (ق١٣هـ).
- وصولا إلى القرن ١٤هـ حيث كثرت الزيارات والمراسلات وتبادل الكتب: فقد زار الشيخ إبراهيم بن يوسف أطفيش شقيق القطب عمان و(محمد) بن عيسى أزباراليزجني وحمل نسخة من بيان الشرع كاملة وكتاب الضياء، وأحمد النوري واسطة بين العمانيين والقطب في إيصال الرسائل والكتب.

وقد ورد على الإمام الخليلي كتاب من المشايخ الميزابيين: صالح بن علي ، وصالح بن يحيى ، و سعيد بن علي يستفتون من مكة عن قضية الصوم بالتلفون والتلغراف وما أحدثته من فتنة بلغت حدّ التخطئة والبراءة من المخالف في الرأي، ومطالبتهم الإمام محل الثقة أن يحسم في الموضوع.

ونشط مؤخراً التهادي للكتب ووقفها على المساجد والطلاب ونسخ المخطوطات وتبادلها، ونظرا للثقة التامة في علماء كل جهة تعددت الاستفتاءات للعلماء: لقطب الأئمة بالمغرب وللإمام الخليلي بالمشرق. : أوصيكم بالتثبّت في الأمور وألاّ تعجلوا على إخوانكم بقطع العذر والبراءة، واحتملوا للمسلمين فيما كان فيه محتمل. ومن دين المسلمين : أن لا ينصبوا الرأي دينا... فانظروا بعين البصيرة... وقد رأيت في غضون تلك الورقات ..أنه من مسائل الاجتهاد، وأن للرأي فيه مجالا وللعلماء مقالا . فلا يفضي بها إلى التخطئات وقطع الأعذار...فالله الله فيما يجمع الكلمة والتآلف، ويبعد الشحناء والتخالف، ...فما مني الإسلام بشيء أعظم وأطمّ من التخالف المؤدي إلى الفشل ... هذا وإخوانكم أهل عمان حريصون على اجتماعكم ....ويسيئهم ما يبلغهم عنكم من التفرّق، جمعكم الله على الهدى، وسلك بنا وبكم نهج سلفنا...) ويسوءنا ما يبلغنا من تخالفكم وعدم توقيركم لذلك الشيخ...فليس ذلك بموجب فرقة ...فلا تعجلوا على القراري بالبراءة ...وذلك من إخوانكم المشارقة أهل عمان . وقد دامت الفرقة بين الطرفين قرابة الأربعين سنة. قال الشيخ عبد الله الباروني داعيا إلى اتباع السير مهديا سلامه لإخوانه من بني مصعب أهل الطريق الأصوب:

والزموا السيرة أحيوا ذكرها ... واحتذوها طبقا عن طبقْ

واحذروا شقّ عصاكم واهجروا ... من سعى فيكم بجنب ورهقْ

وتوقّوا من عداكم وادفعوا من ... رمى فيكم بسهم ورشقْ

وصف المخطوطة

تتوفر من هذه السيرة نسخ موزعة بين وزارة التراث ومكتبة السيفي بنزوى ومكتبة السالمي ببدية ومكتبة السيد محمد بن أحمد بالسيب في عمان ونسخة بوكالة الجاموس (مكتبة سماحة الشيخ الخليلي حاليا) وأخرى بأوكرانيا.

توجد من هذه المخطوطة نسخة بمكتبة السيّد محمد بن أحمد البوسعيدي بمدينة السيب من سلطنة عمان ، ضمن كتاب (السير وجمهور الأثر الجامع لسير المسلمين الفقهاء المهتدين العلماء والأئمة الراشدين الذين آثروا الدين على الدنيا وما استحبوا الفنا على البقيا، جعلنا الله ممّن سلك طريقهم واتّبع، وانتهى عن نهيهم وارتدع... نسخ لمن ارتقى على مراتب العزّ والكمال، وسما على أهل المكارم والجمال، واقتفى مناهج أهل الفضل والنوال، مقباس الأعيان، الناهج في طلب البرّ والإحسان، الراسخ في علم الأحكام والأديان، القاضي سليمان بن ناصر بن سليمان بن عبد الله الإسماعيلي الأبروي، وهو القائل :

هذا كتاب شريف صادق الأثر ... في سير المسلمين السادة الغرر

وقال أيضا:

إن قال قائل:

ياذا كيف تنفق ما تحوي ... يداك من الأموال في الكتب

فقل له لا تلمني دعني أجمعها ... إنّي أرى نفعها أبقى من الذهب

تزيد قاريها في الأيام موعظة ... وفي القيامة تنجيك من العطب

هي سيرة (من أهل المغرب) للإمام الصلت ومن معه، تتحدث عن النكار ومضادتهم للإمام عبد الوهاب وتناقش مسائل تتعلق بالإمام وسياسته الشرعية .

المرسل : إخوانكم وأهل دعوتكم من أهل الستر في أمكنتهم.

المرسل إليه : الإمام الصلت بن مالك المبتلى بأمور أهل عمان، ومن وصل إليه من المسلمين من أهل عمان.

صلب الموضوع: إصلاح ذات بينكم وبذل النصائح بيننا وبينكم بصدور سالمة وحجور حليمة وحجة قائمة ... ترك طلب المعايب فاحذروا التنازع والفتنة والتدابر والاختلاف والتشاحر ... أبغض الأمور إلى الله من شقّ العصا وفرّق الملأ وصدع الشعب وفارق الجماعة .. قبلنا ذلك منه .. لم نلتمس ما وراء ظهره مما ليس لنا كشفه ولا ينبغي لنا بحثه لكن المسلمين أهل تراحم وتعاطف وبرّ ونصح لله ... لما أخذتم بالذي يجمع الله به كلمتكم ويصلح ذات بينكم ويذهب نزغ الشيطان عنكم ويردّ ألفتكم و جماعتكم

حالة عُمان العلمية والسياسية زمن الصلت بن مالك

شهدت عمان في صدر إمامة الصلت استقرارا سياسيا مكّنها من إغاثة سكان سقطرى بأسطول من مائة مركب وطرد الأحباش المعتدين منها، أما في الداخل فتعرّضت عمان في عهده إلى خراب بسبب السيول العارمة ٢٥١هـ / ٨٦٥ م ،ثمّ نشبت فتنة أهلية في آخر عهده، أدت إلى زوال الإمامة الثانية ٢٨٠هـ /٨٩٣م وكان مصدرها عزل الإمام الصلت وانقسم الصفّ الإباضي إلى : متخاذل عن الإمام الصلت مؤيّد لموسى، ومتمسّك بولاية الإمام ، وواقف، ولكل حجّته.

لم يفكر في رأب الصدع طرف، وأصر المعاصرون للحدث كل على موقفه : المؤيّد رأى الخروج على الصلت باطل ، والمعارض زعم ضعف الإمام عن تسيير الدولة وطالبه بالاعتزال، إلا أن الصلت في رسالة لأحد أتباعه وصف معارضيه (اعلم يا أخي أن هذه الدولة كان لها رجال لهم حلوم راجحة عالمة وقلوب سليمة ، كانوا على أمر واحد يطأ الآخر أثر الأوّل .. فلم يزالوا على ذلك حتى مضوا فانقرضوا.. ثم خلفنا نحن وأنتم ... فقمت بهذا الأمر ما شاء الله إلى أن ذهب أهل الفضل وأهل العدل ونشأ اليوم شباب ظهرت رغبتهم في الدنيا وطلبوا الرياسة فيها)

الفقيه موسى شخصية متقلبة لم يقدّر عاقبة الأمور، و لا النتائج الوخيمة لعزل الإمام فبينما أحجم والده عن عزل الإمام المهنا رغم تقدّمه في السنّ قطعا لدابر الشقاق والفتنة، تجرّأ هو فعقد الإمامة لراشد بن النظر. إنّ اتباع سياسة الوفاق مع كافة الأجنحة يكسب نجاحات على مستوى المحلي الداخلي، ويوحد الصف أمام العدو الخارجي . أمّا استمرار الخلاف بين الفقهاء فيسدّ الطريق أمام أي أمل في الوحدة أمّا الانقسام إلى نزوانية ورستاقية فيعيق التقارب بين المدرستين إلى حين. وقد انطلقت رصاصة تفريق الصف بنصب موسى لراشد فحصل الافتراق:

(فمنهم من عذر، ومنهم من خطّأ وشنّع، ومنهم من توقف).

كان أبو المؤثر الصلت بن خميس معاصراً للفتنة وقد ألف كتاب (الأحداث والصفات) ذكر فيه ضيق الاختلاف في مسائل الدين و سعته في مسائل الرأي ، وتعرّض لعزل الصلت وفتنة موسى وتخطئته، وتعرّض لأحكام الولاية والبراءة ، وذكر بشيء من سيرة السلف. أمّا أبو سعيد الكدمي إمام المدرسة النزوانية فقد اعتبرمسائل الفتنة من باب الدعاوى التي تحتمل الصحة والخطأ

وأما ابن بركة إمام المدرسة الرستاقية فقال بوجوب البراءة من موسى وراشد ، ورأى أن إمامة الصلت ثابتة ولا يجوز الخروج عليه وموسى وراشد ومن معهما بغاة. ومن صور تطبيق مفهوم الولاية والبراءة والوقوف ما قام به الفقهاء العمانيون إثر عزل الصلت وأثمر مؤلفات عديدة. فلعلّ أشهر قضية ناقشتها السير العمانية هي عزل الإمام الصلت والموقف من الحدث، وقد أفرد لها كتب الاستقامة والتخصيص وأفاضت فيها موسوعات الضياء وبيان الشرع والمصنف وقاموس الشريعة. قال السرحني في كشف الغمة :

(زمن الإمام الصلت .... وقعت الفتنة في عمان وكبرت المحنة ، واختلفوا في دينهم وتفرّق رأيهم ووقعت بينهم البراءات وعظمت الإحن واشتدّت العداوات وكثرت بينهم السير والأقوال، وعظم القيل والقال،واشتدّ بينهم القتال... ولم تزل الفتن تتراكم .. حتى عقدوا في عام واحد ١٦ بيعة)

- **المبحث الأوّل :**

١ - مرسلو السيرة (مغاربة)

السلف الصالح أهل ورع وتواصل وتراحم وتسامح، قلوبهم مملوءة بالإيمان، وصدورهم

موقـورة حكمـة، ومـن آثارهـم الجليلـة سـيرهم المسـتمدّة مـن الكتـاب والسـنّة وذخائـر الأئمـة .

تنبـي مآثرهـم بحسـن مسيرهم جمعا بغيـر خيـانة ونفـاق

وتواصلـوا وتراحمـوا وتعاونـوا وتـوادّوا وتجمعـوا بوفـاق

ورد فـي هذه السيرة المباركـة أنّ مرسليها للإمـام الصلـت بـن مالـك هـم: (... مـن أهـل النصيحـة لهـم والشـفقة عليهـم، مـن إخوانهـم وأهـل دعوتهـم مـن أهـل السـتر فـي أمكنتهـم). ثـم تكـرّر أنّ السـيرة مـن إخـوان لأهـل عمان(كتابنـا إليكـم معاشـر إخواننـا ونحـن مـن الله فـي حـرز كنيـن وسـتر حصيـن)، ثـمّ صرّحـوا بسـبب تعمّـد إخفـاء أماكنهـم وأسـمائهم (. لـم يمنعنـا أن نعرّفكـم أمكنتنـا ونسـمي لكـم بأسـمائنا إلا خوفـا أن يقـع فـي قلـوب منكـم مـا تحملـه معرفـة ذلـك علـى الإنـكار له،والـردّ لصوابـه) ويصعـب ترجيـح مـن هـي الجهـة المرسـلة، ويبقـى البـاب مفتوحـا علـى عـدة احتمـالات :

- يمكـن أن يكـون المرسـل مـن داخـل عمـان فهـو مواكـب لأحداثهـا وغيرتـه علـى نهـج الإمامـة تدفعـه إلـى المسـارعة بالنصـح والعمـل فـي كنـف السـرية لتؤتـي المصالحـة ثمرتهـا وبالإخفـاء لا يـزداد الخـرق اتسـاعا، ولا يتولّـد رفـض للنصيحـة.

- ولعلّ المرسلين للسيرة من إباضية البصرة المتابعين للشأن العماني.

- وقـد تكـون السـيرة مرسـلة مـن أهـل اليمـن (حضرمـوت)، لقـرب المسـافة بيـن الموطنيـن وسـماع الأخبـار وللقضيـة سـابقة حيـث نصـح الشـيخ محبـوب بـن الرحيـل وابنـه محمـد أهـل حضرمـوت.

- ولعـلّ مصـدر السـيرة شـيوخ مغاربـة التقـى بعضهـم بالعمانييـن فـي مكـة وبلغهـم خبـر الاختـلاف فسـارعوا إلـى نصـح إخوانهـم وذكـروا بفتنـة النـكار التـي ابتلـي بهـا الإمـام عبـد الوهـاب ودولتـه وألحـوا علـى تجنـب الفتنـة فـلا يلـدغ المؤمـن مـن جحـر مرتيـن، وتفصيلهـم لأسـباب الخـروج علـى الإمـام عبـد الوهـاب يوحـي بأنهـم مـن أهـل تلـك الـدار والمبتليـن بنيـران تلـك الفتنـة .

و يتفـق الشـيخ فرحـات الجعبيـري والشـيخ محمـد ناصـر بوحجـام أنّ المغاربـة هـم مـن وجّـه الرسـالة إلـى الإمـام الصلـت.

٢ - المرسلة إليه : الصلت بن مالك ومن معه

هو: إمام المسلمين الصلت بن مالك الخروصي الذي مكث في الإمامة خمساً وثلاثين سنة وسبعة أشهر وثمانية عشر يومًا وقد أصابه الكبر فوقعت آخر أيامه فتنة بسبب قيام موسى بن موسى بن علي وراشد ابن النضر عليه، وبسببها نشأت الفرقة بين أهل عمان. وقد بويع الإمام الصلت بالإمامة ٢٣٧هـ ، فقام بالحقّ ٣٥سنة ، وفي عهده جار النصارى على سقطرى فأنجد أهلها المستغيثين به وجهز أسطولا بحريا بمائة مركب، وكتب عهدا لقادته في حسن التعامل مع الأحباش ، ولمّا حصلت الفتنة لجأ إلى بيت ابنه بلا ترك للإمامة ولا خلع.

(المبتلى بأمر عمان) هل الرسالة في أول تسلمه للإمامة ؟ أم بعد الحدث ؟ ما تضمنته من نصح ودعوة إلى نبذ التشاجر وتفصيل لمبادئ الولاية والبراءة والوقوف ترجّح صدورها بعد حصول خلاف في عهده ، كما أن خلوّها من تاريخ يحتار معه الباحث . أما تعمّد إخفاء أسماء المرسلين وعدم الإشارة حتى إلى أماكنهم فيزيد من الغموض الذي يكتنف السيرة . هل تكفي الإشارة إلى الخارجة على عبد الوهاب لترجيح أن مرسلي السيرة مغاربة؟ هل وصلت السيرة قبل وفاة محمد بن محبوب ت ٢٦٠هـ وقد أثرت عنه سيرة وجّهها إلى أهل المغرب فتعتبر جوابا ؟ أم وصلت بعد وفاته وتعليقا على حدث عزل الإمام؟ بحكم لقاء عمروس بن فتح بمحمد بن محبوب في مكة ونشأة أخوّة بينهما هل استمرت في شكل تبادل رسائل ومتابعة الأخبار في المشرق والمغرب؟ فيكون عمروس أحد المرسلين و قد عاصر إمامة الصلت وإمامة عبد الوهاب ؟ وماذا قصد الباروني في أزهاره بأنّه وقف على سيرة من أهل الدعوة الإباضية بالمشرق، وكتّابها مجهولون؟ حيث قال: (وقففت على رسالة من أرباب الصلاح والإصلاح من أهل الدعوة الإباضية بالمشرق، كتّابها مجهولون، أرسلوها إلى إمام عمان بتاريخ ٢٣٧هـ[تقريبا] ينصحونه فيها كما هو شأنهم في كل عصر... وهي طويلة تتجاوز عشرين ورقة، كلها مراشد وقواعد لشدّ دعائم الإمامة وحفظ هيكلها. واستشهد الكتّاب بحادثة النكار مع الإمام عبد الوهاب (وبهذه المنزلة كانت الخارجة على عبد الوهاب لاستحلالهم الخروج عليه بدعوى الشروط .. وقولهم نعزلك لأننا أصبنا من هو أعظم منك). ولذلك تبع الإباضية رأي الربيع في الإقرار بإمامة عبد الوهاب في المغرب وتخطئة النكار.

كل هذه الأسئلة تحتاج مزيد تمحيص وظهور أدلّة يرجّح بموجبها من مرسل السيرة ومتى؟

و مثل كثير من السير العمانية وردت هذه السيرة غير معروفة الكاتب ولا زمن التدوين ، وقد جاءت سيرة متأخرة (الخميس ١٤ شوال ٤٤٣هـ/ ١٠٥٢م) ، تنسب لراشد بن سعيد اليحمدي، كتبت بسوني (العوابي حاليا)، حاولت جمع الناس وتوحيدهم على أمر يتفقون عليه في قضية خلع الصلت والموقف من قادة الحرب الأهلية.

٣ - عرض فقرات سيرة بعض المسلمين إلى الإمام الصلت

- بدأت السيرة بديباجة توصي بالتقوى وبذل النصيحة وقبولها وتحذر من النزاع والتشاجر وتشير إلى الخبر الذي شغل القلوب من حصول التدابر وترك الائتلاف. فأوجب الأمور التآزر على إحياء الحق وأبغضها شق العصا ومفارقة الجماعة.(فلا تقطعوا بالبراءة ولا تعجلوا عجلة أهل الخرق).

- ثم ذكّرت بالاعتصام بحبل الله والعروة الوثقى والعهد الأوفى وأرشدت أنه لا براءة من أهل الولاية بقول عاميّ

- بعدها حذّرت السيرة من قول يفرّق بين المسلمين ويسمع لنزغ الشيطان المذهب للألفة والمفسد لذات البين، فلا تجب البراءة إلا من منتهك الكبيرة، والوقوف مما لا يدري المعاين حتى يدري.

- وأوضحت أن الشهادة إذا ثبتت انقطع الوقوف ، ثم تعرّضت لدار الإسلام تثبت بالعدل وتتحوّل بالجور ، وإذا عاب أهل الدار على الإمام فلا يخلع بذلك إلا أن يعجز عن إمضاء الحكم أو يصدر منه حدث موجب للعزل يستتاب وإلا يخلع.

- ثم مثّلت السيرة ببعض من خرج ونصب الرأي دينا وفارق الجماعة أمثال نافع ونجدة وابن الصفارفلو لم يجد كل ناعق بفتنة من يستجيب لبدعته لخمدت الفتنة، فالإباضية لم ينتحلوا هجرة ولم يعترضوا بسيف ولا غنموا مال أهل القبلة ولا سبوا ذريتهم.

- ويتكرر التحذير من تشتيت الأمر وتفريق الكلمة ، ثم تصرّح السيرة بما حدث للإمام عبد الوهاب والنكار، وظهور خطئهم وهو ما مضى عليه السلف مشرقا ومغربا. وتوضح حالة الوقوف وما يسع فيه.

- بعدها تبيّن السيرة هل الإمام حجة ؟ إذا قام بدين الله. وهل الحقّ حجة ؟ نعم من دعا إلى الحق من المسلمين فهو حجة. لذلك دعا أصحاب السيرة أهل عمان إلى الألفة والاجتماع، (فإنا حجة الله عليكم لكتابنا هذا إليكم فإن قبلتم فالحق قبلتم... ونسائلكم عن ما أقمنا به الحجة عليكم في ألفتكم وجماعتكم وإصلاح ذات بينكم).

- وقبل الخاتمة استشهد كتاب السيرة بعدّة أحاديث عن العلم وأهله وأن موت العالم ثلمة لا تسدّ .

- خاتمة السيرة (دعانا إلى الكتاب إليكم الودّ... والإشفاق عليكم وتخوفنا أن يقع بينكم ما وقع بين الخوارج قبلكم . وما أردنا إلا نصيحة لله ولكم .. فإنا نذكركم بالله واليوم الآخر ولا تعموا عن معرفة الولاية والبراءة .. اتقوا الله فيما ذكر عنكم، أن تطفئوه وتميتوه وتخفوه تلك سيرة أئمة الهدى وقد أبلغنا في النصيحة وما توفيقنا وإياكم إلا بالله هو حسبنا).

قال أبوسعيد الكدمي: (وإن كانت مقالاتهم قد اختلفت فإنّ مذاهبهم في ذلك قد ائتلفت ، فوجدنا أهل هذه المنازل الثلاث من أهل نحلة الاستقامة من الأمة لا يصح منهم ولا عليهم دينونة باطل .. تولى فريق موسى بن موسى وراشد بن النظر ، وتولى فريق الصلت بن مالك، وتوقف فريق ثالث في البراءة من الصلت ومن موسى وراشد).

• المبحث الثاني : قراءة في السيرة

تضمّنت السيرة جملة من النصائح و الإرشادات والتوجيهات للإمام الصلت ودعوة لإباضية عمان بالحفاظ على الإمامة، وإلى التآلف والتوحّد ونبذ الخلاف والشقاق، وتعرّضت لشروط الإمامة وأحكامها، ومسألة الخروج على الإمام ، وأحكام الولاية والبراءة والوقوف. وقد مثّل تبادل السير بين المشرق والمغرب وسيلة للتعاون في حلّ المشاكل ، وربط الصلات، ونشر العلم، وتبادل المصنفات، والتربية على سلوك نهج السلف، والثبات عليه، وتجنّب الخلاف. ومن أهمّ الدروس المستخلصة من هذه السيرة:

- التقوى ضمان لتنفيذ الأحكام الشرعية

إذا أصدر الإمام حكماً أطاعته الرعية،وقالت سمعاً وطاعة، وإن خرج معترض، فأغلق آذانك -

أخي المسلم- إذا كنت لاتستطيع إغلاق أفواه الآخرين، وإذا قابلت الإساءة بالإساءة فمتى تنتهي الإساءة ؟ (فمن عفا وأصلح فأجره على الله)

إنّ التنازع مرض يقرّ الجميع بحصوله، لكنّنا مأمورون بعلاجه، قال تعالى (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم)، وقال:(فأصلحوا بين أخويكم)، وقال (أو إصلاح بين الناس). ومن السنة قال عليه السلام: ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا)، فمن سعى في الإصلاح نقل عن هؤلاء إلى هؤلاء كلاما جميلا. فهل نضع حدا للبأس الشديد الذي بيننا ؟ وهل نجتمع قلوبا وأجسادا؟ لا يأس من هذه الأمة، لكن بالعمل لا بالتمني!

- الموقف من حدث عزل الإمام : خلْعُ الإمام الصلت من منصبه وتنصيبُ راشد بن النظر بدعم من موسى بن موسى كشف التركيبة القبلية للمجتمع العماني يمانية ونزارية وأبرز الصراع حول موجب عزل الإمام: لكبر سنّه، وعجزه عن تسيير الدولة، ولمّا أعقب ذلك حرب أهلية و نتج عنها انقسامات إلى رستاقية ونزوانية، تلاحقت السير تعبّر عن مواقف كل مدرسة.

- **الأسباب**

قال الإمام الصلت معلّلا اعتزاله في رسالة لأحد أتباعه

- (... إلى أن ذهب أهل الفضل وأهل العدل ونشأ اليوم شباب ظهرت رغبتهم في الدنيا وطلبوا الرياسة فيها)

حب الدنيا: يطمح الكثير إلى التصدّر والوصول إلى السلطة.

دعوى ضعف الإمام: لتبرير الخروج يدعي المعترض ضعف الإمام وعجزه عن تسيير شؤون الدولة

تغير الجيل: ذهاب الجيل المؤسس ونشأة خلف مضيّع للسيرة

النتائج :

انقسام الناس إلى ثلاثة :

- أمر بان لك رشده فاتبعه، فإذا علمت من شخص خيرا تولّه.
- أمر بان لك غيّه فاجتنبه، وإذا علمت منه شرا فتبرّأ منه.
- أمر أشكل عليك فكِله إلى الله، إذا جهلت حاله توقف فيه.

١ - جهود إصلاح ذات البين:

نعرض شواهد من السير الإباضية تؤكد مقاومة الحالقة للدين:

- أبو عبيدة وقضية الحارث وعبد الجبّار.
- حاجب وأهل حضرموت
- الربيع والنكار على عبد الوهاب
- محمد بن محبوب وأهل المغرب
- محمد بن عبد الله الخليلي والميزابيين حول الصوم

٢ – حقّ الاختلاف وواجب وحدة الصفّ

ربط علماء السير بين الولاء والكفاءة في الإمام وبين حكم تصرفاته بالولاية، والبراءة، والوقوف إن لم يتضح الأمر، أما الدعاة في عصرنا فيعدلون الموفي، ويجرحون الناقض، ويتوقفون في الملتبس.

(الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم بشرط الإخلاص،الورع،الصدق، السابقة، الخبرة، الاستشارة) .

لا يعني الاختلاف في الرأي ثلم عرى الأخوة بين المتناصحين ولا انفراط عقد المحبة بين الطرفين، بل تبقى الحقوق والواجبات قطعية ثابتة لا تصادرها مسائل الظن، ويزداد الصف صلابة

وقـوة. انصـر أخـاك: ثبـوت الأخـوة، النصـرة بحجـز الظالـم عـن خطئـه، وتقويـم عوجـه، ونصحـه والإنـكار عليـه . إن الاسـتمرار علـى الخـلاف وإثارتـه وتنميـة أسـبابه خيانـة وتعويـق للمسـيرة فـلا بـد مـن تضييـق حـدود الخـلاف وردم الهـوة والتقـاء القلـوب

٣ – ولـو اسـتعرضنا آثـار التآلـف ومخاطـر الشـقاق مـن خـلال نمـاذج مـن تاريـخ الإباضيـة فـي المشـرق والمغـرب لطـال الحديث لكـن يكفـي التذكيـر بواحـدة مـن السـير التـي أثمـرت رجوعـا إلـى الحقّ.

فقـد بعـث الشـيخ خميـس الشـقصي بامـر مـن الإمـام ناصـر بـن مرشـد سـيرة كجـواب مـن أهـل عمـان إلـى أهل المغـرب : (و بعـد فقد بلغتنـا عنكـم أخبـار أبكـت عيوننـا وضاعفت أحزاننـا و همومنـا، حيـث أخبرنـا بافتراقكم واختلافكم وشـق عصاكـم بعد ائتلافكم،.. فضاقـت مـن أجـل ذلـك صدورنـا وتكـدرت خواطرنـا رحمـة لكـم وخوفـا علـى دينكـم أن يختلسـه الشـيطان منكـم ويلقـي بينكـم العـداوة والبغضـاء فانتبهـوا وابتصـروا واعتبـروا... احـذروا أن يبدلكـم الشـيطان الشـك بعـد يقينكـم، ويسـلب الرحمـة مـن قلوبكـم ويلقـي الغـل فـي صدوركـم، فاحتـرزوا منـه واسـألوا الله العصمـة عنـه حمانـا الله وإياكـم مـن مكائـده ونجانـا مـن أشـراك مصائـده..)

الخاتمة

العبرة من السيرة وتلخيص النتائج :

- التواصل بين المشرق والمغرب لم ينقطع عبر القرون من القرن الثاني إلى الآن.

- تمثّلـت الصـلات بينهمـا فـي التالـي : المراسـلات المتبادلـة، المسـاعدات العينيـة والماليـة، الفتـاوى مـن العلمـاء، و مـن الأئمـة، الهدايـا (تبـادل الكتـب والمخطوطـات)، الزيـارات ، اللقـاءات فـي موسـم الحـج، القصائـد (تهنئـة وتعزيـة).

- أشـهر قضيـة ناقشـتها السـير العمانيـة هـي عـزل الصلـت والموقـف مـن الحـدث و فيهـا : – الدعـوة للتصالـح – الحـرص علـى اجتمـاع الكلمـة – عـدم التسـرع فـي البـراءة.

- إذا مر على قضية زمان فالأولى عدم الخوض فيما لا يعني.

- العفـو تجـاف عـن الذنـب والصفـح تـرك التثريـب واللـوم وهـو أبلـغ مـن العفـو (وليعفـوا وليصفحـوا

ألا تحبون أن يغفر الله لكم)

- - لا يبدر منك إلا القول الطيب (فاصفح عنهم وقل سلام) ما فائدة الغذاء إذا كان الجائع لا يأكله؟ وما فائدة الدواء إن كان المريض لا يشربه؟

- (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) كظم القربة ملأها وشدّ على رأسها مانعا من خروج ما فيها .

- الغيظ توقّد الغضب وشدّته فاعف عمّن أساء إليك من الناس وأمسك غضبك وكفّ عن إمضائه مع قدرتك عليه.

- (ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا)

- حديث (ثلاث أقسم عليهنّ: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزّا، ومن تواضع لله رفعه الله).

- انتظام الشتات المتناثر استجابة لداعي الله واستبصارا ببصيرة القرآن واهتداء بهدي الرسول عليه السلام واقتداء بالأسلاف.

- المعافى يزداد بمشاهدة البلاء إدراكا لقيمة العافية.

- اللبيب يعتبر بما يقع على غيره والغُمرُ من يكونُ مُعتبَرا لغيره.

- العلماء مسؤولون عن رتق فتق الأمّة، ورأب صدعها، وجمع كلمتها.

- الإخلاص مناط الخلاص في الدنيا والآخرة ومعقد النجاح في الأقوال والأفعال.

- قطع الطريق على سعاة الفتنة ورادة الشقاق ونزع السخائم من النفوس .

قال الأحنف بن قيس :

ما أقبح القطيعة بعد الصلة والجفاء بعد اللطف والعداوة بعد الودّ. لا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل، واعلم أنّ قطيعة الجاهل تعدل صلة

العاقل.

قال أبو خزر في رحلته لمصر مع المعز

أحـبّ لقـا الإخـوان فـي كلّ سـاعة	لأنّ لقـا الإخـوان فيـه المنافـــع
فيـــا ربّ فاجمـــع بيننا في ســـلامة	فإنّـك للخلـق المشـتّت جامـــع

ملحق :

- **قصيدة للشاعر: أبو مسلم ناصر بن سالم بن عديم الرواحي**

أفيقوا بني القرآن

ألا هـل لداعـي الله فـي الأرض سـامع

فإنّـي بأمـر الله يـا قـوم صـادع

أفيقـوا بنـي القـرآن إنّ كتابـــكم

يناقـض فـي أحكامـه و ينـازع

وليـت بنـي الإسـلام قـرّت صفاتهـم

فمـا زعزعتهـا للغـرور الزعـازع

وليتهـم لـم ينحـروا بسـلاحهم

نحورهـم إذ جـاش فيهـا التقاطـع

ومـا تـرك المختـار ألـف ديانـة

ولا جـاء فـي القـرآن هـذا التنـازع

فيـا ليـت أهـل الديـن لـم يتفرقـوا

وليـت نظـام الديـن للـكلّ جامـع

وما ذبح الإسلام إلا سيوفنا

وقد جعلت في نفسها تتصارع

وما صدعة الإسلام من سيف خصمه

بأعظم مما بين أهليه واقع

وما حرّش الأضغان في قلب مسلم

على مسلم إلا من النعي وازع

ولو نصح القلبان لم يتباغضا

ولا ضام متبوع ولا ضيم تابع

ولو بعدت في النفس منزعة التقى

لما نزعت نحو الشقاق المنازع

ولو أشربت منا النفوس تبصرا

لما كان منها للشرارة ناقع

و لو شملتنا الاستقامة لم نزل

لنا ألفة ترفضّ عنها المطامع

فما جمعوا ما فرّق الله جمعه

ولا فرّقوا في الدين ما الله جامع

على الله إحسان الخواتم إنّه

إذا شاء بين العبد والخير جامع

- **قصيدة القاضي سليمان بن ناصر الإسماعيلي الأبروي**

هـذا كتـاب شـريف صـادق الأثـر

فـي سـير المسـلمين السـادة الغـرر

قدفـاق فـي الشـرح تصنيفـا فليـس لـه

مثـل أتـى فـي أصـول الديـن والسـير

فهـو الدليـل هوالهـادي ونـور هـدى

ومعـدن الخيـر يـا ذاالسـمع والبصـر

كنـز مـن التبـر والإبريـز ليس بـه

زيـف يعـاب حيـن الذكـر والنظـر

وحبـذا مـن أصـول فيـه قـد سـويت

فـي قالـب العلـم قـد صحـت مـن الكـدر

مـن حـازه حـاز خيـرا لا فنـاء لـه

يـا طـالب العلـم هـذا خيـر مدّخـر

أبقـى و أنفـع مـن مـال ومـن خـدم

ومـن جـموع ليـوم هـائل عسـر

أدعـوك يـا ربّ أن تسـكن مؤلفـه

فـي مقعـد الصـدق فـي الجنّـات والنهـر

نعـم الكتـاب الـذي يسـمو بصاحبـه

يومـا إلـى الرتبـة العليـا بـلا نكـر

طوبى لمالكه طوبى لناسخه

محرّر الخطّ عبد الله في السطر

نسل سعيد الذي ازدانت بطلعته

إبرا وفاقت جميع السهل والوعر

المسكري الأبي المسقع الفطن

فاق البريّة من بدو ومن حضر

قد آثر العلم نسخا منه في كتب

لطالب راغب للعلم مذّكر

فبوركت من يد فيها الحمام لمن

عاداه والخير منها يهمي كالمطر

مني عليه سلام كلّما طلعت

شمس وما غربت والليل والسحر

أهدي إليه تحيّات يواصله

منّي سلام بعدّ الرمل والحجر

ثمّ الصلاة على المختار سيّدنا

محمّد المصطفى المبعوث من مضر

وقال الناسخ تأريخا لهذا الكتاب :

بتاسـع يـوم مـن ربيـع المؤخّـر
فرغنـا بحمـد الله ذي الكـرم الوتـر

وعـام مضـى بعـد الثمانيـن كمّـلا
ومائـة بعـد الألـف يـا صـاح فـي الدهـر

وبالجمعـة الزهـراء كان تمامـه
وفـي سـاعة المريـخ تـمّ بـلا نكـر

كتـاب سـما فـي الكتـب نـورا وحكمـة

بـه لألأ الإسـلام كالشـمس والبـدر

حـوى ديـن محبـوب وديـن بـن راسـب

وديـن ابـن عبّـاس النقـيّ مـن الكـدر

وأبنـاء محبـوب وصلـت وجابـر

وخالـد قحطـان المؤيّـد بالطيـر

تتيـه بـه القـراء فـي كلّ محفـل
وترنـو لـه الأبصـار بالعجـب والفكـر

ومـن لـي بتصنيـف يماثـل وضعـه
وهيهـات بحـر النيـل يـوزن بالزجـر

ومـن لـي بمخلـوق كمثـل ابـن ناصـر
سـليمان ربّ العلـم والحلـم والقـدر

كريـم إذا استوهبته جمـع مالـه يجـود
ولـو بالنفـس فـي العسـر واليسـر

ويغنيـك مـن فقـر إذا جئـت سـائلا
كمـا أحيـت الأمطـار مجدوبـة القفـر

ويحميـك مـن خـوف إذا جئـت هاربـا
كمـا حمـت الأنصـار أحمـد بالسـمر

ويلقـاك مـن دون الـورى متواضعـا
علـى وجهـه نـور البشاشـة والبشـر

تعـوّد بـذل الكـفّ مـن لـدن آدم إلـى
اليـوم لا يخشـى فـرارا مـن الفقـر

تبـوأ مجـدا فـي ذرى كلّ شـامخ
وحـلّ محـلّ البـدر فـي فلـك الغفـر

بذلـت لـه نصحـي ولله شـاكر
وللكتـب أجلاسـي وللقلـم والحبـر

وصليـت مـا دام الجديـدان دائمـا علـى
المصطفـى المبعـوث بالفتـح والنصـر

وقال الناسخ عبد الله بن سعيد المسكري يمدح الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي :

لـولا ابـن ناصـر محمـود الخصـال لمـا كـان للعلـم قـرّاء ونسّـاخ

أحيـا سـليمان ميـت العلـم مجتهـدا كمـا أحيـاه مـن الأدراس أشـياخ

قـد اصطفـاه مليـك العـرش خالقـه ومـا اعتـراه مـن الأوسـاخ أوسـاخ

مهـذّب الـرأي لا يبقـى علـى زلـل مصـوّب الفعـل عقّـاد وفسّـاخ

فأكـرم بـه رجـلا فاقـت فصاحتـه قيـس وكعـب وحسّـان وشـمّاخ

وفي الحروب جريء لايقاومه من الضراغم سرحان وشدّاخ

يفني للعداة ولايخشى قلى أحد يوم الكريهة ذبّاح وشدّاخ

أسدى إليّ جميلا لا أعدّده حتى غدوت من الإنعام بجّاخ

فما سواه من القرّاء ربّاخ وما سواي من النسّاخ مسّاخ

واتبع أقوم السير

احفظ تراثك واتبع أقوم السير وافخر بما خلّف الأسلاف من أثر

واصنع طريفا من الأحداث أو تالدا واسلك سبيل الهدى وانهل من العبر

اللّهمّ اغفر لنا و احفظ لنا مذهبنا وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

أسلافنا : جابر أزديّ بصرتنا سرداب مولى تميم طيّب الثمر

ثمّ الربيع العماني أسّ مسندنا إحسانهم شامل الآثار كالمطر

اللّهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

قاومت يا بن إباض جور عبد الملك مرداس شار قضى غدرا من الأخضر

أرسيت يا سالما ذكوان وحدتنا يا حاجبا جامع الأموال والبشر

اللّهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا وفقّهنافيه وأعنّا على إحياء سيرنا

واذكر عمان التي ضاعت مرابعها بالوفد من حاملي الآيات والسور

قام الجلندى بأمر الأمّة الحيوي مستقويا بهلال قامع الخطر

اللّهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا وفقّهنا فيه وأعنّاعلى إحياء سيرنا

نجل الرحيلي مع ابن النيّر الأزكوي ثمّ البشير فكنديّ قضى وطري

أصحاب جامعنا المشهور في وطني — من بسيوي بهلوي أو من كدم جعفر

اللّهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا — وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

لا تنس مغربنا المعطاء سابقه — بن سعد ثمّ ابن مغطير على الأثر

سدرات نفزاو عبد الأعل والرستمي — ثمّ ابن درّارَ وفد حامل الدرر

اللّهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا — وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

قام الإمام الرضيّ العادل الفطن — فاستأصل الفتنة العمياء من نكر

دالت لأفلح في تيهرت زاهرة — أمن وعدل وتجّار ذوي ثمر

اللّهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا — وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

يا حامل العلم كن مفتاح مغربنا — وانشر هدى سنّة المختار والسور

يسجا أبو مسور طاف الجزيرة — من حشّانها قاصدا قلالة التاغري

اللّهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا — وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

يا صاحبي مسلك العزّابة الباهر — نظّمتما حلقة الطلاب والسير

في الغار صاغ أبو عبد الإلاه لنا — مستوعبا رأي أشياخ ومعتبر

اللهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا — وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

بوخزر ثار على ظلم المعزّ فلم — يتركه بالمغرب الأدنى بلا خفر

بونوح ربّى خيار الجند فاستعصموا — بن يخلف صاحب المخزون من درر

اللهمّ اغفر لنا واحفظ لنا مذهبنا — وفقّهنا فيه وأعنّا على إحياء سيرنا

كتب السيِّر والطبقات عند الإباضية
الدرجيني وكتابه طبقات المشائخ أنموذجًا

أ. د. عيسى امحمد البجاحي
أستاذ محاضر بجامعة الجبل الغربي /ليبيا
issaalbjahy@gmail.com

موضوع هذه المشاركة وحسب العنوان الذي أعلاه، نجده ينطلق من خلال النقطة السادسة والتابعة للمحور الأول، المتمثلة في كتب السير والوعي بالتدوين، المنبثقة عن المحور الأول للندوة، الذي كان بعنوان مصادر كتب السيِّر الإباضية، كما يتفق ونقاط المحور الرابع، وما يحويه عن الفكر الإباضي في كتب السيِّر.

ومن البداية وقبل الغوص في خضم هذا الملتقى، وما جاء فيه من أفكار ومحاور وأهداف نبيلة، فلو تمكنا من تحقيق أحد أهداف هذه الندوة، ألا وهو وضع سياسة ناجعة، للعمل على تحقيق كتب السيِّر والطبقات الإباضية، التي لم تُدرس ولم تُحقق بعد، ووضع خطوات عملية ناجعة لإنقاذ ما تبقى من مخطوطات، سواء التي في المكتبات الخاصة أو العامة، و-التي لدينا خصيصا-، أما التي عند الغرب فلا أخاف عليها، وذلك نظرا لما جرى وللأسف أخيرا لمكتبة «تمبكتو»، التي اغتيلت وبأيدينا لا بأيدي غيرنا[1].

أما التوسع في المطالب، فقد يجعلها من باب الأماني، ومن الأماني ما هو بعيد المنال، التي مع الأيام قد تصبح سرابا...

من هنا كانت انطلاقة هذه الورقة التي لو بدأنا وبحثنا فيها ومنذ اللحظة الأولى، في

(١) لأن مكتبة تمبكتو الشهيرة والتاريخية، قد أحرقت من قبل أعداء الدين، والعلم، والثقافة، والتراث، أثناء أحداث مالي التي جرت في ٢٠١٢، ٢٠١٣.

تعريف لفظة سيرة: لوجدناها تعني الطريقة، وجمعها: سِيَر.[١]

والسيرة هي الطريقة، يقال سار بهم سيرة حسنة[٢].والسيرة هي الهيئة، ومنه قوله تعالى: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولَى}[٢٠ طه ٢١].

وأما السيرة في الاصطلاح: فهي العلم المتعلق، بحياة النبي صلى الله عليه وسلم، والمؤرخون يطلقون على هذه الدراسة: «علم المغازي والسيِّر»[٣].

ولو بحثنا عنها تاريخيا لوجدنا لفظة «السيرة»: السيرة النبوية كما يذكر المؤرخون، أنها ظهرت على لسان الوالي الأموي، خالد بن عبد الله القسري (ت: ١٢٦هـ)[٤]، عندما أمر ابن شهاب الزهري[٥] (ت: ١٢٤هـ)، أن يكتب له السيرة النبوية، قائلا له: اكتب لي النسب، فبدأ الزهري بنسب مضر، فقال له خالد: اقطعه قطعه الله، واكتب السيرة. ومنذ ذلك الحين أخذ اهتمام المسلمين، في الازدياد من كتابة السيرة النبوية الشريفة، فظهرت سيرة ابن إسحاق ومغازي الواقدي، وتواصلت المؤلفات في هذا المجال حتى تجاوزت كتب السيرة النبوية ثلاثين ألفمؤلف[٦].

وأهمية السيِّرة النبوية، تعود لمكانته الروحية والتعبدية عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، كما في قوله تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}[٣٣ الأحزاب ٢١]، وقوله تعالى: {وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}[٥٩ الحشر٧]، وسيرته واضحة للجميع، فهي كما يقول أحد المستشرقين: «إن محمداً - صلى الله عليه وسلم-، هو الوحيد الذي وُلِدَ على ضوءالشمس»[٧].

---

(١) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعة جي، دار النفائس، ص ٢٢٦.

(٢) لسان العرب ، مادة سير.

(٣) سيرة الرسول لابن هشام، المكتبة التجارية.

(٤) لم أعثر على ترجمته بعد.

(٥) محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري، (٥٨ . ١٢٤ هـ)، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي، من أهل المدينة، مات بالشام، الأعلام للزركلي، ج ٧، ص ٩٧.

(٦) سير الوسياني، ج ١، ص١٤

(٧) السيرة النبوية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان،١٩٩٨م، ص١٠.

ونحن هنا نتحدث عن السيِّر، فسِيرة سيد الكائنات والمرسلين، صلوات الله عليه وسلامه أولى بالبحث والدراسة، فعن طريقها يتم صياغة العقلية الإسلامية، الواعية المدركة لحقيقة الدين الإسلامي، ويمكن عن طريقها إعادة صياغة تاريخ الأمة، بناء على الأسس والقواعد، التي أسسها وأرساها -صلى الله عليه وسلم-. فسيرته كانت عبارة عن ترجمة للقرآن، كما وُصف هو بأنه كان قرآنا يمشي على الأرض، وفي محبته محبة لله، وذلك كما في قوله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} [٣آل عمران ٣١].

وسيرته العطرة، يمكن تناولها من خلال، مدارستنا للقرآن الكريم، وسنته الطاهرة، وحتى الشِعر المعاصر لعهد الرسالة، وكذلك كتب السيِّرة وما فيها من أخبار.

ففي القرآن الكريم نجد عن النبي، ما لا يمكن الإلمام به في مثل هذه العجالة من هذا البحث، فمثلا في قوله تعالى: {ألم يجدك يتيما فأوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى} [الضحى ٦- ٨]، وفي قوله: {وإنك لعلى خلق عظيم}[٦٨ القلم ٤]، وغيرها من القصص والحكايات التي جاءت في القرآن الكريم، الذي قال فيه مُنزِّله: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} [٦ الأنعام ٣٨]، إذ نجد فيه وبخصوصه -صلى الله عليه وسلم-، الكثير والكثير كما في قوله تعالى: {وَلَو كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ القَلْبِ لَانفضُّوا مِنْ حَولِكَ}[٢ آل عمران١٥٩].

والقرآن بصفة عامة كان أسبق من غيره في هذا المجال، فنجد فيه الأحاديث والقصص عن الأمم والرسل والأنبياء، من لدن أبينا آدم عليه السلام، ومن أتي من بعده حتى خاتم الأنبياء والرسل، سيدنا محمد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه[1]. أما ما في السنة بأنواعها الثلاث: القولية، والفعلية، والتقريرية، فحدث ولا حرج في ذلك.

أما الشِّعْر فبالرغم من قوله تعالى: {والشعراء يتبعهم الغاوون}[٢٦ الشعراء ٢٢٤]، فالرسول -صلى الله عليه وسلم-، اتخذ من الشعراء من ينافح عنه بالشعر، ويدفع عنه الأباطيل، وأولئك فهم ممن قد يشملهم قوله تعالى: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا} [الشعراء ٢٢٧]، فلكل سلاح ما يقابله في حالة الدفاع، ويجب أن يقابل بنفس السلاح أو بأمضى

(١) سيِّر الوسياني، ج ١، ١٩٧.

منـه، وسـلاح الكلمـة كان ولا يـزال لـه دوره وخطورتـه، كمـا نـراه فـي أيامنـا هـذه، فيمـا يُعـرف بوسـائل الإعـلام[1]، وخاصـة سـلاح الكلمـة، باعتبـار أن العـرب أمـة الفصاحـة، والشـعر، والبيـان، وأحيانـا رمـي اللسـان أشـد وأقـوى وأمضـى مـن السِـهام، كمـا يقـول المثـل: «فَلَكْـمِ اللسـان أشـد مـن لَكْـمِ السـنان»[2]، ومن هنـا كان ـصلـى الله عليـه وسـلم ـ لـه شـعراء ينافحـون ويدافعـون عـن الأمـة، ورسـالتها الخالـدة، أمثـال: حسـان بـن ثابـت[3]، وعبـدالله بـن رواحـة[4]، وكعـب بـن مالـك[5]، وكعـب بـن زهير[6]، والنعمـان بـن بشـير[7]، إذ كانـوا جميعـا يدافعـون وبقـوة، مـرة بذكـر مثالـب الكفـار، ومـرة بتعيِّرهـم بكفرهـم وعبادتهـم للأوثـان، ومـرة بهجوهـم، وغيرهـا مـن وجـوه الشّـعر وأغراضـه التـي كانـت تُسَّـخر ضدهـم[8].

أمـا كتـب السـيِّرة فكثيـرة ومتنوعـة، وهـي تمتـاز بالسـعة والشـمول، فمنهـا مـا هـو يختـص بالأخبـار والأحـداث، ومنهـا مـا هـو مختـص بالتحليـل والاسـتنباط، لأخـذ العبـر والـدروس، كالسـيِّر النبويـة لابـن هشـام، التـي شـرحها السـهيلي فيمـا أسـماه «الـروض الأنـف»، والسـيِّرة النبويـة لمصطفـي السـباعي، وفقـه السـيِّرة لمحمـد الغزالـي، ومحمـد البوطـي، ودراسـة السـيِّرة لعمـاد الديـن خليـل، وغيرهـم. كصاحـب كتـاب الطبقـات الكبرى»طبقـات ابـن سـعد»، بالإضافـة للطبـري وابـن كثيـر

---

(1) فالشاعر كان دوره بمثابة الإذاعة في عصرنا هذا، وما يتبعها من وسائل أخرى كالفضائيات و»النت» وغيره من وسائل الأعلام المتقدمة والحديثة.

(2) السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ١٦.

(3) بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد الصحابي، شاعر النبي صلى الله عليه وسلم، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كان شديد الهجاء، فحل الشعر، الأعلام للزركلي، ج٢، ص ١٧٥

(4) بن ثعلبة الأنصاري، أبو محمد من الخزرج، صحابي يعد من الأمراء والشعراء الرازجين، شهد العقبة، استخلفه النبي على المدينة في إحدى غزواته، الأعلام للزركلي، ج٤، ص٨٦

(5) بن عمرو بن القين، الأنصاري، من أهل المدينة كان من شعراء النبي، الأعلام للزركلي، ج٥،ص٢٢٨.

(6) بن أبي سلمى المازني، أبو المضرب، شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد، له ديوان شعري مطبوع، كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام، هجا النبي–صلى الله عليه وسلم–وأقام يشبب بنساء المسلمين، فهدر النبي دمه، فجاءه كعب، مستأمنا، وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول، فعفا عنه النبي، وخلع عليه بردته، وهو من أعرق الناس في الشعر، أبوه زهير وأخوه بجير وابنه عقبه، وحفيده العوام وكلهم شعراء، وترجمت لاميته إلى الإيطالية، الأعلام للزركلي، ج٥ ، ص٢٢٦

(7) بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، أبو عبد الله: أمير خطيب شاعر من أجلاء الصحابة، من أهل المدينة، شهد صفين مع معاوية، وهو أول مولود من الأنصار ولد بعد الهجرة، الأعلام للزركلي، ج٨،ص٣٦.

(8) سيِّر الوسياني، ج ١، ص ١٩٧.

وغيرهم[1]. وحتى معالم السيرة النبوية، لأحمد السيابي التي حاول فيها تخليص السيرة النبوية من بعض ما دُسَّ فيها، مما لا يليق لا بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا برسالته ولا بنبوته، كالذي يُرَوَّجْ بخصوص لقائه بالرهبان النصارى، مثل: «بحيري، ونسطوري»، أثناء رحلاته التجارية للشام مع عمه أبي طالب[2].

ولكن هنا أستغرب من شيخنا وأستاذنا الفاضل، الذي نُجِلّه ونُقدره، نستغرب منه أنه وفي نفس الكتاب الذي يحلل فيه ويصحح فيه، لمعالم السيرة النبوية، ينزِّه فيه العرب جميعا من التجاوزات التي كانت تقع في الحرب أو في غيرها، كما في قوله: «.. يُخِلُّ بالأخلاق فالعرب كانوا في حروبهم إلى الآن شرفاء»[3].

فوأد البنات الذي مُرِسَ في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ألم يرتكبه العرب، والتمثيل الذي حدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأكل كبد أحد صحابة رسول الله، ألم يكن من العرب، وما جرى من قِبَلْ عقبة بن نافع من تجاوزات، ضد البربر أثناء فتحه لشمال أفريقيا، وغيرها من المخالفات التي ارتكبها من يُنعتون أنفسهم بالفاتحين، ولا يجيزها الدين الإسلامي كالأحداث التي سطرها محمد دبوز في كتابه «تاريخ المغرب الكبير»، الذي يشيد به هو بنفسه في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موضع ألم يكن من العرب.

أما الذي يجري الآن في العراق وسوريا واليمن والصومال وحتى ليبيا وغيرها، أليسوا عربا فكيف نبرئ ساحة العرب جميعا وبدون استثناء وبجرة قلم، فإذا أردنا أن نُصحح سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتراث أمتنا الإسلامية من الشوائب، التي ترفع شعار لا فضل لعربي عن أعجمي إلا بالتقوى، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم، يجب أن نقول ما لنا وما علينا، ونكاشف أنفسنا قبل أن يكاشفنا الغير، ونأخذ بمبدأ لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها.

---

(١) نفسه، ص١٨ -٢٠

(٢) معالم السيرة النبوية، للشيخ أحمد بن سعود السيابي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، الطبعة الرابعة ٢٠١٣، ص ٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٤.

أمـا لـو فضّـل شـيخنا العـرب بمـا فضلهـم الله بـه، وهـو كمـا جـاء فـي قـول الشـيخ الدرجينـي فـي كتابـه طبقـات المشـائخ بالمغـرب: «.. إذ فضيلـة العـرب أفضـل وشـرفهم أقـدم فمنهـم رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم، وأصحابـه، وعلـى ألسـنتهم أنـزل القـرآن، ومنهـم كان أسـلافنا مـن الصحابـة والتابعيـن لهـم بإحسـان إلـى يـوم الديـن، ولـكل خصلـة مـن الفضـل، بحسـب عطـاء الله ويسـره لـه، والله يؤتـي مـن فضلـه مـن يشـاء والله واسـع عليـم»[1].

لأن الإسلام يجبُّ ما قبله، لقبلنا بما جاء به، وكنا مؤيدين له ودون تحفظ.

وذلـك لنقـدم الإسـلام بعيـدا عـن التعصبـات، ولنأخـذ بقولـه صلـى الله عليـه وسـلم للمهاجريـن والأنصـار: [دعوهـا فإنهـا منتنـة][2] ، ومعـذرة يـا شـيخنا لمـا ذكـرتُ، ولـم أعلـق وأحاجـج إلا مـن بـاب الثقةو المحبةالتي بيننا.

وعـود علـى بـدء فعندمـا تفرقـت الأمـة الإسـلامية فرقـا، وأصبحـت شـيعا وأحزابـا، اهتـم علمـاء ومؤرخـو كل مذهـب، بتراجـم علمائهـم، وعُرفـت كتـب التراجـم تلـك؛ بكتـب السـيرة أو كتـب الطبقـات.

فمـن هنـا كان للإباضية [3]الحـق[4]، فـي كتابـة تاريـخ وتراجم علمائهـم وفقهائهـم ومؤرخيهم[5]،

---

(١) طبقات المشائخ، مصدر سابق، ص ١٩.

(٢) حديث مشهور

(٣) الذين لو عدنا إلى تسلسل فقههم، لعاد بنا إلى ما قبل فترة تشكل أي مدرسة من المدارس الفقهية الإسلامية الأخرى، وبسبب جهل الدارسين لواقع الإباضية، جعلهم يعتقدون أنهم استمدوا فقههم من المذاهب الفقهية القائمة، وخير دليل على ذلك. هو وفاة أس مذهبهم الإمام جابر بن زيد، في التسعينات من القرن الهجري الأول، أي قبل وجود أي إمام من الأئمة الآخرين. المذهبي والتاريخي والنقدي في تيسير التفسير الإباضي، فتحي بوعجيلة، الطبعة الأولى ٢٠١٣، مطبعة JMS plus، ص ٢١، ٢٢، ٤٣٧.

(٤) الذين ليس لهم خلاف مع سائر فرق الإسلام، إلا في انتفاء الرؤية للباري عز وجل، ومسألة الصفات، والشفاعة لأهل الكبائر، وعدم الخروج من النار، ومسألة أحداث الصحابة، ولمن يريد التحقق من هذا وما فيه من مسائل، عليه بالكشف عن الإصابة في اختلاف الصحابة، لمحمد بن شامس البطاشي، مكتبة الضامري، عُمان، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ٨ وما بعدها.

(٥) الذين وكما جاء في كتاب حركة الخوارج للبكاي، وهو مما يعد شرفا لهم، ما نصه: «.. فيما كُتب للمجموعات الإباضية وحدها، أن تبني تنظيما محكما لنفسها، وأن تستمر في الوجود إلى يومنا هذا» وما استغربه في هذا المؤلف ومن صاحبه، ما نقله عن ابن حوقل، أن عبدالله بن أباض مات في جبل نفوسة، وهو ما لم اسمع به إلا في هذا الكتاب، والاستغراب الثاني هو إصراره على الخارجية والخوارج، وأن سلمة بن سعد، هو سلامة بن سعيد . حركة الخوارج، لطفية البكاي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص ٢٣٢، وصفحة الغلاف.

أسوة ببقية علماء الأمة ورجالاتها الأفذاذ[1].

لتدوين سيرهم وتتبع أخبارهم، لتنتفع الأجيال من بعدهم بتلك المآثر الجليلة، حتى ليتشوقوا إلى اقتفاء آثارهم، فجاءت كتب السيّر والطبقات، التي أوردت أسماءهم، وسجلت أخبارهم، وذكرت شمائلهم، وأبرزت علومهم ومآثرهم[2]

فنجد العديد من القضايا والشواهد، التي تُعد ذات أهمية، ولم يكن لها مكان، ولا مرجع يحفظها للأجيال اللاحقة، لولا كتب السيّر والطبقات؛ فمنها مثلا: قيام العزابة بمحاربة الانحراف وحماية مصالح الناس، فقد ذكر الوسياني، أن أبا يعقوب يوسف بن نفاث[3]كان يتفقد المزارع والطرق، فإذا شاهد من ألقى بها ضررا ضربه.

ومن تلك الشواهد كذلك، أنه إذا نزلت نازلة، قام رجل معروف ينادي في قرى الجبل يحذر الناس، وذلك لإعطاء الفرصة للشيوخ وللعزابة للتدبر فيها، خشية الفرقة والخلاف.

وتروي المصادر أن عزابيا لا تذكر اسمه، كسر معزف امرأة كانت تغني في أحد الملاهي؛ ويضيف أن العزابة، زجوا برجل في السجن، بسبب تماطله في تسديد دين عليه، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن دفع ما عليه، وكان العزابة يوبخون السكان، عند صدور عمل قبيح منهم، فقد ذُكر أن عزابيا من أهل «أولتجام»[4]، يدعى أبو موسى، قال: أهل «دجي»[5] كلهم رجالهم ونساءهم مستحقون للحبس والسياط، إلا محمد «ورسفلاس» وأمه.

---

(١) الذين وكما جاء في كتاب حركة الخوارج للبكاي، وهو مما يعد شرفا لهم، ما نصه: «.. فيما كُتب للمجموعات الإباضية وحدها، أن تبني تنظيما محكما لنفسها، وأن تستمر في الوجود إلى يومنا هذا».

(٢) سير الوسياني، ج١، ص ١٤

(٣) من جملة مشائخ أهل الدعوة، من تيمجار بجبل نفوسة ، عاصر الشيخ سعيد بن زنغيل، وأبا عبدالله محمد بن بكر، تبوأ منزلة رفيعة هامة بين معاصريه، فكانوا يرجعون إليه للفصل في مسائل الخلاف، روى عنه أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، له فتاوي ومراسلات، قتل في معركة درجين في ٤٤٠، لما استباحها عامل المعز بن باديس، وأباد أهلها، إذ استشهد معه محمد بن سردين، وعبدالله بن أم أبان. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٤٩٤

(٤) في سير الشماخي»أتلجام»، وهي بلدة في الجهة الغربية، من جبل نفوسة، قرب شروس، في جهة دجي . تنزغت. كتاب السير، لأبي العباس بن أبي عُثمان سعيد بن عبد الواحد الشماخي، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، ج ٣، ص ٨٢٥.

(٥) دجي قرية كانت في موقع بشمال الحرابة، تقع بجوار قرية البدارنة الحالية

ومن تلك الشواهد أيضا: أنه لما تجرأ أحد أعيان «إكراين»[1]، وطعن في العزابة جعلوا السلسلة في عنقه عقابا له؛ وقد تتعدى العقوبة إلى مقاطعة بعض القبائل، فالمصادر تذكر أن الشيوخ منعوا التعامل مع ثلاثة قبائل، من بني غمرة وبني ورسفان وبني ينجاسن، لأنهم أكثروا من الغارة وأعمال الغصب، وكان العزابة يمنعون الوفادة على العمال الجورة، وقد أُخرج رجل يدعى عبد الله بن جابر إلى الخطة، لاتصاله بأمراء مدينة قابس، فالشيوخ يقولون: «إذا رأيتم العالم يمشي إلى أبواب السلطان فاتهموه على أمر دينكم».

كما نجد أن العزابة يتدخلون في كثير من القضايا والأمور التي تهم الأمة، وذلك تجنبا للخلاف، فعندما اشتهر طلوع هلال شوال في الجبل، أكل البعض وأمسك البعض الآخر، خرج أبو هارون التملوشاني[2]، ليرغم على تمادي في الصوم بالإفطار.

ومن تلك الشواهد أن العزابة كانوا يمنعون أهل الدعوة من الاطلاع وقراءة كتب أهل الخلاف، فقد عاقب العزابة رجلا يدعى «عبدالله بن عيسى يوسف»، عندما علموا بأنه يقرأ كتاب لأهل الخلاف، عنوانه: «كتاب الأشراف على مسائل الخلاف».

ومما نقلته لنا كتب السيِّر، ويدل على اهتمام علماء الإباضية بالعلم ومصادره، أن السبب الذي عجل سفر أبي محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي، إلى قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط، هو أن رجلا يدعى سليمان بن مدرار النفوسي، أخبره بأنه عثر على تفسير القرآن لعبد الرحمن بن رستم، يباع في سوق القلعة، فسافر من أجل الظفر بهذا التفسير واقتنائه ليستفيد منه[3]، فلننظر للتصميم والحرص على العلم في ذلك الوقت.

ولولا السيِّر وما جاء فيها، ما أدرانا أن النصرانية لا تزال في الجبل حتى عهد أبي منصور إلياس، إذ جاء في كتاب المزهودي نقلا عن سير الوسياني، ما نصه:

---

(١) وادي إكراين يقع في كاباو. الإباضية في موكب التاريخ، علي يحي معمر، ج ٣، ص ١٧٥

(٢) جد العائلة البارونية، التي يدعي بعض الجهلة والمتزلفين، كصلاح الدبلي الذي ذهب لعمان، ليصرح أمام طلبة معهد القضاء هناك بأن أصلهم من البروانيين من عُمان، فنحن لا نفرق بين العمانيين والنفوسيين في هذا، وما الذي يضيره الباروني سواء أكان عمانيا أو جباليا ففي النهاية فهو نفوسي إباضي، والله تعالى قال: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}

(٣) ٤١٣.جبل نفوسة، للمزهودي، ص

«وقد ثبت وجود العديد من الكنائس، منتشرة في العديد من قرى الجبل، ويكفي أن نقول إن أبا منصور إلياس أحد مشاهير الجبل ووالي الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح، كان نصراني الديانة، أضف إلى ذلك أن الزواج من النصرانيات كان شائعا في الجبل.

بالإضافة إلى هؤلاء هناك طبقة من العبيد الذين يستعملون كخدم في المنازل والمزارع، ولم يكن العبيد من بلاد السودان فقط، بل فيهم من الروم، وقد عامل النفوسيون هؤلاء العبيد معاملة حسنة، فعملوا على تعليمهم ونشر الإباضية في صفوفهم. فقد ذكر أن إماء نفوسة إذا خرجن للحطب لا يرجعن حتى يتذاكرن جميع مسائل كتاب ماطوس، وكان يسمح لهن حضور المجالس العلمية.

فالمصادر تورد إصرار آمة تدعى «غزالة»(١) على التعلم، إذ كانت تخدم مولاها بالنهار، وفي الليل تلتحق بمجلس أبي محمد عبدالله بن الخير؛ ولا يعني هذا أن العبيد كانوا ميسوري الحال، أو كان أغلبهم ممن حظي بالتعليم، فقد اشتكى عبد رومي عمروس بن فتح(٢) - قاضي الجبل في ولاية أبي منصور إلياس - قائلا له: «يا مولاي فما يبلغ فينا أن تأكلوا القمح ونأكل الشعير، وتلبسوا الكتان ونلبس الصوف»(٣).

كما نجد من العادات الحسنة التي يعتقد أن العزابة، هم الذين سنوها، هي أن الجائع كان يغلق بعض بابه، ويترك الباقي، حتى يلفت انتباه الميسورين فينفقوا عليه(٤)، وهذا من باب

---

(١) غزالة السودانية، حسب فهمي وحسب ما ورد في معجم أعلام الإباضية، فهي أم عبد الله بن الخير الونزريفي أبو محمد، من تين ونزيرف. التي وردت في المعجم «تين ورزيرف». وهو تصحيف، أخذ العلم عن أبي ذر أبان بن وسيم الويغيوي النفوسي، وبرع حتى كان من شيوخ وقراء نفوسة، كان حاكما، وله حلقة علم ومجلس ذكر، وممن حضره أمه السودانية: غزالة.

(٢) المساكني النفوسي أبوحفص، ولد في طريق الحج، ونشأ في قرية قطرس بجبل نفوسة، عاصر الإمام أبا اليقظان محمد بن أفلح، صار أعلم أهل زمانه، وعُرف بالحفظ والاجتهاد والمعرفة والدراية. تولى القضاء بجبل نفوسة في ولاية أبي منصور إلياس ، في أواخر أيام الدولة الرستمية، وإليه يرجع الفضل في إنقاذ مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخرساني، التي اتهم فيها من قبل صاحبها بالسرقة. كان محظيا بقرب الشيخ محمد بن محبوب بالحجاز، من مؤلفاته «الدينونة الصافية»، الذي حسب قول النامي، يعد أول مؤلف يذكر مصطلح الإباضية في المغرب الإسلامي، توفي في ٢٨٣ هـ. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٣٢١.

(٣)جبل نفوسة ، للمزهودي، ص ٤٢٨، ٤٢٩.

(٤) ولقد وجدت أهل ميزاب في زيارتي لميزاب في ١٩٩٩، إذ وجدت الشيخ عدون رحمه الله، لا يزال حيا ويشرف شخصيا على تلك الصدقات، وقد طورت لطريقة أسلم، فيها أمان من حيث عدم ترك الأبواب مفتوحة، وفيها حفظ ماء الوجه، لعدم حضور المحتاج أو المتسول شخصيا، فكانوا في الجامع العتيق بالقرارة، يأتون المتصدقون بما لديهم من صدقات إلى المسجد، ويأتي أصحاب الحاجة بقفافهم، فيتم قبل الغروب من كل يوم في رمضان، بقسمة ما أحضر من زاد أو صدقات على تلك القفاف، وذلك أسلوب حضاري راقي وجميل.

التكافل الاجتماعي[1]. فذلك بعضا مما حُفظ لنا من قبل تلك السيِّر، التي نحن في صدد دراستها.

أما لو توقفنا عن كتب السيِّر والطبقات لبرهة، والتفتنا لما أُلف من قبل علماء الإباضية في غيرها من العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه وأمثالهما، لوجدنا أنفسنا في خضم بحر لجيٍّ، تتلاطمه أمواج تلك المؤلفات، التي سطروها وتركوها لنا ومنذ قرون أولئك الفطاحلة، فتجد منها مثلا ما يفوق في حجمها التسعين جزءا، ومنها ما يفوق عشرة آلاف صفحة وهي من المنظوم، أما لو حاولتُ ذكرها أو عدها أو ترتيبها، لأجحفتُ في حق أصحابها، ولكن ومن باب التمثيل لها، نجد كتاب (قاموس الشريعة للشيخ) جميل بن خميس السعدي، وهو في تسعين مجلدا، «وبيان الشرع» لمحمد بن إبراهيم الكندي، وهو في اثنين وسبعين مجلدا، و»منهج الطالبين وبلاغ الراغبين» لخميس الشقصي، الذي قال في مقدمته «.. فإني لما رأيت العلم قد قلَّ طالبه، وتقاصر أكثر الناس عن الرغبة فيه، وَكَلّتْ الهمم عن الوصول إلى مقامات السلف الماضين، وعجزت عن درك مقاصد السابقين ـ استعملتُ خاطري في تصنيف مختصر، أجمع فيه معالم الشريعة وأنظِّم فيه شتات الفقه، وأبيِّن أصله وفروعه، وأجعل مسائله مشروعة مجموعة، متجاوزة متتابعة.

فجمعتُ فيه بغاية الإيجاز الذي لا يكون معه ملال، واختصار لا يزري به إقلال ولا إخلال، وسميته (منهج الطالبين وبلاغ الراغبين)[2] ، ولأهمية هذا الكتاب، فقد تلقفه الشيخ عبد العزيز الثميني[3]، واختصره في كتاب أسماه «التاج المنظوم من درر المنهاج المعلوم»، الذي طبعته مشكورة وزارة التراث القومي في عمان، في طبعته الأولى سنة ٢٠٠٠م في سبعة مجلدات. ونجد(سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب)، لمحمد بن شامس البطاشي، وهو

(١) فتلك هي بعض الشواهد التي نجدها جديرة بالذكر والنقل، وربما تكون قد ذهبت مع أصحابها، لولا كتب السير التي احتفظت لنا بها، والتي جمعها لها مسعود المزهودي في كتابه جبل نفوسة، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ٤٢٦، ٤٢٧، الذي قد نلوم عليه في عودته لمخطوط سير الوسياني، مع صدور الكتاب وهو محقق من قبل زميله، عمر بوعصبانة، في ٢٠٠٩ وهما جزائريان، وقد يلتمس له العذر لقرب المسافة الزمنية، فسنة واحد لا تكفي في مثل هذه الأعمال ولذلك فله العذر.

(٢) منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي، مكتبة مسقط، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ج ١، ص ١٧.

(٣) الملقب بضياء الدين، وهو من بني يزقن بميزاب ولد ونشأ بها، كلف في ١٢٠١ هـ بمهمة مشيخة العزابة، من مؤلفاته «التاج على المنهاج» وهو في ستة وعشرين جزءا، وكتاب النيل وشفاء العليل، الذي شرحه الشيخ اطفيش في ١٧ مجلدا، وغيرها من المؤلفات معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٢٥٥..

فـي عشـرة مجلـدات وهـو منظـوم، ونجـد كتـاب الإيضـاح للشـيخ عامـر بـن علـي الشـماخي، الـذي يعـد مـن دعائـم الفقـه الإباضـي، وقناطـر الخيـرات لأبـي طاهـر إسـماعيل الجيطالـي النفوسـي، الـذي جـاء عنـه فـي طبقـات الدرجينـي الـذي اتخذنـاه كنمـوذج فـي هـذه الورقـة، مـا نصـه: «هـو حجـة الإسـلام الإمـام أبـو طاهـر إسـماعيل بـن موسـى الجيطالـي النفوسـي»[1]. ونثـار الجوهـر فـي علـم الشـرع الأزهـر للشـيخ ناصـر البهلانـي، الـذي لـم يُكتـب لـه مـن تأليفـه سـوى أربعـة مجلـدات، وشـرح النيـل للشـيخ اطفيـش وهـو في ١٧ مجلـد، وغيرهـا مـن الموسـوعات والمؤلفـات التـي لا يتسـع المقـام لسـردها، ولا تـزال مخطوطـة وهـي تنتظـر أيـادي المخلصيـن والحريصيـن علـى تـراث الأمـة الإسـلامية، كموسـوعة ديـوان الأشـياخ[2] وديوان العزابـة وغيرهمـا مـن المؤلفـات التـي يجـب أن نسـتحث أنفسـنا علـى إظهارهـا للوجود إن شاءالله.

أمـا فيمـا يخـص موضـوع هـذه الورقـة، والمعنـون بالسـيِّر والطبقـات عنـد الإباضيـة، ومـا يتبعـه فـي العنـوان المتواضـع والمذكـور أعلاه.فقضيـة السـيِّر وموضوعهـا المنشـود، قـد يتحقـق ولـو نسـبيا، مـن خـلال العمـل بالوقـوف علـى بعـض، ممـا سـطره فـي هـذا، العديـد مـن أولئـك الجهابـذة السـابقين السـباقين فـي ذلـك، أمثـال: أبـي زكريـاء يحـي بـن أبـي بكـر الوارجلانـي، وكتابـه السـيِّر وأخبـار الأئمـة، وأبـي الربيـع سـليمان بـن حسـان الوسـياني، وكتابـه سـيِّر الوسـياني، ومقريـن بـن محمـد البغطـوري النفوسـي، وكتابـه سـيِّر نفوسـة، وكتـاب المعلقـات لمجهـول[3]، وأبـو العبـاس أحمـد بـن سـعيد الدرجينـي، وكتابـه طبقـات المشـائخ بالمغـرب، وكتـاب السـيِّر لأبـي العبـاس أحمـد بـن أبـي عثمـان سـعيد الشماخي[4].

وحسـب مـا جـاء فـي عنـوان هـذه الورقـة؛ فالدرجينـي وكتابـه طبقـات المشـائخ، هـو بمثابـة

(١) قناطر الخيرات ، لأبي طاهر الجيطالي، دار النهضة، عمان، الطبعة الثانية ١٩٩٨، ج ١، ص ١.

(٢) فهذه الموسوعة التي ألفت منذ عشرة قرون، وبطريقه جماعية، إلا أنه وللأسف لم يتم تحقيقها حتى اليوم

(٣) كتاب المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، مخطوط حققه الطالب سليمان بن إبراهيم بابزيز ، وهو في سيِّر الإباضية، يشبه في منهجه وأسلوبه الوسياني إلى حد بعيد. سير الوسياني، ج ١، ص ١٨٨

(٤) بالإضافة للعديد من العناوين التي منها ما وصل إلينا، ومنها ما لم يصل، بسبب بوائق الدهر وعاديات الزمن، أمثال: سير أبي سهل إبراهيم، وسير أبي نوح صالح بن إبراهيم، وسير أبي القاسم البرادي الدمري، المعروف بكتاب «الجواهر»، وسير أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، وكتاب المغرب في تاريخ المغرب، لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، الذي يعتقد أنه في بعض مكاتب أوروبا التي يرقد فيها العديد من الكتب والمخطوطات التي نجدها تستغيث ولا مغيث.

مربط الفرس، في هذه الورقة أو المشاركة، وهذه الكتب التي تُبَوْبْ تحت خانة كتب السِيِّر، فهي مكملة بطريقة أو بأخرى، لما ذُكر في التمهيد، الذي تناول سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذه المؤلفات حاول أصحابها استدراك ما لم يكن، في كتب سيرة النبي، أو ما سقط منها، أو ربما بدأ من حيث انتهوا أولئك السابقين، حسب عصورهم وتسلسلهم، الذين نجد لهم السبق، في جمع ما له علاقة بسيرة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، لأن كتب السيرة وما يتبعها، بدأت بشخص النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أصحابه وتابعيه وتابعي تابعيه، وها لموا جرى..، كما هو الحال عند المتقدمين، كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وكتاب حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيّر النبي المختار، لوجيه الدين الشيباني وغيرهم، أمثال: أبان بن الخليفة عثمان[١]، وعروة بن الزبير[٢]، وعاصم بن قتادة، وعبدالله بن أبي بكر الأنصاري، وابن شهاب الزهري[٣]، ومحمد ابن إسحاق بن يسار، وابن هشام محمد بن عبد الملك، صاحب كتاب الطبقات الكبرى[٤].

فهذه الكتب التي أشرنا إليها هنا، أو التي سبقتها في الذكر وهي تمثل سيّر الإباضية، وتذكر طبقات علمائهم، فهي في مجملها تشمل الصحابة والتابعين، ومن تلاهم من الرواة والمحدثين، والقراء والفقهاء والمؤرخين، نهيك عمن كانوا حول الرسول- صلى الله عليه وسلم-، ممن كانت لهم أدوار وخطوات بارزة، سجلها المؤرخون والمتتبعون، وأصحاب السيّر السالفة الذكر.

ومن هنا فلنعرِّج على من ذكرناهم فيما سبق من هذه الورقة، بخصوص سيّر وطبقات الإباضية وكتبهم، ليتضح لنا الأمر في ذلك من خلال ما يمكن تتبعه في طيات هذه العجالة.

ولنبدأ في هذه السلسلة بأبي زكرياء الوارجلاني، وكتابه السيرة وأخبار الأئمة.

---

(١) من أوائل من كتب في السيرة وهو من الرواة الثقات، ومن فقهاء المدينة وأهل الفتوى. السيرة النبوية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، عمان، ص١٨.

(٢) بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله، أحد الفقهاء السبعة، وهنا لا يقصد الفقهاء السبعة أصحاب ديوان الأشياخ، وإنما الفقهاء السبعة المشهورين بالمدينة المنورة، لم يدخل في شيء من الفتن، وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر. الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ٢٢٦.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) إمام في النحو واللغة، وإليه انتهت سيرة أبن إسحاق، ويعد السهيلي أشهر من قام بشرح سيرة ابن هشام في كتاب اسماه «الروض الأنف». السيرة النبوية ، سلطنة عمان، مصدر سابق، ص١٩

فهو أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني[١]، المتوفى بعد ٤٧٤هـ ١٠٨٠م ، أخذ جل معلوماته عن شيخه، أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي[٢] المتوفى سنة ٤٧١هـ١٠٧٨م، في وادي أريغ، بوارجلان، الذي انتقلت إليه النهضة العلمية، بعد سقوط الإمامة في تاهرت، لكونه كان حلقة وصل بين غانا وتاهرت والقيروان، إذ كانت وارجلان مسبكة الذهب في ذلك الحين[٣].

ويعد كتابه السيِّر وأخبار الأئمة، من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإباضي بالمغرب، من لدن انتشار المذهب فيه، دارسا قيام الدولة الخطابية بطرابلس في ١٤٠هـ/٧٥٧م، إلى سقوطها على يد محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م، وقيام الدولة الرستمية بتاهرت، من سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، إلى سقوطها على أيدي العبيديين الشيعة، سنة ٢٩٦ه؟/ـ/ ٩٠٩ م[٤].

كما يقدم لنا هذا الكتاب، الوضع عن أحوال الإباضية، في الحزام الأوسط للمغرب الكبير: أريغ ودُمَّر وأسوف ووارجلان وبادية بني مصعب، وكذا أحوال الإباضية في جربة وجبل نفوسة وغيرها من المناطق.

كما اهتم بالثورات التي حدثت بين الإباضية والشيعة، وخاصة ثورة الشيخين أبي القاسم يزيد بن مخلد[٥]، وأبي خزر يغلى بن زلتاف الوسياني[٦]، وثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد اليفرني تحديدا.

---

(١) هو أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني، المتوفي بعد ٤٧٤هـ ، ١٠٨١م، من وارجلان، صاحب كتاب السير وأخبار الأئمة، سيرة الوسياني، ج ١، ص ١٨٤.

(٢) الوسلاتي النفطي القابسي، أخذ العلم عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن بكر النفوسي، من زملاه في الدراسة، السيخ ماكسن، وهو من أكابر العزابة، له العديد من المؤلفات. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٢١٥.

(٣) سير الوسياني، ج ١، ص ١٨٤.

(٤) نفسه، ص ١٨٥

(٥) من مزاتة بني يفرن، سكن قلعة سدادة «تقيوس» ، ولد ٢٧٠هـ ببلاد السودان، أخذ عن أبي عمار الأعمى النكاري، له حركة قوية حتى حاصر المدية، ولكن قضى عليه إسماعيل بن القاسم الفاطمي، سنة ٣٣٦هـ. كتاب السير للشماخي، ج ٣، ص ١٠٥١.

(٦) أبوخرز ، من كبار علماء الإباضية، أخذ العلم عن أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٤٧٧.

كما نجده متحدثا عن أخبار أبي عبدالله محمد بن بكر ونظام العزابة[1]، ويعد الكتاب من أهم المصادر بالنسبة لهذا النظام، لقربه منه زمانا ومكانا، توجد منه نسخة مخطوطة في الهيئة العامة للكتاب بمصر، تحت رقم ٣٠٩٠ح، في جزأين، وقد أولوه الأوربيون أهمية بالغة، فهربوه إلى أوربا، وترجموه، وذلك عندما أراد الاستعمار معرفة أحوال أهل المنطقة، إذ عمد إلى تهريب العديد من المخطوطات، للتعرف أيضا على لهجات المجتمع وقبائله وهويته، حتى يتمكن من توسيع الهوة بين أفراده، مستغلا النعرات القبلية والفروق اللغوية[2].

فهذا الكتاب نظرا لأهميته تم تحقيقه عدة مرات، وخاصة من البلونيين، كأميل ماسكري الفرنسي الجنسية، وسموجورز فسكي، وتاديوس ليفتسكي البولنديان، ويُذكر أن مؤلف الكتاب قد وقع أسيرا في يد إبراهيم بن الأغلب[3].

أما العالم الثاني الذي ذكرناه فيما مضى وأشرنا إلى كتابه. فهو أبو الربيع سليمان بن عبدالسلام بن حسان الوسياني، وكتابه سيِّر الوسياني، من أرض الجريد ببلاد تونس، الذي يرجعه صاحب كتاب نجع الذهيبات وجيرانه، محمد بوزراره، أثناء حديثه عن الجبل الأبيض بتطاوين، وذلك حسب ما نقله عن ابن خلدون حسب قوله، إلى قبيلة بني وسين العريقة، التي لعبت دورا سياسيا وحربيا فعالا، منذ فجر العصر الوسيط وحتى أواخر الدولة الفاطمية، التي برز منها القائد التاريخي يزيد مخلد بن كيداد الوسيني، المعروف بصاحب الحمار، وفيه من ينسبه لقبيلة زناته البربرية، ومنهم من ينسبه إلى بني يفرن[4]،وصفه الدرجيني في كتابه الطبقات بأنه: «أحد شيوخ الحلقة الكبار، الحافظ للسيِّر والآثار، المروي عنه التواريخ والأخبار، لم تفته سيرة لأهل الدعوة في كل الأعصار، وجملة أوصافه باختصار، إنك مهما وجدت رواية قديمة عن أبي

---

(١) فهذا النظام الذي سبق بنظام الحلقة، الذي يعد هو الأساس في انطلاق الحركة العلمية بعد تيهرت، فقد ظهر لنا من جديد علماء أجلاء عندما كون الحلقة أبوعبدالله في ٤٠٩ هـ، في ذلك الغار التسعي، ولكن ما يجب أن ننتبه إليه، هو ما وقع فيه سهوا أستاذنا المزهودي، من أن تلك العلق أنجبت لنا علماء أجلاء أعجب بهم الإمام عبد الوهاب واستنجد بهم لمناظرة واصلية تاهرت، أمثال: مهدي النفوسي، وأيوب بن العباس ومحمد بن يانس، وأبو الحسن الأبدلاني، فهؤلاء كانوا في عهد الدولة الرستمية، والحلقة ونظام العزابة ظهرا في القرن الخامس، وهذا للتنبيه، ينظر جبل نفوسة للمزهودي، ص ٣٩٥.

(٢) سير الوسياني، ج ١، ص ١٨٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٤) التخوم التونسية الليبية عبر التاريخ، نجع الذهيبات وجيرانه، محمد بن بوزرارة، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص ٣٠٥.

الربيع فهو راويها عن شيوخه الكبار»، كما زكّاه بذلك البدر الشماخي، في كتابه السِّيَر، نقلا عن الدرجيني، وهو من علماء النصف الأول من القرن السادس الهجري.

وكتابه السِّيَر أي سِيَر الوسياني، يعتبر من المراجع المهمة، والمصادر الفريدة القيمة، فعنه أخذ الكثيرون، وهو المعتمد لمن جاء بعده في السِّيَر والتاريخ، بالإضافة إلى أنه ذخيرة فقهية، حيث يورد في ترجمة كل عالم، أفكاره العقدية وآراءه الفقهية، والمسائل التي ينفرد بها، مما يجعلنا نجزم قائلين: بأنه يوجد فيه ما لا يوجد في غيره من المسائل العقدية والفقهية[1].

وكتابه السِّيَر في حاجة، لمن يشمر من شبابنا المخلص عن سواعده، ليستخرج منه ما يوجد فيه مما سطره فيه صاحبه من ذخائر عقدية وفقهية، لا زالت تنتظر أصحاب القدرة على التحليل والتوضيح لاستخراجها، ليستفيد الخلف مما تركه السلف الصالح، وبذلك قد يكمل ما بدأه أخينا عمر أبوعصبانة من مجهودات، الذي قام مشكورا بتحقيق ذلك السفر الثمين، الذي نجده أثناء وبسبب بحثه عن أصول سِيَر الوسياني، استطاع أن يكتشف العديد من الكنوز، التي كانت مخبأة في خزائن روسيا وغيرها من الدول الأوربية[2]، وهو ما يستحث الجميع على دراستها وتحقيقها ووضعها في مكانها المناسب، ليستفيد منها العلماء والباحثين، لكي لا تضيع جهود أولئك العلماء في أدراج الرياح، بسبب إهمالنا وتقصيرنا نحن أبناء هذا الجيل، رغم توفر الإمكانيات والظروف المواتية، إذا ما قيست بما كانوا عليه أولئك العلماء الأفاضل الكرام، في تلك العصور الغابرة.

وهذا الكتاب أي سِيَر الوسياني، له أهميته ومكانته، وذلك لعدة أسباب منها :

- كون الكتاب يشكل حلقة، تكمل سلسلة كتب السِّيَر لدى الإباضية، حتى تتضح

---

(1) سير الوسياني، ج1، ص ١٨، ١٩.

(2) إلا أنني لا أتفق معه فيما ذكره في مقدمة تحقيقه، بخصوص الرغبة الجارفة لاسترداد ما ضاع من التراث الإسلامي من ديار الغرب، ج ١، ص ٢٢، فهنا ومن باب الواجب، يجب ألا ننكر فضل بعض أهل الغرب، في حفظهم لمعظم ما وقع في أيديهم من مخطوطات التراث من الضياع، بسبب الجهل الذي أصاب منطقتنا في الفترة الأخيرة، مما كان سببا في التبرم الذي نلاحظه، بخصوص عدم الاكتراث المفرط نحو تراثنا وثقافتنا، فالغرب حافظ على ما وجده من ذلك التراث لا حبا فيه، ولكن من باب معرفة أهميته وقيمته العلمية ، وهو ما جعلهم ينقلون كل ما وجدوه في المنطقة، أثناء فترة الاستعمار البغيض والعمل على حفظه وتصنيفه، حتى أتى الوقت المناسب للبحث فيه، وذلك ليس بالأمر الهين.

الرؤية لدى المؤرخين عامة، فيما بين فترة أبي زكرياء[1]والدرجيني[2] ويثري المكتبة الإسلامية.

- كون كتب السيَّر الأخرى لم تحظ بالتحقيق، ونظرا لما قد يوجد فيها من خلط بين الأسماء والتواريخ، مما جعل من هذا السفر مرجعا له خصوصيته ومكانته الخاصة.- كون البحث في هذا الكتاب مغاربيا، يبين العلاقة الوطيدة بين الأقطار الشقيقة: ليبيا وتونس والجزائر.

- كون الكتاب له من العمر ما يفوق تسعة قرون، وهو ما جعل منه مشرطا يغوص به الباحث في التاريخ .

-

كون موضوع الكتاب يهدف إلى تربية النشء تربية إسلامية صحيحة، إذ يذكرهم بمناقب أسلافهم، وبذلك يتم بناء القيم والحفاظ على الأخلاق الحميدة. ولموضوع سيَّر المشايخ أهمية بالغة، إذ يعد من جهة إحياء لما اندرس ولما انطمس وطواه النسيان والزمن، ومن جهة أخرى يعد باعثا على الاعتزاز بهم وبمجهوداتهم[3].

وهذا الكتاب يعود الفضل في تحقيقه وإظهاره للوجود، بعد غيابه قرونا طويلة، إلى المفقود والمجهول المصير حتى هذا اليوم، الدكتور عمرو خليفة النامي[4]، وذلك كما يذكر محققه الذي التقى النامي في وفاة المغفور له بكرم الله، الشيخ علي يحيى معمر[5] بطرابلس في ١٩٨٠.

إذ عرَّفه به واستحثه عن البحث عليه، وأرشده حسب قوله على مكان وجوده وكيفية

(١) المقصود هنا بأبي زكرياء هو أبو زكرياء الوارجلاني، صاحب كتاب السير، وهو ما سيأتي الحديث عنه فيما بعد، وذلك حسب ترتيبه فيما ذكر في مقدمة هذا البحث.

(٢) أما الدرجيني فتحدثنا عنه وعرّفنا به فيما سبق ومنذ حين.

(٣) سير الوسياني، ج ١، ص ٢٢.

(٤)أحد أبناء مدينة نالوت الشامخة، الذي يعد مفقودا منذ ١٩٨٤ وحتى يومنا هذا، الذي ترك لنا أكثر من إحدى وثلاثين عنوانا، بين تأليف، وتحقيق، ومقال، ومحاضرة، وتقديم، ورسالة، وأكثر من ثلاثين قصيدة، كان مطلع أولها: أماه لا تجزعي فالحافظ الله.. إذ غيبه الطاغية القذافي، وقصته تطول، ولمن يرغب في ذلك عليه بكتاب عمرو النامي، لسلطان بن مبارك الشيباني، مكتبة الأنفال عُمان، ٢٠٠٨، إذ يغنيه في كثير مما يخص النامي.

(٥) هذا الرجل الذي بسبب مؤلفاته نستطيع إضافة اسمه لأصحاب السيَّر، ولو كان من المعاصرين. القائل في نالوت:

هوى نالوت أفقدني صوابي ...... وأعيا خافقي ورمى شبابي

الذي لم يحرك أحد منا نفسه، للسعي على إقامة مناسبة علمية تليق به وبجهوده وتعمل على التعريف به وإظهار بعضا من مساعيه التي أفنى بسببها صحته وعمره، وهو يناضل في سبيل الذود عن هذا المذهب ورجالاته، من نيل المتقولين والعمل على إبطال الأباطيل. عمرو النامي، مصدر سابق، ص ٢٣.

الوصـول إليـه، ومـن هنـا أخـذ بالنصـح وشـمر علـى سـاعد الجـد، وإذا بالكتـاب ظاهـرا كمـا نـراه بيـن أيدينـا؛ فللـه الحمـد، وللمحقـق الشـكر والتقديـر، وللمرشـد الرحمـة والمغفـرة مـن رب العالميـن.

وهـذا الكتـاب وكمـا سـبق وأن ذكرنـا، فلـه مكانتـه وأهميتـه الخاصـة، بسـبب مـا كان فيـه مـن خصوصيـات، تجعلـه يتمـم مـا قـد يكـون ناقصـا، فـي غيـره مـن كتـب سِيَر وطبقـات الإباضيـة، ومـا لهـم فيهـا مـن خصوصيـات، نجدهـا فـي كتبهـم ومنهجيتهـم التـي يتفـردون بهـا عـن غيرهـم.

رغـم أن الجميـع يعلـم، بـأن سـيِّر الوسـياني كانـت مسـبوقة تاريخيـا بسـيِّر أبـي زكريـا الوارجلانـي، وطبقـات الدرجينـي التـي أتـت مـن بعـده، فلـو أردنـا السـبق فـي مثـل ذلـك لـكان لأبـي زكريـا فـي هـذا، ولـو شـئنا الحداثـة لمـا فيهـا مـن جديـد، والإلمـام بمـا جـد وطـرأ فيمـا بعـد لـكان ذلـك للدرجينـي، ولكـن ورغـم ذلـك فسـيِّر الوسـياني لهـا مكانتهـا وأهميتهـا، التـي تخصهـا ولا يحـل محلهـا غيرهـا، نظـرا لمـا فيهـا مـن نقـاط قـد لا نجدهـا فـي غيرهـا ممـا ذكـر مـن كتـب السـيِّر والطبقـات التـي سـبقت هـذا الكتـاب.

والإجابـة عـن هـذا قـد نجدهـا عنـد محقـق الكتـاب، مـن خـلال تسـاؤله الـذي طرحـه، فقـد ذكـر بـأن العُمانييـن طلبـوا مـن الدرجينـي، إعـادة صياغـة كتـاب أبـي زكريـا، مـع وجـود سـيِّر الوسـياني فـي ذلـك الحيـن، وكانـت مـن مطالبهـم، جـودة التعبيـر، وسـلامة الأسـلوب، مـع الإلحـاح أن يكـون كتـاب أبـي زكريـا هـو المصـدر، ولـم يطلبـوا إعـادة صياغـة سـيِّر الوسـياني فيمـا علـم[1].

وهنـا وكمـا يذكـر المحقـق، ربمـا طُلـب منـه ذلـك، نظـرا لأن لغـة الوسـياني كانـت أسـلم مـن لغـة كتـاب أبـي زكريـاء، فلـم يطلبـوا تحسـينه مـن الدرجينـي.

وربمـا لـم يسـمعوا بذلـك الكتـاب مطلقـا، لكـون الفتـرة كانـت قريبـة بيـن الوسـياني وأبـي زكريـاء، وربمـا وهـو ممـا يحسـب للوسـياني وكتابـه ومنهجـه المتبـع فيـه، فمـن خـلال تتبـع الوسـياني وأسـلوبه، تجـده ميـالا إلـى مسـائل الفقـه، ولعـل ذلـك يرجـع لكثـرة تـداول تلـك المسـائل بيـن العزابـة -أي بيـن طلبـة العلـم - خاصـة مـع انتشـار الديوانيـن، «ديـوان الأشـياخ، وديـوان العزابـة» فـي ذلـك الوقـت، ولا يعـاب فـي ذلـك علـى المؤرخيـن المسـلمين، لأنهـم متعلقـون بدينهـم كبقيـة العلمـاء؛ إذ الهـدف الأسـمى

(١) سير الوسياني، ج ١، ص ٢٣.

والغاية النبيلة والمثلى هي خدمة الدين[1].

ومكانة سيَّر الوسياني، تتضح من خلال وجوده بين كتب سيَّر الإباضية وطبقاتهم، أو من خلال المقارنة بينها، وذلك لا يتأتى، إلا بعد التعرف على كل الكتب التي عندهم، كالتي سبق ذكرها والإشارة إليها، كسيَّر الوارجلاني، وسيَّر الوسياني، وسيَّر البغطوري، وطبقات الدرجيني، وسيَّر الشماخي، ومنها ما لم يأت الحديث عنها بعد، ككتاب: ابن سلام اللواتي، المعروف بما فيه عن بدء الإسلام وشرائع الدين، وهذا الكتاب لابد من التعريج عليه ولو في إيجاز، لنقف عليه وعما جرى له، ممن لا يحترم أسس التحقيق والأساليب المتبعة في الدراسة، ونقف من خلاله عما يبذله الباحثين والناشرين من جهد يشكرون عليه، في سبيل الوصول للحقيقة وإعطاء كل ذي حق حقه، ولا فرق في هذا بين الغرب والشرق، فضوابط التحقيق والنشر وما يتبعها من مسائل علمية وأكاديمية، لا يختلف عنها سوى الجاهل أو المنحرف قصدا.

وهو ما نجده من خلال تتبعنا لكتاب ابن سلام اللواتي المذكور سلفا.

فمؤلفه هو لواب بن سلام بن عمرو اللواتي، حي سنة ٢٧٣هـ/٨٨٧ م.

وأبو سلام هذا كان عاملا للإمام عبد الوهاب الرستمي على سرت. وكانت له اتصالات بإباضية مصر بالفسطاط، كما انتقل ابن سلام إلى توزر ببلاد الجريد، وتتلمذ على أبي خليل صالح الدركلي[2].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢) من علماء القرن الثالث، وهو من إدركل بجبل نفوسة، أخذ العلم عن حملة العلم الخمسة من البصرة إلى المغرب، من أبرز تلاميذه أبو ذر أبان بن وسيم الويغيوي، يعد حلقة في سلسة نسب الدين الطرابلسية. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٢٢٤.

يرى الشيخ سالم بن يعقوب[1] أن لواب بن سلام اللواتي من بلدة أغرمامن[2]. وقضى عدة سنوات بجندوبة[3]، حيث التقى بخلف بن السمح، حفيد الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني[4].

وهذا الكتاب تم تحقيقه من قبل الشيخ سالم بن يعقوب الجربي، والدكتور فرنز شفارتز الألماني الجنسية.

ولأهمية الكتاب بادرت دار «اقرأ» دون إذن المحققين، وأصدرته تحت عنوان مغاير للأصل تماما، وهو كتاب ابن سلام الإباضي «الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية»، طبع في ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م ببيروت.

وذلك ما أثار حفيظة وغضب المحققين الأصليين، فأرسل فرنز شفارتز رسالة يوضح فيها تطاول دار اقرأ على الحق القانوني، وأن العنوان منتحل.

إذ أصدرت دار صادر ببيروت، نفس الكتاب بعنوانه الحقيقي، وهو «كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين»، وأعيد طبعه في مدينة «بيزفادن» على نفقة وزارة الأبحاث العلمية والتكنولوجية بألمانيا الاتحادية في ١٩٨٧م[5].

وذلك ما يعطينا أهمية هذا الكتاب، بسبب ما فيه من معلومات تعني الفقهاء والمؤرخين والكتاب، لأن المؤرخين بأعمالهم يمهدون الطريق للفقهاء، فبحوثهم عن الأعلام والقراء

---

(١) من مواليد جربة ١٣٢١ هـ، أخذ العلم عن الشيخ عمر بن مرزوق، والعلامة محمد بن صالح الثميني، درس في جامع الزيتونة والأزهر الشريف، تتلمذ بعدة مساجد بجربة، منها جامع الشيخ بحومة السوق بجربة، وهو معاصر. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ١٦٧.

(٢) اغرمامن ذكرت في الأصل أو في النص «اغرمينان» وهو خطأ أو تصحيف، والصواب هو اغرمامن، وهي كلمة أمازيغية، واغرمامن تقع في مدينة الرجبان الحالية، في جبل نفوسة الأشم، وهي قريبة من مدينة ميري التي استقر فيها الإمام عبد الوهاب الرستمي، سبع سنوات، عندما أتى من تاهرت قاصدا الحج، ومنع من قبل مشائخ الإباضية، من إتمام رحلته للأراضي المقدسة، وذلك من باب الخوف عليه، وحاجة الأمة إليه، فاستقر بميري، وبنا بها مسجدا يعرف باسمه، وهو لا يزال قائما حتى هذا اليوم كشاهد من شواهد التاريخ على تلك الحقبة وما جرى فيها.

(٣) المقصود بجندوبة جندوبة غريان الحالية.

(٤) أبو الخطاب هو أحد حملة العلم الخمسة المعروفين، وهو أول من أقام إمارة أو إمامة إباضية في شمال إفريقيا، في النصف الأول من القرن الثاني الهجري.

(٥) سير الوسياني، ج ١، ص ١٨١، ١٨٢.

والمحدثين، يسهلون الطريق للفقهاء، لمعرفة من سيأخذون عنهم الأحكام والفتاوي والأحاديث، من حيث اعتمادها وردها حسب ما يعرف بعلم «الجرح والتعديل»، الذي تتفرد به الأمة الإسلامية عن بقية الأمم.

مع العلم فإن الوسياني، الذي نجد الكثير من إشاراتنا ومراجعنا في هذا البحث ترجع إليه، إلا أنه لم يذكر كتاب ابن سلام اللواتي إطلاقا.

والآن وكما ذكرنا في بداية هذا البحث، فقد حان الوقت، لنفسح المجال لمقرين محمد البغطوري، وكتابه «سيِّر نفوسة»، وهو حي في: ٥٩٩هـ، ١٢٠٣م.

فهذا العالم أخذ علمه عن أبي محمد عبدالله بن محمد المجدلي، وأبي يحيى توفيق بن يحيى الجناوني[1]، بمحضرة الشيخ أبي يحيى توفيق بن يحيى[2] بإجناون.

فهذا الرجل ألف كتاب سيِّر نفوسة «سيِّر مشايخ نفوسة»، وله كما تذكر المصادر كتاب المعلقات لمجهول، وهو بعنوان: «المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة»، وهو كتاب في السيِّر الإباضية، يشبه في منهجه وأسلوبه الوسياني إلى حد كبير[3]، وبهذا نصل إلى الدرجيني وكتابه «طبقات المشايخ بالمغرب» أنموذجًا.

لقد ألف أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، المتوفى في سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١مكتابه هذا بعنوان: «طبقات المشائخ بالمغرب» في جزأين، وذلك في ٦٥٠هـ/ ١٢٥١م[4].

وقد نال كتابه هذا اهتماما بالغا، من المثقفين والباحثين في هذا المجال، لكونه يضيف تعريفا دقيقا لتراجم، كانت مغمورة قبل طبعه في ١٩٧٤م.

---

(١) أبو يحي، عالم وفقيه، له كتاب الطهارات،. معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ١٠٧.

(٢) الجناوني عده الشيخ على يحي معمر، من العلماء الأعلام، الذين كان لهم الأثر في نشر العلم وبث المعرفة، تتلمذ عليه إبراهيم بن أبي يحي أبي عزيز، له كتاب الطهارات، وله فتاوي . الإباضية في موكب التاريخ، على يحي معمر، الطبعة الأولى ١٩٦٤، ج ٣، ص ٦٧، معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ١٠٧.

(٣) حققه الطالب سليمان بن إبراهيم بابزيز، بمعهد الحياة بالقرارة كبحث للتخرج، سير الوسياني، ج١، ص ١٨٨.

(٤) ويرجح ليفيتسكي كذلك أن كتاب الطبقات تم تأليفه في ٦٥٠هـ، دراسات شمال أفريقية، تاديوس ليفيتسكي، مكتبة الضامري، ٢٠٠٨، ص ٧٩.

محتوى المؤَلف: يتألف كتاب الدرجيني طبقات المشايخ، من جزأين، الأول منه يكاد يكون جزءاً من كتاب أبي زكرياء، مع بعض الإضافات والتحسينات في الألفاظ والعبارات؛ أي أنه عبارة عن كتاب الوارجلاني مع التصرف. أما الجزء الثاني فهو للدرجيني وقد أبدع فيه حقا، وهو يعد مصدرا هاما في هذا الأمر[١].

منهج الدرجيني الذي اتبعه في تأليفه لكتابه هذا: فنظرا لاستجابته للسائلين وكما ذكر، وجبت طاعتهم، والذين طلبوا منه، راغبين جمع سيَر أسلافهم وأخبارهم، لوضع مصنف فيه ما ذكره أبو زكرياء، إذ قال: «وأخذت في تهذيب الكتاب المذكور، وأضيف إلى ذلك، ما لابد منه، من خطبة وشعر غير مشهور..»[٢].

وقد انطلق في كتابه هذا من الطبقة الثانية، إلى الطبقة الثانية عشرة، تاركا ذكر الطبقة الأولى[٣]، لاشتهارها حسب قوله بين الناس، ولم يكن ذلك من باب استنقاص قدر أصحابها، ولا جحودا لدورهم، بل لشهرتها كما علل ذلك في بداية كلامه، وحسب ذكره فكتاب الطبقات، نقله عن أبي عمار الكافي. مع العلم وكما أسلفنا فيما سبق من حديثنا في هذا، فكتاب الطبقات يعد تهذيبا لكتاب أبي زكرياء الوارجلاني[٤].

وعليه فالطبقة الثانية حسب ترتيبه، وهي التي تشمل من كانوا في الخمسين الثانية من المائة الأولى، كان في مقدمتهم جابر بن زيد[٥]، أس المذهب الإباضي، وعبدالله بن أباض.

والطبقة الثالثة وهم من اشتملت عليهم الخمسون الأولى من المائة الثانية، وتبدأ تلك الطبقة بأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي. وهي الفترة التي انتشر فيها المذهب الإباضي

(١) الوسياني، ج ١، ص ١٩٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وكما بين قائلا: «فالذين اجتمعت عليهم الخمسون الأولى من المائة الأولى رضي الله عنهم، وأسماءهم ومزاياهم أشهر من أن نحتاج إلى تعدادهم، فهم نجوم الهدى ومصابيح الدجا، وإنما نعتت على مكانتهم من امهاد الفضل، تبركا بذكرهم»، وقد عدد هم في الصفحة السابعة من الجزء الأول، بدءا بالإمام جابر بن زيد، وانتهاء بأبي محمد المهدي، وأبي روح ومازن أبناء كنانة، طبقات المشائخ، مصدر سابق، ج ١، ص ٧ .

(٤) الطبقات للدرجيني، ج ١، ص ٦، سير الوسياني، ج ١، ص ١٩١، ١٩٢.

(٥) الإمام جابر معروف عند الجميع أنه من مواليد ٢٢هـ.

فـي المغـرب الكبيـر، ولذلـك كانـت رجالهـا شـرقيين وغربييـن، عربـا وبربـرا، وهـم مـن كان مـن تلاميـذ أبـي عبيـدة وغيرهـم، وكان فـي مقدمتهـم الربيـع بـن حبيـب، وكان مـن ضمنهـا مـن الغـرب الإسـلامي، مـن عرفـوا فيمـا بعـد بحملـة العلـم الخمسـة، كأبـي الخطـاب المعافـري، وعبدالرحمـن بـن رسـتم، وعاصـم السـدراتي، وأبـي داود القبلـي، وإسـماعيل بـن درار الغدامسـي، وابـن مغطيـر الـذي سـبق الجميـع[١].

وممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأولـى مـن المائـة الثالثـة، كان فـي مقدمتهـم أفلـح بـن عبـد الوهـاب، وبعضـا مـن جهابـذة جبـل نفوسـة، كأبـي مـرداس، ومهـدي الويغيـوي، وأبـان بـن وسـيم، وأبـو زكريـاء التوكيتي[٢].

وممـن كانـوا فـي الخمسـين الأخيـرة، مـن المائـة الثالثـة، عمـروس بـن فتـح، وأبـو منصـور إليـاس، وأبـو معروف.

وممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأولـى، مـن المائـة الرابعـة، هـم: أبـو مسـور اليهرسـاني، وأبـو خـزر يغلـى بـن زلتـاف.

وممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأخيـرة، مـن المائـة الرابعـة، هـم: أبوسـعيد بـن زنغيـل، وأبـو زكريـاء فيصـل بـن أبـي مسـور، وأبـو عمـر النميلـي.

وممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأولـى، مـن المائـة الخامسـة، التـي منهـا ابتـدأت فئـة العزابـة[٣]، وهـم: أبـو عبـدالله بـن بكـر وزكريـاء ويونـس ابنـا فيصـل بـن أبـي مسـور، وأهـل غـار أبـي مجمـاج، الذيـن ألفـوا ديـوان الأشـياخ، وأبـو زكريـاء يحـي بـن جرنـاز[٤].

---

(١) فهذا الرجل وكما يذكر الشيخ علي يحي معمر، هو أول من شق عصا الترحال إلى الشرق، وكان يمثل أول بعثة علمية، من جبل نفوسة إلى البصرة حيث مهد للإباضية.

(٢) وأبي زكرياء التوكيتي هذا، كان أشهر من نار على علم، فهو الذي أشار إليه الإمام عبد الوهاب، لمن وضعه حاكما على الجبل، فتعلل بضعفه، فقال له: إن كنت ضعيف العلم فعيلك بأبي زكرياء التاكوتي، وفيه من يخلط بين هذا وبين أبي زكرياء يحي جرناز اللالوتي النفوسي، أحد مؤلفي ديوان الأشياخ، بغار أبي مجماج، وهذا للتنبيه والعلم.

(٣) لمن يريد نظام العزابة أو حلقة العزابة، عليه بكتاب نظام العزابة عند الإباضية الوهبية، للشيخ الجعبيري ١٩٧٥ .

(٤) وقد ورد في المصدر بصيغة: «أبو يحي زكرياء بن جرنان»، وهو تصحيف، فاسمه الصحيح ما وضع في المتن، وهو من لالوت، قبره ما زال موجودا قرب جامع تين أدرار، بالقرب من عين تغليس في نالوت، وهي تقع أسفل قصر نالوت التاريخي.

وممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأخيـرة، مـن المائـة الخامسـة، سـليمان بـن يخلـف، وأبـو سـليمان داود بـن أبـي يوسـف، وأبـو العبـاس أحمـد بـن محمـد بـن بكـر، وماكسـن بـن الخيـر، وإسـماعيل بـن يبـدر.

وممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأولـى، مـن المائـة السادسـة، عبـد الرحمـن بـن معلـى، ويحـي بـن زكريـاء. إذ توقـف الدرجينـي هنـا، وقـال هـؤلاء أئمتنـا فـي الديـن، وقادتنـا فـي الإسـلام -رحمهـم الله-، وذكـر الشـيخ أبـو العبـاس فهـذا الترتيـب الـذي رتبـه أبـو عمـار الكافـي، حسـن فـي المعنـى، إلا أنـه لـم يذكـر الطبقـة التـي فيهـا شـيوخه ومعاصـروه.

ويضيـف أن ممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأخيـرة، مـن المائـة السادسـة، أبـو عمـار الكافـي بـن يعقـوب التناوتـي، وأبـو يعقـوب يوسـف السـدراتي، وفيصـل بـن أبـي مسـعود، وإسـحاق بـن إبراهيـم التميجـاري.

وممـن اشـتملت عليهـم الخمسـون الأولـى، مـن المائـة السـابعة، محمـد بـن أبـي جميـل، وسـعد بـن معـاذ، وغيرهـم ممـن سـبقوا أولئـك المبشـرين، كسـلامة بـن سـعد[1] الذي قـدم مـن البصـرة مبشـرا بالإباضية[2].

ومـن هنـا وحسـب مـا فـي كتـاب الطبقـات للدرجينـي، فهـو يعطينـا صـورة إجماليـة عـن رجـال الإباضيـة، حتـى حـدود القـرن السـابع الهجـري، والـدارس للتاريـخ الإسـلامي فـي الغـرب الإسـلامي، لا يمكـن أن يتمكـن مـن اسـتفاء مـا يخـص علمـاء الإباضيـة، الذيـن وصفهـم عيـون عسـكر ابـن الأشـعث الخزاعـي، قائليـن لـه: «بأنهـم رهبانـا بالليـل أسـودا بالنهـار، يتمنـون لقـاءك كمـا يتمنـى المريـض الطبيـب»، دون الاطـلاع علـى هـذا الكتـاب القيـم، الـذي يعـد تحفـة ثمينـة ودرة غاليـة تسـر عيـن الناظـر وتبهـج أذن السـامع، ويتحلـى بهـا جيـد العلـم والعلمـاء[3]. الذيـن أنتجـوا لنـا تلـك السـيَّر وأمثالهـا مـن الموسـوعات، التـي حفظـت لنـا تراثنـا وثقافتنـا المتميـزة، التـي مـن سـماتها ونتاجهـا، مـا

(١) يعد أول مبشر بالإباضية في شمال إفريقيا، الذي وصل هو وزميله الذي كان يبشر بالمهذهب الصفري وهما يتبادلان على جمل من الجزيرة العربية.

(٢) طبقات المشايخ بالمغرب، للدرجيني، ج ١، ص ٦. ١٢.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢.

نجده عند العديد من البليغات الإباضيات المحافظات، أمثال: زينب بنت أبي عبد الله محمد بن أبي عمر، التي ذكرت وهي تخاطب وتوصي بناتها «كالو» و «ومو»: «يا ابنتيَّ أربعون أردية مصرية تخرقت على ظهري، ولم ير الشمس واحد منها قط..»[1] ، وقولتها هذه تدل على مدى الحياء والحشمة التي كانت عليها المرأة الإباضية[2]، ومدى حرصها على البقاء في خدرها، والتزامها بيتها إلا للضرورة القصوى، وذلك شبيه بما قالته زميلتها، زينب اللالوتية[3]، التي كانت تعيش في لالوت، متمسكة بأشد ما يمكن من حجاب المرأة، التي بلغها أن أمة الواحد[4] زوجة أبي عامر التصراري[5]، أعلنت شيئا مما تحرص النساء على إخفائه، فبعثت إليها تقول، في توبيخ عنيف ونهي عن المنكر: «لو أمكن لنا أن نستر قبورنا بين القبور لفعلنا»، واستجابت لها أمة الواحد وثابت من عملها ذلك، وبعثت إليها تعتذر[6].

ومما نأخذه من كتاب الطبقات للدرجيني، وهو يتحدث عن أبي محمد عبدالله بن مانوج اللمائي، أنه: «ذكر أبو الربيع أن أبا محمد بن مانوج، تاب بعد الكبر، وسبب توبته أنه لقي شيخا من لماية، وهو يرعى غنما له، فقال له الشيخ: اعلم أن غنما ترعاها اللحية هي خير الغنم، وأن لحية تتبع الغنم هي شر اللحاء، فوقعت التوبة في نفسه فتاب، وطلع حينئذ إلى المشايخ: أبي مسور، وأبي صالح، وأبي موسى عيسى بن السمح، فمكث عندهم في الجزيرة ما شاء الله، ثم رجع إلى أهله فلقي الشيخ المذكور، فقال له: اعلم أن الجمال تبرك للحمل عنها، ولكنها تتفاضل في تبليغ الأحمال، فرجع إلى المشايخ، فمكث عندهم ما شاء الله، ثم رجع فلقي

---

(١) سير الوسياني، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) لتي أصبحت في أيامنا هذه وكما هي عليه في مدينة نالوت فتجدها تتجول ولوحدها وهي تدخل المحلات التجارية بمفردها، وهي في خمارها الغريب عن المنطقة، المزركش في شكله وهي تشبه الحجل البري. و.. و...، فشتانا بين المرأة الإباضية التي كانت في القرون الأولى، وما أصبحت عليه الآن في أيامنا بسبب التصحر الثقافي والديني الذي لم يترك إلا تخلفا وتراجعا ولو في السلوكيات.

(٣) وصفها الشيخ على يحي معمر، من نوابغ النساء في الجبل، ومن المتمسكات بأشد التمسك بالحجاب، الإباضية في موكب التاريخ، ج ٣، ص ١٧٢.

(٤) هذه المرأة المؤمنة أو الزوجة الصالحة، التي لو كن نساء اليوم أو فتايات اليوم على شاكلتها، وكذلك الشباب، لما وجدنا بين شبابنا وشباتنا عوانس، كالذي نراه ونشاهده في كل قرية وبيت في أيامنا هذه، ولمن يريد الوقوف على تلك المرأة وسلوكها مع زوجها، عندما خطب عليها فتاة أخرى وما قامت به نحوهما، فليعد لما نقله الشيخ علي يحي معمر في كتابه الإباضية، ج ٣، ص ٢٣٣. ٢٣٦.

(٥) من علماء الفلك عاش في أواخر القرن الثاني ضريحه بتصرار وادي كراين. سير الشماخي، ج ٣، ص٩٥٧.

(٦) الإباضية في موكب التاريخ، على يحي معمر، ج ٣، ص ١٧٢.

الشيخ المذكور، فقال الشيخ: اعلم أن الغدران كلها تأخذ الماء، وإنما التفاضل فيما يبقى فيها الماء، فرجع ثالثة إلى المشائخ فمكث عندهم ما شاء الله يقرأ العلم، حتى تفقه؛ وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورين في نسبتهم إلى غار أمجماج»[1].

فما نأخذه من هذه القصة، أن الدين النصيحة، والعلم يجب أن يكون في كل مراحل العمر، كما قال صلى الله عليه وسلم: [اطلبوا العلم من المهد حتى اللحد] ، وأن التواضع من أجل العلم هو أساس النجاح فيه، وأن الصفوة في عصره هي الجمعية التي تكونت في غار أمجماج، التي ألفت أهم ديوان عند الإباضية في الفقه، وللأسف أنه لم تتم دراسته ولا تحقيقه حتى هذا اليوم. ومما نأخذه من طبقات الدرجيني، وكقصة من القصص التي فيها التصميم والإرادة، في سبيل العلم والتحصيل، قصة أبي عمار الكافي[2].

فهذا الرجل وكما ذكر الشيوخ، أن أبا عمار لما عزم على طلب العلم، رأى أن أهم ما يقدمه إصلاح اللسان، ثم إصلاح الجنان بعلوم القوانين والبراهين، فهاجر إلى تونس، وأقام فيها أعواما يدرس الليل والنهار، ولا يحضر بباله ذكر الأهل ولا الدار، والذي توخاه في قصده تونس شيئين، أحدهما: ملاقاة من يشغل خاطره عن ذكر أهله، والثاني أراد أن ينقطع عن اللسان البربري، بالبعد عن من يخاطبه به، والتدرب على لسان العربية، بكثرة مخالطة من يخاطبه به، وكان أبو عمار موسعا عليه، فكان يأتيه من بلده في كل عام ألف دينار، وبطاقة فيضع البطاقة في موضع، ويقسم الدنانير نصفين، فيدفع النصف إلى شيخه، ويصرف النصف الآخر في نفقته وكسوته، وشراء ما يحتاجه من الكتب، فلما رأى أنه قد قضى حاجته من طلب العلوم التي أعتمدها هنالك، وعزم على السفر، أعلم شيخه بذلك، وأخذ في قراءة الكتب التي كانت ترده من بلده، كتابا بعد كتاب، فوجد في الكتاب الأول، إعلاما بوفاة أحد أبويه، وفي الكتاب الثاني وفاة الثاني، ووجد شواغل لا علم له بها؛ فأطلع على ذلك شيخه وأصحابه، فعزوه وانفصل إلى بلده.

ومما يرده صاحب الطبقات في قصة هذا الرجل، نقلا عن بعض أشياخه أنهم،

---

(١) الطبقات للدرجيني، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٢) عبد الكافي بن أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل بن محمد التناوتي الوارجلاني، صنفه الدرجيني في الطبقة الثانية عشرة، من رفاقه في التتلمذ، أبويعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، صاحب التأليف في علوم المعقول والمنقول، وسيرته تطول يُرجع فيها إلى معجم أعلام الإباضية، ج ٢، ص ٢٥٨.

قالوا: أدركنا أشياخنا وهم يذكرون طالبا من أهل وارجلان، قرأ معهم على شيخهم إذ ذاك، قالوا أدركناهم يتعجبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه، وسخائه ودلالة نفسه، وسعة خلقه، قالوا ولم يُر مثله من العرب ولا من البربر، قال لي: وكانوا يذكرون أنهم اطلعوا على كتاب معه في علوم مذهبه، وكان نظما في قصائد فما هذا الكتاب؟ فقلت له: هو دعائم ابن النظر[1]، كانت منه في بلادنا من قبل هذا نسخة غير محلولة، ولما حله ابن صاف[2] لم يرد بلادنا حتى ورد به الشيخ أبو موسى عيسى بن زكرياء، وأعلمته أن الطالب المذكور هو أبو عمار الكافي[3]، وأطلعته على كتاب الدعائم لمَّا ذكره وسأل عنه. فلما رآه جعل يتعجب منه، فنظر منه بعض قصائد العقائد، وهي الرائية التي كانت في الرد على القدرية، فقال معرضا ما رأى هاهنا إلا موافقة أهل السنة، فقلت له: وما خالف هذا الكتاب فهو خلاف السنة[4].

فلننظر لمثل هؤلاء الأبطال، وما كان لهم من سلوكيات وتصرفات وتضحيات في سبيل العلم، وما أحوجنا نحن هذا الجيل لمثلها، وهي ما يجب التأسي بها، وحث الأجيال الحالية، التي قضت الحضارة الغربية وما فيها من عفن، على كل ما له بتلك القيم، التي كانت ميزا يمتاز بها، أبناء ربوع أولئك الذين ذكرناهم، أمثال: أبي عمار الكافي، وزينب بنت أبي عمرو، وزميلتها زينب اللالوتية، وغيرهم كثر، لو أحصيناهم وعددناهم، وهم يتميزون عن غيرهم كما تتميز النجوم عن الكواكب، في دورها ومهامها، وما جُعلت له من أدوار ومهام، منذ أن خلقها خالقها وجعلها في مواضعها وهي تسبح في هذا الكون الذي نعيش فيه، فشتانا بين الثرى والثريا.

فتلكم هي السيِّر وأصحابها، وذلكم هو كتاب طبقات المشائخ للدرجيني، الذي كان نتاجه بسبب طلب العمانيين في عصر الدرجيني، بإعادة صياغة سيِّر أبي زكرياء الوارجلاني، وما تجدونه في تلك الكتب لو اطلعتم عليها، فهو أعظم بكثير مما حاولنا طرقه هنا، في هذا

---

(١) هذا الكتاب يتكون من مجموعة قصائد تم نظمها من قبل ابن النظر في العقيدة والأحكام الشرعية. طبقات المشائخ للدرجيني، ج ٢، ص ٤٨٧.

(٢) هو محمد بن وصاف العماني، من مشايخ الإباضية بالمشرق، شرح دعائم أحمد بن النظر، وهو عبارة عن مجموعة قصائد في العقيدة والأحكام الشرعية، والشرح في ثلاثة أجزاء وهو من المخطوطات القيمة. طبقات المشائخ للدرجيني، ج ٢، ص ٤٨٧.

(٣) سبقت ترجمته منذ حين.

(٤) طبقات المشائخ للدرجيني، ج ٢، ص ٤٨٦، ٤٨٧.

البحث المتواضع، لو اطلعتم وقرأتم ما فيها من أخبار ونوادر، فهي تفيد القارئ والسامع، الذي يعي ما يقرأ وما يسمع، وليس من سمع كمن رأى، وهناك الكثير والعديد من المؤلفات، التي هي ذات العلاقة بكتب السيِّر والطبقات، وإن لم تذكر معها هنا، أو لم تصنف من ضمن هذه الشريحة، رغم ما فيها من فوائد، ورغم ما لمؤلفيها من إمكانيات وافرة، أبرزوا بسببها نتائج قرائحهم للقاصي والداني وكشفوا غوامض المشكلات وأزاحوا الشبهات، تركوا لنا العديد من المصنفات، ككتاب «قناطر الخيارات: للجيطالي، الذي قال فيه شيخنا المتحدث عنه، في هذه الورقة، قوله: «.. نسبة إلى جيطال، قرية من قرى الجبل بطرابلس الغرب، وهو المحقق الجليل الآخذ من كل فن القدح المعلّى، الفيلسوف الماهر صاحب التصانيف المفيدة والتحقيقات المنيفة، الدالة على براعته وتضلعه الشيخ إسماعيل الجيطالي رحمه الله.

من تأليفه هذا الكتاب المشتمل على ثلاثة أجزاء، الجامع لفلسفة الأخلاق والفنون الشرعية، بأسلوب فائق وترتيب رائق مع الاختصار غير المخل، وهو من أهم الكتب في تربية النفس، وتحليتها بالكمالات الإنسانية، وتطهيرها من الرذائل وقبائح الأخلاق، .. وكان -رضي الله عنه- مشهورا بالفضل والورع والتّقى والجد والاجتهاد، يتبين للمطلع من غضون عباراته، مقدار نبوغه وغوصه في علوم الآداب وعلوم الدين وتأثيرها الدّال على إخلاصه»[1]، وكالعلامة نور الدين السالمي[2]، وضياء الدين الثميني[3]، وإن قلت أنا فلا أقول إلا ما جاء في قوله تعالى: {إنْ أُريدُ إلَّا الإصلاحَ ما استطعتُ وما تَوفيقي إلَّا بِاللهِ عليه تَوكلتُ وإليه أُنيبُ}[١١ هود ١١]،

(١) بحوث ودراسات أبي إسحاق اطفيش، الطبعة الأولى، ص ٢٢.

(٢) القائل فيه نفس المتحدث، ما نصه: «هو الجهبذ الهمام أعلم علماء جزيرة العرب، بطل عمان نور الدين أبو عبدالله بن حميد السالمي العماني رحمه الله، أحد الأعلام الفخام صاحب التآليف الجليلة والمتون المفيدة، منها متن المشارق وهو من أهم المتون في التوحيد، كتب عليه شرحين طويلين ومختصر ». المصدر السابق، ص ٢٣.

(٣) القائل فيه المتحدث نفسه كذلك ما نصه: «هو علامة المعقول والمنقول، نابغة عصره المحقق ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد العزيز .. الثميني .. الحفصي .. له من التصانيف: النيل، وهو أحسن متن دوّن في الفقه الإسلامي ومكارم الأخلاق، وتعاظم الموجين على مرج البحرين، ومعالم الدين،.. ومختصر المنهاج، والورد البسام في رياض الأحكام، .. وهو يعد من أحسن الكتب أخرج للناس في أحكام القضاء والمعاملات، .. وعقد الجواهر مختصر القناطر، .. وله حسن التعبير وأرقى أسلوب التأليف حتى كان شيخه رضي الله عنه، يكنّى عنه بالعربي السليقة ». المصدر نفسه، ص ٢٦.

واستغفر الله لي ولكم، والحمد لله رب العالمين[1].

الخاتمة

إن بعض البحوث والدراسات، لو حاولت اختصارها أو تلخيصها لضاعت معالمها، بسبب أن ما تتركه أو تحذفه منها، سيبقى مكانه فجا ظاهرا.ولكن ورغم ذلك فهذه الورقة قد تعرضت وكما جاء فيها، وكفكرة عابرة لسيرة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى صحابته الميامين وتابعيهم إلى يوم الدين، وخصت بالذكر ما كان للإباضية من كتب للسير وعلمائهم الأجلاء، والفقهاء والمؤلفات التي تخصهم، والتي من المؤكد سنجد فيها ما لا نجده في غيرها من بقية تراث الأمة الإسلامية التي هي جزء لا يتجزأ منها، وذلك يُعد ثراء ما بعده ثراء، يُضم لما في المكتبة العربية والإسلامية، مما أنتجه علماؤها وغيرهم من المستشرقين والغربيين، الذين ساهموا بطريقة أو بأخرى في بناء هذه الحضارة الإنسانية الخالدة.

والذي آمله من هذه الندوة، أن تكون نافذة واسعة يُطل من خلالها من لم يقف على تراث الإباضية، حتى يتيقن ويكون في المستقبل منصفا للحق، ودون تحيز مفرطٌ كالذي نراه هنا وهناك فيما كتب في الماضي. وإلى فرصة أخرى تجمعنا إن شاء الله تحت سقف، يضم العلم والعلماء ومن يمد لهم يد المساعدة من سواهم من الفئات الأخرى، التي لها دورها البارز وهي في الواقع نجدها كالجندي المجهول، أو كالمصور الذي نرى أثاره في الوسائل الإعلامية ولا نشاهده، إذ يُظهر غيره ولا وجود له في المشهد.

وما أنهي به حديثي هذا هو ما طلبت به الجميع في بداية هذه الورقة، ألا وهو عمل آلية والخروج ببرنامج عملي نلزم به أنفسنا، لاتخاذ خطوات حقيقية تمكننا بجمع ما يوجد من كتب السيّر والطبقات الإباضية لإظهارها للوجود، وكذلك ما ذكرته بخصوص ما تبقى من مخطوطات، قبل أن تأتي عليها عاديات الزمن، والحمد لله الذي وفقنا لهذا وسدد خطانا، وندعوهأن يلهمنالمايحبهويرضاه.

---

(١) انتهى هذا البحث في فجر يوم الخميس، الثلاثين من ذي الحجة ١٤٣٥، إذ رُفِعَ أذان صلاة الفجر، من جامع الإمام جابر بن زيد، بمدينة نالوت، من قبل من فُرضَ عليهما، وفي أذانه: «الصلاة خير من النوم»، فهل ذلك من علامات الساعة يا ترى؟ !.

المصادر والمراجع

أولا: أ- القرآن الكريم

ب - هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن، محمد صالح البنداق، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت لبنان.

ثانيا: بقية المصادر والمراجع:

١. الأعلام قاموس تراجم، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة.

٢. الإباضية في موكب التاريخ، علي يحي معمر، الطبعة الأولى ١٩٦٤، مكتبة وهبة مصر.

٣. التخوم التونسية الليبية عبر التاريخ، نجع الذهيبات وجيرانه، محمد بوزرارة، طبعة ٢٠١٤.

٤. السيرة النبوية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان، الطبعة الأولى.

٥. الكشف عن الإصابة في اختلاف الصحابة، محمد بن شامس البطاشي، مكتبة الضامري، مسقط، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

٦. بحوث ودراسات أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الجزائري، الطبعة الأولى ٢٠١٠.

٧. جبل نفوسة في العصر الإسلامي الحديث، مسعود مزهودي، مكتبة الضامري، الطبعة الأولى ٢٠١٠.

٨. حركة الخوارج، نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، لطفية البكاي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

٩. دراسة شمال أفريقية، تاديوس ليفيتسكي، ترجمة أحمد بومزقو، مكتبة الضامري، عُمان، ٢٠٠٨.

١٠. سير الوسياني، لأبي الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان الوسياني، تحقيق ودراسة عمر بن لقمان بوعصبانة، الطبعة الأولى، وزارة التراث عُمان ٢٠٠٩.

١١. سيرة الرسول، لابن هشام، تحقيق وست، المكتبة التجارية

١٢. طبقات المشائخ بالمغرب، للشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، تحقيق وطبع إبراهيم طلاي.

١٣. عمرو النامي مسيرة عطاء في درب الخير، سلطان مبارك بن حمد الشيباني، الطبعة الأولى، مكتبة الأنفال، عُمان ٢٠٠٨.

١٤. السير، أبوالعباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبدالواحد الشماخي، تحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٩.

١٥. المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، مخطوط، حققه الطالب سليمان بن إبراهيم بابزيز، بحث للتخرج، قسم الشريعة، بمعهد الحياة بالقرارة.

١٦. لسان العرب، للعلامة ابن منظور، معجم لغوي علمي، قدم له العلامة الشيخ عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت.

١٧. معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

١٨. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعة جي، دار النفائس، الطبعة الأولى.

١٩. نظام العزابة عند الإباضية الوهبية، فرحات الجعبيري ١٩٧٥.

السيّر الإباضية
بين المشارقة والمغاربة

الشيخ أحمد بن سعود السيابي
الأمين العام لمكتب الإفتاءبسلطنة عمان
ahmed_cso300@hotmail.com

السيّر (لغة ومفهومًا وتاريخًا)

في معرض تقديمي لكتاب "سيّر الوسياني" بدراسة وتحقيق الدكتور عمر بن لقمان بو عصبانة، تساءلت قائلًا : لماذا كان الاهتمام بكتابة السيّر لدى الإباضية المغاربة، ولم يكن لدى الإباضية المشارقة اهتمام بمثل ذلك ؟

وأعقبت ذلك بتساؤلات تتضمن إجابات افتراضية ألا وهي :

- هل استمرار وجود الدولة الإباضية لدى المشارقة لا سيّما العمانيين كان شاغلًا لهم عن الاهتمام بهذا الفن العلمي ؟ .

- أم أن الحس العربي لدى المشارقة الذي لا يأبه كثيرًا بذكر الأشخاص كان هو الحاجز ؟.

- أم أن هناك أمورًا نفسية واجتماعية شكّلت مانعًا عن ذلك ؟.

ولكن ماهي السيّر التي تميّز الاهتمام الإباضي المغاربي بها عن الاهتمام الإباضي المشرقي ؟ .

دعونا أولاً، نتعرف على السيرة لغة ومفهومًا وتأصيلًا تاريخيًا لكلمة السيرة .

السيَر في اللغة

يقول الفيروز أبادي : وسيرة، جاء بأحاديث الأوائل(١).

وقد أطلق اسم السيرة على التاريخ النبوي، ذلك التاريخ الذي يهتم بتاريخ نبي الإسلام سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في جميع أحواله وأطوار حياته، منذ مولده الشريف، وحتى موته المدوي والمؤثر في الوجدان الإسلامي، حيث سجّل المسلمون حياة نبيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- تسجيلًا دقيقًا عميقًا، ناقلين ذلك نقلًا واعيًا ومستوعبًا، تشريعًا وآدابًا، وسلمًا وحربًا، وسرايا وغزوات، لتتكون من كل ذلك بداية التاريخ الإسلامي، وقد أطلقوا على ذلك التاريخ المجيد بعد التكوّن أو بعد تلك البداية اسم ((السيرة)) أو ((السيرة النبوية)) حتى أصبحت كلمة ((السيرة)) علماً أو حقيقة عرفية على تاريخ نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام .

على أن كلمة ((السيرة)) بمعنى السيرة النبوية ظهرت كما يقول المؤرخون على لسان الوالي الأموي خالد بن عبدالله القسري (ت١٢٦هـ) عندما أمر العالم محمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ) أن يكتب له السيرة النبوية قائلاً له: اكتب لي النسب، فبدأ الزهري بنسب مضر، فقال له خالد: اقطعه، قطعه الله مع أصولهم، واكتب لي السيرة(٢).

ومن هنالك اهتم المسلمون بتاريخ نبيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- فظهرت كتب السيرة النبوية، كسيرة ابن إسحاق، ومغازي الواقدي، وغيرهما من كتب السيرة النبوية، حتى أكثر المسلمون من التأليف في هذا المجال الحيوي الجميل .

وبما أن كلمتي السيرة والتاريخ تعنيان شيئًا واحدًا، أو أمرًا متقاربًا، فقد حملت بعض كتب التاريخ اسم السيرة، ككتاب ((تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان))(٣) .

وفي رأيي أن البداية الزهرية بذكر نسب مضر عندما أراد أن يكتب النسب هي التي جعلت

---

(١) القاموس المحيط، مادة: سير .

(٢) كتاب المغازي للواقدي، تحقيق مارسدن جونسن، المقدمة، ص١٩، نقلًا عن كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني .

(٣) كتاب عماني مشهور، لنور الدين السالمي، ويعتبر من أهم المراجع في التاريخ العماني .

النسّابين يبدأون كتبهم النسبية بذكر قبائل مضر بن نزار بن عدنان، تشرفًا بنسب النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- إليه .

على أن مفهوم السيرة أو السيّر، توسع عند الإباضية مشارقة ومغاربة، فأصبح يشمل السيرة النبوية، والتاريخ والرسائل التي تعالج أحكاماً عقدية أو فقهية بإسقاط الأحداث التاريخية عليها، أو تذكر أحداثاً تاريخية مسقطة عليها أحكاماً عقدية أو فقهية وكذلك تراجم الأشخاص .

وأعود إلى الإجابات الافتراضية التي ضمنتها الأسئلة المذكورة سابقاً، عن اهتمام الإباضية المغاربة بالسير، أكثر من الإباضية المشارقة بذلك .

والسير التي اهتم بها إباضية المغرب تلك التي تتعلق بتراجم الأشخاص، حيث ظهرت لهم كتب في ذلك، سوف نذكرها أو نشير إليها في موضعها إن شاء الله تعالى .

وفي رأيي أن ذلك راجع إلى الأمرين المذكورين معاً، وهما سقوط الدولة الإباضية في البلاد المغاربية وعدم استمرارها، ووجود الدولة واستمرارها لدى الإباضية المشارقة (العمانيين).

وكذلك الحس الأمازيغي الأعجمي لدى إباضية المغرب الذي يميل إلى تمجيد الأشخاص – إن صح التعبير- وهو على عكس الحس العربي الذي عليه إباضية المشرق، الذي لا يأبه بذكر الأشخاص وتمجيدهم، ويتضح ذلك في الموقف من الصحابة -رضي الله عنهم- فإن ذكر الصحابة بتقديس أو تقديس آل البيت جاء من قبل الأعاجم إلى حد إضفاء العصمة عليهم، ولم يأت ذلك من قبل العرب[1]ولعل هذا الأمر لدى جميع المذاهب الإسلامية .

وما يوجد في ذلك عن مؤلفين عرب لعله من قبيل التأثر بالمنهج الأعجمي .

وأضيف إلى السببين المذكورين، سببًا ثالثًا، وهو احتكاك الإباضية في بلاد المغرب بمخالفيهم، وتعرضهم إلى الكثير من المشاكل والمضايقات من مخالفيهم بعد سقوط دولتهم (الدولة الرستمية)، الأمر الذي جعلهم أكثر ارتباطًا بماضيهم تاريخًا وعلماء، وحملهم ذلك إلى الكتابة عنهم، تخليدًا

(١) أرجوان لا يفهم هذاعلى أنه نزعة عنصرية والعياذ بالله من ذلك، ولكنه نقاش علمي واجتماعي فقط، والإسلام هو أبو الجميع،

أبي الإسلام لا أب لي سواه • إذا افتخروا بقيس أو تميم

ونحن بنو الإسلام والله ربنا • وأولى عباد بالله من شكر

وهذا التحليل هو رأي شخصي لي وليس موقفاً مذهبياً .

لمآثرهم ذكرًا وتاريخًا.

وإذا كانت السيرة أو السير : لغة ومفهومًا وتأصيلًا تاريخيًا، حسب ما تم طرحه وذكره، فإننا سوف نتعرف على السيّر الإباضية لدى المشارقة من خلال العنوان التالي .

السيّر الإباضية لدى المشارقة

عند ذكر إباضية المشرق يتجه الذهن العلمي إلى العمانيين، فعمان هي مأرز الإباضية المشارقة، نظرًا لوجود الدولة الإباضية بها، تحت أية صيغة لنظام الحكم للدولة، سواء كانت دولة إمامة، أو دولة ملكية، فإن المذهب الإباضي هو المؤطر لها، والموّجه لها .

وقد اهتم الإباضية المشارقة بتأليف السيّر بيد أن ذلك التأليف قد اقتصر على كتابة التاريخ وعلى كتابة الرسائل المختصرة التي تعالج أحكاماً عقدية وفقهية بإسقاط الأحداث التاريخية عليها، أو العكس أي ذكر أحداث تاريخية بإسقاط أحكامًا عقدية وفقهية عليها،مع ذكر شيء مختصر جدًا من السيرة النبوية ضمن السياق العام للتاريخ .

أمّا التأليف فيما يتعلق بتراجم الأشخاص أو سيّر الأشخاص، فلم يكن هنالك اهتمام به يذكر، وقد وجد ذكر للعلماء في بعض المصادر المتأخرة دون تفصيل لحياتهم، وسوف نتطرق إلى ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأول السيّر الإباضية في المشرق، خطاب الإمام عبدالله بن إباض التميمي إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٨٦هـ) وقد أبان فيه أحداث الخليفة الثالث عثمان بن عفان، على اعتبار أن الأمويين يصوبون الخليفة الثالث على أحداثه التي ينكرها الإمام عبدالله بن إباض. وتأتي سيرة (رسالة) سالم بن ذكوان الهلالي في أواخر القرن الأول الهجري، وقد استعرض فيها جوانب مهمة من التاريخ الإسلامي منذ عهد النبي محمد -صلى الله عليه وسلم - مرورًا بعهود أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، مركزًا على أحداث الفتنة الكبرى على عهدي الخليفين الأخيرين، وبعد ذلك أخذ يوضح الكثير من مباديء الإسلام، ردًا على المرجئة والخوارج[1].

---

(١) يرى الإباضية أن الخوارج هم الذين خرجوا عن مبادئ المحكّمة، مشكلين فرق الأزارقة والصفرية والنجدات، بينما حافظ الإباضية على مبادئ المحكّمة القائمة على الشورى ونبذ العنف، وعدم تشريك المسلمين، وما نسب إلى المحكمة بخلاف هذا فهو من الأكاذيب والإفتراء .

وفي رأيي أن هذه السيرة، أول سيرة استعرضت وناقشت أحداث الفتنة الكبرى ولكن برؤية إباضية، كما أوضحت موقف الإباضية من مخالفيهم .

كما إنني أرى أن هذه السيرة شكّلت دستورًا للدول الإباضية التي قامت فيما بعد، في اليمن وعمان وبلاد المغرب، حيث كانت هذه السيرة كتبت قبل ظهور الدول الإباضية .

وتجيء بعد سيرة سالم بن ذكوان، سيرة خلف بن زياد البحراني وهي قريبة الشبه بها، وقد بين فيها الكثير من معالم الإسلام، ولكنها تميزت بذكر قضية ((دبا[1])) تلك القضية التي دارت أحداثها في آخر خلافة الخليفة الأول أبي بكر الصديق بين عامل الخليفة وأهل ((دبا)) والتي نظر إليها البعض أنها ردة لأن ذلك العصر كان عصر ارتداد عن الإسلام، بينما نظر إليها آخرون على أنها مجرد سوء فهم بين عامل الخليفة وأهل دبا .وصاحب السيرة يدافع عن أهل دبا وينفي عنهم الردة عن الإسلام .

وفي القرن الثاني الهجري كتب الإمام المحتسب سيرته الموسومة بـ((سيرة شبيب بن عطية)) وقد بيّن فيها ما كان عليه من احتساب لأمر الأمة، ومن قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث قام بذلك بعد القضاء على دولة الإمام الجلندى بن مسعود (١٣٢-١٣٤هـ) من قبل العباسيين .

ويكتب أبو أيوب الحضرمي سيرته في القرن الثاني الهجري، وقد بيّن فيها معالم الإسلام عقيدة وفقهًا، عبادات ومعاملات، سلمًا وحربًا، أورد ذلك بصورة مركّزة ومختصرة جدًا، الأمر الذي يصح به أن توصف هذه السيرة بأنها الخطوط العريضة للإسلام عقيدة وشريعة .

وهناك سيرة المنير بن النير الريامي في أواخر القرن الثاني الهجري، وقد وجهها إلى الإمام غسان بن عبدالله (١٩٢-٢٠٧هـ) مذكرًا إياه بما كان عليه الإمام الجلندى بن مسعود وأصحابه من عدل واستقامة ونزاهة وحسن بطانة، ويهدف من ذلك أن يسير الإمام غسان، بسيرة سلفه الإمام الجلندى .

---

(١)دبا منطقة في الجزء الشمالي من سلطنة عمان، وتتبع حالياً سلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة، والقسم العماني أحد مكونات محافظة مسندم .

وفـي أوائـل القـرن الثالـث الهجـري تبـرز سـيرة محبـوب بـن الرحيـل القرشـي بنسـختيها الموجهتيـن إلـى إباضيـة عمـان، وإلـى إباضيـة اليمـن .

وتحمـل السـيرة المحبوبيـة نقاشـاً لأفكـار هـارون بـن اليمـان وأصحابـه الذيـن يصـح أن يطلـق عليهـم بأنهـم النـكّار المشـارقة، وكان هـارون بـن اليمـان البصـري قـد وجّـه سـيرته بنسـختين أيضًـا إلـى عمـان وإلـى اليمـن، وقـد اتهـم محبـوب، هـارون بالخـروج عـن مبـادئ المذهـب التـي بلورهـا ورسـخها الإمامـان الكبيـران جابـر بـن زيـد وأبـو عبيـدة مسـلم بـن أبـي كريمـة .

بيـد أن آراء هـارون ومجموعتـه لـم يكتـب لهـا النجـاح والاسـتمرار، فقـد طغـت عليهـا آراء محبـوب، ومـن هنـاك أصبـح محبـوب بـن الرحيـل ممـن تجـوز عليهـم نسـبة المذهـب، المعروفـة بنسـب الديـن .

ومـن السـيّر المهمـة سـيرة الإمـام المهنـا بـن جيفـر (٢١٦-٢٣٧هـ) التـي وجههـا إلـى معـاذ بـن حـرب[١]، وقـد بيـن فيهـا مبـادئ الإسـلام ومعالمـه .

وكذلـك عهـد الإمـام الصلـت بـن مالـك (٢٣٧-٢٧٣هـ) الـذي زوّد بـه الحملـة العسـكرية التـي وجههـا لإسـترداد جزيـرة سـقطرى مـن النصـارى، يعتبـر مـن السـير المهمـة، وقـد أوضـح فيهـا أحـكام الإسـلام فـي السـلم والحـرب وكيفيـة معاملـة النصـارى المسـالمين والمحاربيـن .

ويكثـر هـذا اللـون مـن التأليـف، ألا وهـو تأليـف السـيّر (الرسـائل) فـي أواخـر القـرن الثالـث الهجـري ومـا بعـده، نتيجـة الأحـداث والاختلافـات التـي ترتبـت علـى عـزل أو انعـزال الإمـام الصلـت بـن مالـك (٢٣٧-٢٧٣هـ)، حيـث انقسـم العلمـاء العمانيـون إلـى فريقيـن، فريـق مؤيـد لبقـاء الإمـام الصلـت فـي إمامتـه علـى شـيخوخته وعجـزه .وفريـق مؤيـد للخارجيـن عليـه المطالبيـن بعزلـه أو انعزالـه .

وصـار كل فريـق يكتـب مـا يـراه ويعتقـده صحيحًـا حسـب وجهـة نظـره، مسـقطين علـى آرائهـم تلـك، الأحـكام العقديـة، لاسـيما فـي مجالـي الولايـة والبـراءة اللذيـن اتضحـت معالمهمـا بصـورة أوسـع وأكبـر وأكثـر نتيجـة ذلـك الحـدث، ومسـتدعين فـي نفـس السـياق الشـواهد مـن التاريـخ الإسـلامي، وبالتحديـد مـن أحـداث الفتنـة الكبـرى الواقعـة علـى عهـد الخليفيـن عثمـان وعلـي .

---

(١) لا ندري من هو معاذ بن حرب، ولا من أيّ بلد، ولعله من أهل اليمن .

ويكثـر هـذا اللـون مـن التأليـف غـزارة نتيجـة تلـك الأحـداث حتـى القـرن السـادس الهجـري، وقـد تكـوّن مـن تلـك السـيّر الممتـدة زمنًـا مـن القـرن الأول إلـى القـرن السـادس الهجـري عـدد مـن السـيّر، تشكل منها مـا عـرف فيمـا بعـد بــ((مجمـوع سـيّر المسلمين)) وقـد حمـل هـذا المجمـوع بالإضافـة إلـى هـذا العنـوان، عناويـن أخـرى، كسـير العلمـاء والأئمـة، والسـير والجوابـات، وسـير علمـاء الإباضيـة، ولكـن الشـهرة للعنـوان الأول، وهـو ((مجمـوع سـير المسلمين)) ولعـل جمـع تلـك السـير كان قد تـم فـي القـرن السـادس أو السـابع للهجـرة، ثـم أضيفـت إليهـا سـيرة أحمـد بـن مـداد مـن القـرن العاشـر، وقـد ضمّـن أحمـد بـن مـداد سيرتـه إنـكاره بعضًـا مـن تصرفـات الإماميـن محمـد بـن إسـماعيل وابنـه بـركات التـي يراهـا بأنهـا مخالفـة للمنظومـة العامـة للشـريعة الإسـلامية حسـب وجهـة نظـره .

وتوجـد مـن كتـاب ((مجمـوع سـير المسـلمين)) عـدد كثيـر مـن النسـخ المحفوظـة تتفـاوت حجمًـا وعـددًا مـن السـير، حيـث أن بعـض النسـخ يربـو عـدد السـيّر فيهـا علـى سـتين (٦٠) سـيرة، بينمـا يقـل هـذا العـدد فـي نسـخ أخـرى .

وقـد قامـت وزارة التـراث والثقافـة بسـلطنة عمـان بطبـع عـدد مـن تلـك السـيّر، تحـت مسـمى ((السـيّر والجوابـات)) بتحقيـق وتعليـق الأسـتاذة الدكتـورة سـيدة إسـماعيل كاشـف، أسـتاذة التاريـخ الإسـلامي بكليـة البنـات بجامعـة عيـن شـمس، بجمهوريـة مصـر العربيـة، ويشـتمل علـى أربـع وثلاثيـن (٣٤) سيرة . أمـا التأليـف فـي التاريـخ فقد بـدأ فـي القـرن الرابـع الهجـري علـى يـد أبـي سـعيد الكدمـي الـذي كمـا يقـال ألّـف كتابًـا فـي التاريـخ العمانـي سـمّاه ((التاريخيـات)) وهـو يذكـر ولا يبصـر .

كمـا ألّـف العوتبـي كتابـه ((الأنسـاب)) وقـد ضمّنـه مسـاقات تاريخيـة، عنـد ذكـره لأنسـاب القبائـل القحطانيـة والعدنانيـة، وأصبـح المرجـع الأول فـي الأنسـاب العمانيـة، وفـي تاريـخ هجـرة القبائـل العربيـة مـن جنـوب الجزيـرة العربيـة وشـمالها إلـى عمـان، وتاريـخ إسـلام أهـل عمـان، وغيـر ذلـك مـن السـياقات التاريخيـة، وكتـاب الأنسـاب للعوتبـي مـن الكتـب المشـهورة وهـو مطبـوع متـداول.

وفـي القـرن السـادس الهجـري ألـف أحمـد بـن النظـر كتابًـا تاريخيًـا سـماه ((سـلك الجمـان فـي سـيرة أهـل عمـان)) ولكنـه أتلـف ضمـن مؤلفاتـه الأخـرى ومكتبتـه .

واسـتمر بعـد ذلـك، التأليـف فـي مجـال التاريـخ، لاسيما فـي التاريـخ العمانـي، ولكنهـا تعتبـر قليلـة ولـم

تستوعب الحراك التاريخي لعمان، حيث أن هناك مراحل من التاريخ العماني مفقودة، وحلقات منه غير مترابطة .

ونذهب إلى القرن العاشر الهجري، لنجد ظهور نوع آخر من التأليف في السير، ألا وهو ذكر العلماء وبلدانهم مع ذكر تاريخ الولادة والوفاة فقط إن وجد، ويمثل هذا النوع من التأليف الكتاب الموسوم بـ((سيرة عبدالله بن مدّاد[١])) وهو كتيّب صغير إلا أنه كبير الفائدة، والظاهر أنه أصبح المرجع المهم في ذكر عدد كبير من العلماء الإباضية من عمان وغيرها .ونجد خميس الشقصي في القرن الحادي عشر الهجري يخصص القول[٢] السادس والأربعين: في ذكر العلماء وأسمائهم وشيء من أخبارهم، معتمدًا على ما يظهر على سيرة ابن مداد.وقام بالشيء ذاته سرحان الأزكوي، حيث جعل الباب التاسع والثلاثين من كتابه ((كشف الغمة)) في تواريخ موت بعض الصحابة وذكر علماء الإباضية من عمان وغيرها، معتمداً هو الآخر على سيرة ابن مداد وعلى كتاب منهج الطالبين . وفي هذا العصر جاء كتاب ((إتحاف الأعيان)) لسيف بن حمود البطاشي، وهو في تراجم الأشخاص .

هذه هي السيّر الإباضية لدى المشارقة، ذكرتها بشكل مختصر جدًّا أو لنقل إلقاء نظرة سريعة عليها، تعرفًا وتعريفًا بمنهج الإباضية المشارقة في سيرهم المتوزعة بين رسائل تربط المواقف السياسية والأحكام العقدية والفقهية، ومؤلفات تاريخية، وأخرى فيها ذكر العلماء أسماء وبلدانًا وتاريخًا للولادة والوفاة .

وإذا كانت هذه سيّر الإباضية المشارقة، فماذا عند إخوانهم الإباضية المغاربة ؟ .

السيّر الإباضية لدى المغاربة

عندما يقال: الإباضية المغاربة، يقصد بذلك أولئك القوم الموجدون في الدول الثلاث: ليبيا وتونس والجزائر، أو في المغربين الأدنى والأوسط .

---

(١) وهو الذي سمّاه الدكتور عمرو بن خليفة النامي: صفة نسب العلماء وموتهم وبلدانهم، في تحقيقه لكتاب، أجوبة ابن خلدون، ولعله يحمل هذا العنوان في المكتبات المغاربية .

(٢)جعل الشقصي الفصول في كتابه ((منهج الطالبين)) أقوالًا .

ومـن المعلـوم أن الخارطـة الديمغرافيـة الإباضيـة فـي المناطـق المذكـورة، كانـت أوسـع بكثيـر عمـا هـي عليـه الآن . ولقـد اهتـم الإباضيـة المغاربـة بالكتابـة فـي السـيَر، متمثلـة فـي المواعـظ والحكـم والأمثـال، وفـي السياق التاريخـي للأحداث، وفـي تراجـم الأشـخاص، ولقد كان عملهم فـي ذلـك أكثـر مـن الإباضيـة المشـارقة كمـا ذكـرت سـابقاً لاسـيما فـي تراجـم الأشـخاص، فهـم مكثـرون، والإباضيـة المشـارقة مقلـون، بـل معدمـون، وسـيتضح ذلـك فـي الصفحـات التاليـة مـن هـذا المحـور وقـد بينـت الأسـباب الداعيـة لهـم إلـى هـذا الأمـر فيمـا تقـدم حسـب رأيـي واجتهـادي فـي ذلـك، والعلـم عنـد الله عزوجـل .

وقـد بـدأ الإباضيـة المغاربـة فـي كتابـة السـيَر فـي القـرن الثالـث الهجـري حيـث ألّـف لـواب بـن سـلام كتابـه القيـم ((بـدء الإسـلام وشـرائع الديـن)) ولعلـه أول كتـاب فـي التاريـخ يؤلـف فـي البـلاد المغاربيـة.

ويشـتمل كتـاب ابـن سـلاّم علـى موضوعـات عقديـة وفقهيـة وفكريـة وتاريخيـة وأسـماء لعـدد مـن العلمـاء الإباضيـة مـن بلـدان مختلفـة، بيـد أن السـياق التاريخـي لتلـك الموضوعـات هـو الـذي يهيمـن علـى الكتـاب .

ويؤلـف أبـو الربيـع سـليمان بـن يخلـف المزّاتـي سيره المعروفـة بـــ((سـير أبـي الربيـع)) فـي القـرن الخامـس الهجـري، وقـد ضمّنهـا حكمًـا ومواعـظ ونصائـح قيّمـة مفيـدة، نقـل بعضًـا منهـا علـي يحيـى معمـر[١] .

وقـد كان النشـاط الإباضـي المغاربـي تأليفًـا فـي السـيّر قـد نشـط علـى مـا يظهـر منـذ القـرن السـادس الهجـري، فقـد ظهـرت فـي هـذا القـرن السـيّر التاليـة :

- كتـاب السـيرة وأخبـار الأئمـة لأبـي زكريـا يحيـى بـن أبـي بكـر الوارجلانـي وهـو كتـاب تاريخـي فـي غايـة الأهميـة، لأنـه أول كتـاب يـؤرخ بالتفصيـل للـدول الإباضيـة فـي بـلاد المغـرب، كدولـة الإمـام أبـي الخطـاب المعافـري، ودولـة الإمـام أبـي حاتـم الملـزوزي ودولـة الإمامـة الرسـتمية، وهـو المصـدر الأول فـي ذلـك .

- سـيّر الوسـياني، لأبـي الربيـع سـليمان بـن عبـد السـلام الوسـياني وهـو كتـاب واسـع، ويمتـاز بذكـر

(١)الإباضية في تونس، ص١٤١، الحلقة الثالثة من كتاب الإباضية في موكب التاريخ .

العلماء ومسائلهم العقدية والفقهية مع شيء من بعض مواقفهم، وهو – في رأيي – يعتبر مرجعًا في علمي العقيدة والفقه منسوبين إلى أصحابهما .

وتتبين أهمية كتاب سير الوسياني في قول أبي العباس الدرجيني فيه ((إنك مهما وجدت في هذا الكتاب – أي طبقات المشايخ – أو غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الكبار[1])) .

- سيّر نفوسه، لمقزين بن محمد البغطوري، ولعله على طريقة أبي الربيع الوسياني، في ذكر العلماء ومسائلهم في العقيدة والفقه - ولم أطلع عليه - .

- وشهد القرن السابع الهجري تطورًا في تأليف السير لدى الإباضية المغاربة، فقد كان ذلك في تراجم الأشخاص عبر التسلسل الزمني، والترجمة الشخصية هي الحديث عن شخص ما، رجلاً كان أو امرأة، وعن صفاته التي في الغالب ما تكون إيجابية حميدة .

وقد تمثل ذلك في كتاب ((طبقات المشايخ بالمغرب)) لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني وقد تكوّن الكتاب المذكور من جزأين :

الأول : في التاريخ .

الثاني : في التراجم .

وقد جعل تراجم الأشخاص في طبقات متسلسلة زمنيًا، حيث جعل لكل قرن طبقتين، جاعلاً المترجم لهم في اثني عشر طبقة وكان السبب في تأليف أبي العباس الدرجني لكتابه هذا كما يقول أبو القاسم البرّادي في جواهره، هو طلب أهل عمان الذي نقله عنهم الحاج عيسى بن زكريا الذي كان قد زار عمان، في رغبتهم في تأليف مثل هذا الكتاب للتعرف على علماء وأئمة إخوانهم الإباضية المغاربة[2] .

وظهر في القرن الثامن كتاب ((الجواهر المنتقاه فيما أخلّ به كتاب الطبقات)) لأبي القاسم

(1) طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، ص335، تحقيق ابراهيم طلاي، الطبعة الثانية .

(2) الجواهر المنتقاه، ص19، دار الحكمة، لندن .

البرّادي، استكمالاً كما يقول مؤلفه لكتاب طبقات المشايخ بالمغرب لأبي العبّاس للدرجني، وقد تناول أحداث الفتنة الكبرى بصورة واسعة وتفصيلية، وهو – حسب رأيي – أوسع كتاب في تاريخ الفتنة الكبرى برؤية ورواية إباضيتين .

وألّف أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي كتاب ((السير)) المشهور، مقتفيًا أبا العباس في طبقاته، وأصبح كتاب السير للشماخي مشهورًا ذائع الصيت، وهو أوسع كتب التراجم الإباضية إلى زمن مؤلفه . وأقول أن طبقات الدرجني، وسير الشماخي ربطا المشرق بالمغرب إباضيًا، وعليهما اعتمد العمانيون في معرفة علماء وأئمة الإباضية المغاربة، وعلماء وأئمة الإباضية الأوائل من مختلف الأماكن لا سيما في القرنيين الأول والثاني الهجريين .

ولعله من الطريف أن نقول: إنّ تشابه الرجلين، صاحب الطبقات وصاحب السير في كنيتيهما واسميهما، له دور في تشابه كتابيهما، حيث أن كلاً منهما أبو العباس وكلاً منهما أحمد بن سعيد .

وظهر في القرن العاشر الهجري، كتاب تراجم علماء جربة لأبي الربيع سليمان بن أحمد الحيلاتي الذي اقتصر على الترجمة لعلماء جربة بالقطر التونسي .

وكذلك ألّف في هذا القرن أبو زكريا محمد بن زكريا الباروني كتابه ((سير الباروني))، معتمداً طريقة أبي العباس الدرجني في تقسيم كتابه إلى طبقات للمترجم لهم .

على أن هذا اللون من التأليف في السير، ألا وهو التأليف في تراجم الأشخاص هو الذي برز وبرّز فيه إباضية المغرب، وتميزوا به عن إباضية المشرق .

والظاهر أن هذا الفن من التأليف قد اختفى إباضيًا مغاربيًا بعد القرن العاشر الهجري حسب اطلاعي حتى ظهر في هذا العصر على يدي العالمين الجليلين، أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى من الجزائر في كتابه ((ملحق السير)) وعلي يحيى معمر من ليبيا، في كتابه ((الإباضية في موكب التاريخ)) على أن هناك كتبًا أخرى في السير الإباضية المغاربية لم نأت إلى ذكرها كسير أبي عمار عبد الكافي، وسير أبي سهيل يحيى بن إبراهيم، وسير أبي نوح صالح بن إبراهيم، وسير أبي عمر عثمان بن خليفة السوفي وغيرها من السير الإباضية ، ولعل أهمها ((كتاب المغرب في تاريخ المغرب)) لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني وعسى أن يمن الله

بالعثـور عليـه .

هـذه هـي لمحـة موجـزة عـن السـير لـدى المغاربـة، كمـا تقدمـت أيضًـا لمحـة موجـزة عـن السـير الإباضيـة لـدى المشـارقة، أحببنـا إعطـاء صـورة عنهـا فـي هـذا البحـث ولعلـه يصلـح أن يكـون مدخـلًا إلـى ذلـك .

وننـوّه هنـا بمعجـم أعـلام الإباضيـة الـذي أعـده محمـد صالـح ناصـر الجزائـري، وسـلطان بـن مبـارك الشـيباني العمانـي .

الخاتمة

اهتـم الإباضيـة بكتابـة السـير، كفـن مـن فنـون التأليـف، منـذ عصـر مبكـر للإسـلام حيـث ظهـرت سـيرة سـالم بـن ذكـوان الهلالـي علـى رأس القـرن الأول الهجـري، وقـد تجلـت الكتابـة فـي ذلـك، فـي ذكـر أحـداث تاريخيـة محكـوم عليهـا عقديـاً وفقهيـاً لمناقشـة قضايـا معينـة تاريخيـاً، كمـا تجلـت فـي الكتابـات التاريخيـة المجـردة المتمثلـة فـي كتـب التاريـخ، ثـم تجلـت فـي كتـب تراجـم الأشـخاص، وهـذا الفـن العلمـي تمثـل فـي الكتابيـن الجليليـن المهميـن، طبقـات الدرجينـي وسـير الشـماخي اللـذان طبّقـت شـهرتهما الآفـاق، وكان لهمـا الفضـل فـي ربـط المشـرق بالمغـرب إباضيًـا، فمنهمـا عـرف المشـارقة علمـاء المذهـب المغاربـة .

فلئـن اشـترك الإباضيـة مشـارقة ومغاربـة فـي التأليـف فـي الفنيـن السـابق ذكرهمـا، وهمـا ذكـر الأحـداث التاريخيـة فـي ضـوء الأحـكام العقديـة والفقهيـة، وفـي السـياق التاريخـي .

فـإن التأليـف فـي تراجـم الأشـخاص هـو ممـا تميـز بـه إباضيـة المغـرب عـن إباضيـة المشـرق، وكان الرائـد الـذي لـم يكـذب أهلـه فـي ذلـك، هـو أبـو العبـاس الدرجينـي صاحـب كتـاب طبقـات المشـايخ بالمغـرب . فعنـه أخـذ مـن جـاء بعـده فـي فنّـه، وكانـوا عالـة عليـه، بيـد أن الـكل يسـتخفون التقديـر فيمـا نقلـوا وفيمـا أضافـوا، ولا نقـول: مـا تـرك الأول للآخـر، بـل نقـول: كـم تـرك الأول للآخـر .

لأن في المقولة الأولى، تفتير للهمم، أما في المقولة الثانية تحفيز للهمم .

والله وليّ التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

البرّادي أبو الفضل أبو القاسم

(٧٢٠/٨١٠ . ١٣٢١/١٤٠٧)

فرحات الجعبيري

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ بتونس

farhatjaabiri@yahoo.fr

البرّادي أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي ابن سليمان بن إبراهيم بن أبي عمران الدمّري نسبة إلى دمّر، والبرّادي لقبه الّذي اشتهرت به أسرته. (٧٢٠/٨١٠ ـ ١٣٢١/١٤٠٧). موطنه: « جبل دمّر سلسلة جبليّة تمتدّ من جنوب طرابلس إلى جنوب قابس، وهي امتداد لجبل نفوسة، ويطلق على سكّانها: أيت دمّر أو أيد دمّر. راجع ابن خلدون ملحق ٥٠٢» (كتاب السّيرة ١١٥).

يقول عنه التّيجاني: « وهو جبل مرتفع في السّماء قد سهلت فيه طرق ضيّقة لا يسلكها السّالك إلاّ على غرر، وقد تدرّب أهلها على سلوكها فهم ينازون فيها تنازي العصم، وكذلك غنمهم وإبلهم، يسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الآدمي سلوكها إلاّ بالحيلة «عن» معمّر الإباضيّة في تونس ٩٦».ويذكر حسن حسني عبد الوهّاب (١٣٣٨ ـ ١٩٦٨) أنّ وجود أبي الخطّاب عبد الأعلى (١٤٤ـ ٧٥٨) سنة (١٤١ ـ٧٥٥) بطرابلس سهّل له الاستيلاء على جزيرة جربة وجبل دمّر وكان هذا كلّه في عام واحد. « مؤنس الأحبّة تونس ١٩٨٥ ص ٤٤ ـ ٤٥، نقلا عن بحّاز إبراهيم، الدّولة الرّستميّة، ٦٦.

وجاء عند أبي زكرياء: « وحدّث غير واحد من أصحابنا أنّ الإمام عبد الوهّاب (١٧١ / ٢٠٨ ـ ٧٨٧ / ٨٢٣)- رضي الله عنه- أراد المسير إلى الحجّ، فأخذ في هيئة السّفر. فمضى حتّى وصل جبل دمّر مع زوجته. فجاز بها واستعمل عليهم رجلا يقال له مدرار (المنتصر الّذي تزوّج أروى بنت عبد الرّحمان ابن رستم وولي سجلماسة في النّصف الثّاني من القرن الثّاني

راجع زمبوار ٦٤)، وللإمام بها مصلّى يقال له تلات، وفي موضع المصلّى بلاط يتّكئ عليه الإمام-رضي الله عنه- كقعدة فيستوي رأسه مع رأس البلاطة، وهي اليوم تبلغ للواقف إلى الصّدر (السّيرة ١١٥).ويذكر الشمّاخي أنّ الإمام عبد الوهّاب عندما غادر جبل نفوسة راجعا إلى تاهرت « أرسل إلى قابس قطعان بن سلمة الزّواغي فحاصرها وكان خارج قابس مطماطة وزنزفة ودمّر وزواغة وغيرها تحت ولاية نظره، وكذا جربة» (سير ١٦١).

ويستمرّ ذكر أخبار جبال دمّر الإباضيّة في كتب السّير إلى القرن التّاسع/١٥، فمن ذلك استعداد أهل هذا الجبل إمداد أبي مسور (ق ٤/١٠) عندما سخر منه النّكار بجربة أثناء تركيزه الوهبيّة بجيش يكون « أوّله بجربة وآخره بجبل دمّر» (طبقات ٣٣٧).ومن ذلك مؤازرة أهل هذا الجبل لأبي خزر (٣٨٠ -٩٩١) وأبي نوح في ثورتهما على المعزّ لدين الله الفاطمي، ومن ذلك رحلة أبي صالح اليراسني لنشر العلم هنالك مع ابنه ويسلان (سير ٣٣٧).

إلى أن تأتي أخبار أسرة البرّادي وعلى رأسها أبو القاسم فكان لها الدور الفعّال في تثبيت الإباضيّة هنالك، وبانقراض البرّاديّين انقرض المذهب من هناك، ويعتبر العدّالي أنّ البرّاديّين عايشوا الطّور الثّالث من أطوار الإباضيّة بجبل دمّر وهو طور التّقلّص والانقراض. (البرّادي حياته ومؤلّفاته ص ٤٧).

هذا عن جبل دمّر فماذا عن حياة أبي القاسم ومؤلّفاته ؟

حياته: لخّص الشمّاخي حياة أبي القاسم كما يلي: « ونقدّم أنّه أخذ العلم عن أبي ساكن عامر الشمّاخي (٧٩٢ - ١٣٩٠) وأخذ أيضا عن عمّنا يعيش الجربي (٧٥٠ - ١٣٥٠) ... سكن بلده زمانا، ثمّ تحوّل إلى جربة فأقام بها بمسجد وادي الزّبيب، وكانت عليه حلقة ومجلس عظيم، ومات بها، وخلّف أولادا نجباء سادوا بجربة وبجبل دمّر. « (٥٧٤)

النّشأة: يرجّح الشّيخ سالم بن يعقوب أنّه ولد في حدود ٧٢٠ - ١٣٢١ بجبل دمّر وقد تبيّنا تأصّل الإباضيّة فيه من وقت مبكّر فنهل ممّا بقي في المحيط من علوم هي حفظ القرآن الكريم والسنّة الشّريفة، ومتون العقيدة، والفقه، واللّغة، وما إلى ذلك، ولم تشر المصادر عمّن أخذ هناك، وهي عادة فئة من المؤدّبين، لا يخلو منها محيط من المحيطات الإسلاميّة يحافظ على كيانه،

قادرة على تزويد النّاشئة بهذه الأسس الأوّليّة في العلوم الإسلاميّة.

الرّحلة في طلب العلم: تثبت هذه الرّحلة أنّ نجم دمّر في أفول إذ لم يجد أبو القاسم ما يشفي غليله من العلوم فيمّم نحو معقلين من معاقل العلم عند الإباضيّة، وهما جبل نفوسة وجزيرة جربة، وإن قدّم الشمّاخي جبل نفوسة فالقرائن تجعلنا نرجّح أنّ الرّحلة إلى جربة متقدّمة، ومهما يكن من أمر فالثّابت أنّه نهل من الموطنين.

في جربة: قرينتان تدفعان إلى أن نعتبر أنّ الابتداء بجربة أقرب إلى الواقع، فالجزيرة أقرب من حيث المسافة من جهة أولى، وللشّيخ يعيش الّذي قصده البرّادي صلة بجبل دمّر إذ يقول الشمّاخي: « إنّه سكن دمّر» (٥٦١)، مع ملاحظة ثالثة تتمثّل في أنّ الشّيخ يعيش دون الشّيخ عامر الشمّاخي شهرة وعلما، وما من شكّ في أنّ أبا القاسم كان يتردّد على المدارس العلميّة بجربة مدرسة الجامع الكبير وقد كانت عامرة بإسماعيل بن موسى الجيطالي (٧٥٠ ـ ١٣٥٠)، ولسنا ندري لم سكتت المصادر عن هذا الافتراض المعقول إذ لا يمكن لمثل أبي القاسم ألاّ يجلس للجيطالي وأن يتمحضّ لشيخه يعيش وهو دون الجيطالي علما. ولعلّ ذلك يرجع إلى المنافسة الّتي قد تطرأ بين الأحبّة. ومدرسته (الشّيخ يعيش) جامع تاجديت بحومة فاتو ولعلّه أدرك شيخ شيخه يعيش وهو صالح بن نجم المغراوي (ق ١٤/٨) الّذي تمحّض للتّدريس طيلة أربعين سنة بهذه المدرسة.لكنّه حطّ الرّحال بمدرسة جامع وادي الزّبيب وهي مدرسة ناشئة في عنفوان منافستها للمدارس الأخرى لأنّها أسّست من أجل شيخه يعيش قرب مسكنه بحومة جعبيرة لتخفيف عناء التنقّل اليومي وربحا للوقت إذ المسافة بين الجامعين تقارب خمسة عشر كيلومترا. فكان أبو القاسم باكورة عطاء هذه المدرسة النّامية الّتي نافست بسرعة بقيّة المدارس خاصّة عندما استقرّ بها أبو القاسم بعد حين.

ونرجّح أن تكون هذه الإقامة لطلب العلم بجامع وادي الزّبيب في حدود ٧٤٠ ـ ١٣٤٠ إذ كانت وفاة يعيش شيخه في حدود سنة ٧٥٠ ـ ١٣٥٠.

في يفرن بجبل نفوسة: بعد أن نقل معمّر تعريف سليمان باشا الباروني (١٣٥٩ ـ ١٩٤٠) ليفرن يقول: « وتقع هذه المدينة الكبرى بقراها التّابعة لها على منبسط من الجبل قد تنتأ فيه ربوة غير عالية أو ينحدر فيها واد غير عميق، والمنطقة الّتي تقع فيها هذه المدينة تعتبر من

أجمل مناطق الجبل وأخصبها أرضا، وأجودها تربة، وألطفها هواء، وأعذبها ماء (الإباضيّة في ليبيا ج ٢ ص ١١٣).

في هذا المحيط الآمن الّذي يقع شرقي جبل نفوسة درجة ١٢°٣٠ في المدرسة الّتي أسّسها عامر الشمّاخي (٧٢٢ ـ ١٣٢٢) بعد أن ملأ وطابه علما عن شيخه أبي موسى عيسى الطّرميسي (٧٢٢ ـ ١٣٢٢) في مدرسة البَخَابْخَة حطّ أبو القاسم الرّحال لينهل ممّا أوتي الشمّاخي من علوم أبرزها تضلّعه في الفقه، وكتابه الإيضاح يشهد بذلك إذ يرمز إليه بالكتاب في المؤلّفات الفقهيّة الّتي جاءت بعده في المغرب والمشرق، والكتاب مطبوع في لبنان في أربعة أجزاء وفي عمان في ثمانية أجزاء.

إقامته حينئذ في مدرسة ناشئة كما كان الأمر بجربة على مسلك الإباضيّة في نظام الحلقة الّذي يجمع المتعايش فيه بين التّضلّع في مختلف فنون العلوم الإسلاميّة وبين اكتساب الأخلاق الفاضلة القائمة على الانضباط المحكم، ولولوع البرّادي بهذه التّجربة التّربويّة حرص على نقلها فيما بعد في كتابه الجواهر.

في دمّر: نرجّح أنّ البرّادي رجع إلى بلده في أواخر العقد الخامس من القرن السّابع /١٣ لينشر ما وهبه الله من علم لكنّ المحيط لم يكن ملائما ولا يمكّن من بعث ما اندرس، وقد طغى التيّار المالكي على هذه الرّبوع.

لذلك ما أن توفي شيخه يعيش بعيد ٧٥٠ ـ ١٣٥٠ حتّى انتدب للاضطلاع بجميع مهام مدرسة جامع وادي الزّبيب حيث استقرّ نهائيّا هناك ومنزل سكناهم ما يزال إلى اليوم ٢٠٠٤ قريبا من هذا الجامع الّذي صار يعرف بجامع ولحي في حومة جعبيرة.

البرّادي في جربة: يقول الحيلاتي: « ثمّ تولّى بعده (يعيش ابن موسى المَغْرَاوي) أبو الفضل قاسم البرّادي وهو المدرّس بالجامع المذكور (وادي الزبيب). وإذا وردت نازلة يجتمع هو وأكابر المشائخ عند عمّنا سعيد يامون (٨٠٠ ـ ١٣٩٧) من حومة غيزن من جانب صدغيان لقدم هجرته وكثرة بركاته، ويخرج الرّأي من جميعهم وذلك في القرن الثّامن ـ ١٤ (نظام ٣٢٨).

عرفت الجزيرة زمن شباب أبي القاسم أحداثا جلّى ذاك أنّها ظلّت تتراوح بين أيدي

الحفصيّين والمرينيّين والنّصارى فكان « المساكين (أهل جربة) بين نارين، سيطرة النّصارى المحتلّين لأرضهم من جهة، ومطالبتهم من طرف هذه الحملات الحفصيّة بدفع الخراج للدّولة « على حدّ عبارة محمد المرزوقي (١٤٠٢ ـ ١٩٨١) محقّق كتاب مؤنس الأحبّة ص ١٠٣ (راجع نظام ٣٠٢ ـ ٣٠٣).وظلّت جربة على هذه الحال إلى أن انتزعها أبو العبّاس أحمد الثّاني الحفصي (٧٩٦/٧٧٢ ـ ١٣٧٥/١٣٧٠).(نظام ٣٠٣).

وقد كان لمدرسة جامع وادي الزّبيب دور فعّال في هذه الأحداث ذاك أنّ الجامع بني لغرض علمي ولغرض دفاعي ليكون مؤازرا لبقيّة المدارس الأخرى خاصّة منها مدرسة الجامع الكبير وجامع تاجديت وجامع مدراجن الّتي كانت قلاعا على الواجهة الشّرقيّة بينما كان هذا الجامع على الواجهة الغربيّة مع العلم أنّه بني في مكان استراتيجي في منخفض يبعد أقلّ من نصف كلم عن أعلى نقطة في جربة، وبسرعة تفطّن له النّصارى واعتبروه من المراكز الدّفاعيّة الهامّة.

لم تذكر المصادر للبرّادي مشاركة فعليّة في هذه الأحداث لكن اكتفت بذكر دوره العلميّ، وما كانت مثل هذه الأحداث أن تفتّ في نشاط الحياة العلميّة بالمدرسة بل كانت تزيدها إذكاء. وفعلا فقد كان للبرّادي دور فعّال في حفظ نظام العزّابة وعمل على تطبيقه والسّهر عليه لما رأى فيه من فائدة عمليّة وعلميّة، وقد أعدّ الجامع لهذه المهمّة ليأوي الطّلبة من داخل الجزيرة وخارجها (انظر وصف الجامع نظام ٢٤٧). ثمّ إنّه كان إلى جانب التّدريس والتّأليف يشارك في حلّ المشاكل الاجتماعيّة إذ كان يحضر الاجتماعات الدوريّة الّتي يشرف عليها أسنّ الجماعة وهو الشّيخ سعيد بن علي يامون (٨٠٠ ـ ١٣٩٧).

رحلتا البرّادي: ١ـ يذكر لويكي (Lewisky) أنّ أبا القاسم زار وادي أريغ (تقرت حاليّا ببلاد الجزائر) سنة (٧٦٦ ـ ١٣٦٤) اعتمادا على إشارة وردت في رسالة تآليف الإباضيّة حيث يقول « وله (أبو يعقوب الوارجلاني (٥٧٠ ـ ١١٧٥) في تفسير القرآن كتاب عجيب رأيت منه في بلاد أريغ سفرا كبيرا» (أراء الخوارج الكلاميّة ٢ / ٢٩٣).

والرّجل مولع بجمع الكتب وتعريفها، ومثل هذه المهمّة تقتضي التّجوال والتّرحال، وهو بذلك يكون قد مرّ بمن بقي من الإباضيّة عبر قسطيليّة، ووادي سوف، ووارجلان، عسى أن ينقذ ما يمكن أن ينقذ.

٢) أداء فريضة الحجّ سنة ٧٧٥ ـ ١٣٧٣ كما هو مثبت في مقدّمة كتاب كشف الغمّة لأحد العمانيّين، وقد أرسل في طلبه فلم يأته إلاّ في الموسم القابل، والنّسخة موجودة بالبارونيّة جربة.

وفاته: نساند التّاريخ الّذي افترضه الشّيخ سالم بن يعقوب (و هو ٨١٠ ـ ١٤٠٧) تقريبا، وذلك لأنّ أبا فارس الحفصي (٧٩٦/٨٣٧ ـ ١٣٩٤/١٤٣٣) طلب أحد علماء جربة للمناظرة فتعيّن أبو محمّد ولد الشّيخ أبي القاسم ولا يمكن أن يتقدّم على والده لأنّه أغزر منه علما.

مؤلّفاته: لقد فصّل الكلام فيها سالم العذّالي في أطروحته عن البرّادي تفصيلا شافيا نختصر منه ما يلي:

١) ـ التّاريخ: الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطّبقات (يعني طبقات الدّرجيني ٦٧٠) ط حجريّة بارونيّة القاهرة ١٣٠٢ ـ ١٨٨٥، ٢٣٩ صفحة من الحجم المتوسّط.

إن عنوان الكتاب معبّر عن سبب التأليف ذاك أنّ البرّادي لاحظ أنّ الدّرجيني تحاشى الوقوف عند أحداث الفتنة الكبرى لأنّ ظروف بلاد الجريد لا تسمح بذلك فتدارك هذا النّقص لما لمسه من حاجة المجتمع الإباضيّ لذلك، خاصّة في أوساط الطّلبة والعلماء فيما يتعلّق بالمسائل الخلافيّة، وقد شجّعه ذلك على الإقدام على هذا العمل الّذي مثّل أوّل كتاب ألّفه وذلك بجبل دمّر.

وقد تضمّن الكتاب مقدّمة بها عناوين: الحمد والشّكر، وفضل العلم وشرفه، وسبب تأليف الكتاب، وفصول في سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وخلافة أبي بكر، وعمر، وعلي، وعثمان، والحسن وأهل النّخيلة، وجملة من مآثر أهل الطّبقة الأولى، ثمّ ذكر أهل الطّبقة الثّانية، وأورد رسالة الإمام محمّد بن أفلح حول مسألة خلق القرآن، ثمّ أثبت فصلا سمّاه لمعا من سيرة الحلقة، وأورد رسالة تآليف أهل المغرب والمشرق، وختم بفصلين: الموت وعذاب القبر وأحواله. وقد عالج الكتاب جملة من المسائل السّياسيّة والكلاميّة والفقهيّة واللّغويّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. والكتاب إلى جانب تحليله لأحداث الفتنة الكبرى من وجهة نظر الإباضيّة جمع وثائق نادرة من الأهميّة بمكان أ ـ رسالة عبد الله بن إباض (٨٦ ـ ٧٠٥) إلى عبد الملك مروان وهي من أقدم الوثائق الّتي وصلتنا بنصّها، وقد سكت عنها جميع المؤرّخين من أمثال الطّبري وغيره.

ب ـ رسالة الإمام محمّد بن أفلح الرّستمي (٢٦١ / ٢٨١ ـ ٨٧٤ / ٨٩٩) في خلق القرآن وقد

بيّـن فيهـا حجـج الإباضيّـة النّقليّـة والعقليّـة علـى أنّ القـرآن كلام الله مخلـوق. وقـد ظلّـت هـذه الرّسـالة عمـدة الفكـر العقدي عنـد الإباضيّـة إلـى يومنـا هـذا.

ج ـ لمـع مـن سـيرة الحلقـة: اقتبـس هـذا النّـصّ مـن كتـاب طبقـات الدّرجينـي وتناولـه بالتّحليـل مثبتـا بـه جهـود الإباضيّـة فـي ميـدان التّربيـة والتّعليـم ونشـر الدّعـوة.

د ـ رسـالة التّأليـف وقـد حققهـا عمّـار الطّالبـي وبيّـن أنّهـا رسـالتان واحـدة مختصـرة وثانيـة أوسـع منهـا وقـد ذكـر فيهمـا أسـماء مـا وصلـه ومـا سـمع عنـه مـن كتـب إباضيّـة المشـرق وأهـل جبـل نفوسـة وأهـل المغـرب. وقـد ظلّـت هـذه الوثيقـة عمـدة الباحثيـن فـي التّـراث الإباضـي ومـا تـزال (آراء الخـوارج الكلاميّـة ج ٢ / ٢٨٢ ـ ٢٩٤).

٢ ـ رسـالة الحقائـق وحـدود العلـوم الشّـرعيّة والاعتقـادات وقـد حقّقهـا سـالم العذّالـي تحقيقـا علميّـا سـنة ١٩٨٤ وتوجـد نسـخة منهـا مرقونـة بمكتبـة الكليّـة الزّيتونيّـة ٩٦ صفحـة مـن الحجـم الكبيـر. ألّفهـا اسـتجابة لطلـب الشّـيخ محمّـد بـن أحمـد الصّدغيانـي. وقـد تضمّنـت مقدّمـة تطـرّق فيهـا للأوضـاع الاجتماعيّـة والسياسيّة ناعتـا إيّاهـا بالاضطـراب والوحشـة ثـمّ بيّـن فـي عنصـر أوّل آفـات طلـب العلـم، وبعـد ذلـك عـرض جملـة الحقائـق، وهـي فـي جملتهـا خمـس مجموعـات تتـوزّع بيـن علـم الكـلام، وعلـم أصـول الفقه،والفقـه، واللّغـة، وفـي الأخيـر تأتـي الخاتمـة قائمـة علـى أسـلوب رمـزي تضمّنـت مـا أسـماه البـرّادي بالأقاليـم السّـبعة.

٣ ـ أصـول الفقـه : البحـث الصّـادق والاستكشـاف عـن حقائـق أسـرار معانـي كتـاب العـدل والإنصـاف لأبـي يعقـوب يوسـف الوارجلانـي: يحتـوي الجـزء الأوّل مـن الكتـاب (و هـو الّـذي شـرحه البـرّادي) علـى مقدّمـة وتسـعة أبـواب: احتـوت المقدمـة علـى تسـعة مسـائل أهمّهـا معرفـة الفقـه وأصوله. بـاب ١ العلـم واسـتعمال الاثنتـي عشـرة . بـاب ٢ أقسـام العلـوم وفيـه ثلاثـة عشـر فصـلا. بـاب ٣ القـول فـي الـرّوح والعقـل وفيـه ١٣ فصـلا. بـاب ٤ فـي الأفعـال وفيـه فصـلان. بـاب ٥ أقسـام الأفعـال فـي الشّـرع. بـاب ٦ أحـكام الخطـاب. بـاب ٧ الـكلام ويحتـوي علـى عشـرة فصـول.

وقـد بيّـن أنّ قصـده مـن هـذا الشّـرح تيسـير مـا عسـر مـن هـذا الفـنّ علـى الطّلبـة. خ بالمكتبـة البارونيّـة جربـة.

٤ ـعقيدة وفقه ـ كتاب شفاء الحائم في شرح بعض الدّعائم. وكتاب الدّعائم تأليف ابن النّضر العماني (ق ٥ ـ ١١) منظومة تعليميّة تضمّنت ٤١ قصيدة. طبع ضمن مجموع سنة ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠. نشر وزارة التّراث سلطنة عمان.

يقول الشمّاخي: «وكتاب شرح الدّعائم لم يكمله، السفر الأوّل إلى الطّهارات وهو المتداول وجمع من الألواح من بعده إلى الزّكاة أظنّ، وهو تأليف مفيد.»(٥٧٤).

وهذه عناوين القصائد الّتي شرحها البرّادي: الدّعامة الأولى في التّوحيد. الدّعامة الثّانية في الحجّة على الخلق ومعرفة الخالق من المخلوق ٧٠ بيتا. الدّعامة الثّالثة منظومة في خلق الأفعال ١٢٨ بيتا. الدّعامة الرّابعة في الردّ على من يقول بخلق القرآن ٧٥ بيتا. الدّعامة الخامسة في الوضوء والتيمّم ١٦٠ بيتا.

شرح تعليمي تعرّض للقضايا الكلاميّة المذكورة في المتن مع وقفة عند الطّهارات مع الإلحاح على الشّرح اللّغوي. مع العلم أنّ البرّادي استفاد من شرحين سابقين للدّعائم أحدهما لابن وصّاف (ق ١٢/٦) والثّاني للرّقيشي (٩ ـ ١٥)، وقد تناول كتاب الدّعام بالشّرح كلّ من أبي زكريّاء الشمّاخي (حيّ ٧٠٤ ـ ١٣٠٤) وامحمّد اطفيّش (١٣٣٢ ـ ١٩١٤) بعد البرّادي .

٥ ـالأجوبة: الجواب الأوّل: حول الإقرار والعطيّة والصّدقة. وهو استجابة لسؤال العلاّمة محمّد بن علي بن محمّد النّذري من عمان يقرّ فيها البرّادي أمورا متعلّقة بطريقة الحصول على الأموال فالإقرار يعني الإشهاد أو الصّدقة أو العطيّة باعتبارها طرقا مختلفة لتلقّي المال وقد تعرّض فيها لقضايا سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة هامّة. خ بالبارونيّة.

الجواب الثّاني: الوصيّة وأحكامها وهي في الفرائض جوابا لسؤال العزّابي زكريّاء بن سليمان الجربي.

الجواب الثّالث: أثبت فيه كيفيّة إنفاق أوقاف المساجد خ بدون تاريخ دفتر رقم ١ ص ١٠٠ مكتبة الشّيخ سالم بن يعقوب غيزن. انظر نظام ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

ويورد العدّالي أنّ للبرّادي كتابا عنوانه جواب أهل الخلاف ويذكر أنّه لم يطّلع عليه، ويرجّح من خلال العنوان أنّه آخر تآليف البرّادي. ص ١٥٦.

المراجع

١. معجم أعلام الإباضيّة عدد ٧٣٥.

٢. سالم العدّالي: أبو الفضل أبو القاسم البرّادي: حياته آثاره أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة مرقونة بالمعهد الأعلى لأصول الدّين جامعة الزّيتونة. تونس.

السير الإباضية عند المستشرقين

منجي بن معاذ
عضو مركز الدّراسات الإباضية/ فرنسا
mongibm@hotmail.com

مقدمة

إذا تتبعنا ما يكتب عن الإباضية و ينشر باللغات العالمية الأساسية و في أهم الموسوعات المعروفة كالموسوعة الإسلامية Encycloédie de l'islam و غيرها من المراجع التي يعتدّ بها في البلدان الأوروبية نرى أن جلّ الذين كتبوا عن الفكر الإباضي سابقا بهذه اللغات مستشرقون سلّطوا الضوء على جوانب مهمة و كثيرة من تراث هذه المدرسة. و رغم المآخذ على كثير من كتاباتهم عن الإسلام و المسلمين إلا أنها لا تخلو من فوائد كثيرة و هناك كتابات كانت منصفة أو قريبة من الإنصاف.

فمنذ القرن التاسع عشر ميلادي و تزامنا مع الاستعمار الأوروبي للبلاد الإسلامية نهض كثير من علماء أوروبا يبحثون في الإسلام و تراثه تدفعهم، لتحمل عناء البحث، عوامل مختلفة لكنهم يلتقون في هدف واحد هو تجلية الإسلام من نواحيه المختلفة لمعرفة أدق للمجتمعات الإسلامية. و الإباضية نالها نصيب وافر من اهتمام المستشرقين و الباحثين الأوروبيين منذ ظهور حركة الاستشراق. فكان هؤلاء يبحثون عن المخطوطات و يرفعونها إلى جامعاتهم الأوروبية و يدرسونها بمنهجية تاريخية سوسيولوجية أثمرت زادًا علميا كبيرًا استفدنا منه لفهم تراثنا بجوانبه المتعددة و من مصادره الأصلية.

ويهمني في هذا البحث المتواضع أن أسلط الضوء على الاستشراق مفرقا بين الاستشراق الأكاديمي و الاستشراق السياسي الذي يعمل لصالح الاستعمار مركزا على الإسهامات العلمية له و ذلك في المبحث الأول. أما المبحث الثاني فأخصصه لاهتمام المستشرقين بالدراسات عن الإباضية و خصوصا في موضوع السير. و في المبحث الثالث سأشير الى بعض الاستنتاجات

و الملاحظات حول أعمال المستشرقين. و أختم بحثي ببعض الاقتراحات في مجال الدراسات.

- **المبحث الأول: في الدراسات الاستشراقية**

١. تعريف الاستشراق

الاستشراق أشبه بالعلم المنظم الذي يعنى بالكتابة في موضوعات الشرق و تحقيق المخطوطات المهمة، و يسمى الباحثين الغربيين المختصين في دراسة العالم العربي و الإسلامي في الشرق و أفريقيا الشمالية بالمستشرقين. و تنظم المستشرقون في "الجمعية الدولية للمستشرقين" و عقدوا أول مؤتمر لهم في باريس سنة ١٨٧٣م و استمرا بعدها يلتقون كل ٣ سنوات للتشاور و الاطلاع على آخر الدراسات و المستجدات. و توقفت رسميا حركة الاستشراق سنة ١٩٧٣م حيث قرَر المؤتمر الدَولي للمستشرقين التخلي رسميا عن هذه التسمية بسبب النظرة السيئة التي أحاطت بها و التهم الحادة الموجهة إليها. أسس هؤلاء الباحثون "الجمعية الدولية للدراسات الإنسانية حول آسيا و أفريقيا" التي أصبحت تسمى فيما بعد "الجمعية الدولية للدراسات الآسيوية و الشمال أفريقية" و لكن العالم الإسلامي مازال يسمي الباحثين الغربيين بالمستشرقين. يقول ادوارد سعيد أن الاستشراق كان في بدايته "اختصاصا محدودا ضمن فقه اللغة قبل أن يتحول إلى اختصاص و مجال عمل قادر على توجيه حركات سياسية"[١]. ويعتبر ادوارد سعيد أنَه من الضروري التعامل مع ظاهرة الاستشراق ضمن إطار تاريخي استعماري، حيث ينتج عمل المستشرق مجموعة من المعارف هدفها الحديث نيابة عن العالم الإسلامي المستعمر : " لا وجود للشرق إلا من خلال خطابات وتعريفات المستشرقين"[٢].

و بصفة عامَة، كانت ردَة فعل المثقفين في المجتمعات العربية الإسلامية يطغى عليها رفض هذه الأعمال والتعامل معها على أنها مؤامرات ضد عقيدة المسلمين تخدم اهدافًا استعمارية وتحاول إبعاد المسلمين عن دينهم، أمَا الأصوات المدافعة عن المستشرقين فإنها لا تنفي هذا الجانب السياسي من أعمال المستشرقين ولكنها تميزُ بين الاستشراق السياسي والاستشراق العلمي الأكاديمي، في حين يؤكد آخرون مثل الباحثة عائشة بنت عبد الرحمان (بنت الشاطىء) أنَه من الطبيعي أن يدافع مفكرون غربيون عن وجهة نظرهم وأوطانهم ودياناتهم: "وعلماء الاستشراق

(1) E. Saïd, L'orientalisme : L'Orient créé par l'Occident, éd. 1995, p. 254.

(2) Ibid, p. 67

بشـر مثلنـا، يتعصّبـون لدينهم وقومياتهـم مثلمـا نتعصّـب لديننـا وقوميتنـا. ومـا ينبغـي أن نلومهـم علـى هـذا التعصـب أو نغضـب لعجزهـم عـن التجـرد مـن أهوائهم، وإنمـا نحـن هنـا بصـدد قضيـة علميـة وتاريخيـة[1]" وتضيـف المؤلفـة قولهـا "وليـس عليهـم بـأس فـي أن يقولـوا فينـا مـا يقولون، متـى كانـت أقوالهـم معبّـرة عـن رأي لهـم أو صـدى لاسـتهوائهم بمـا راج فـي بيئاتهـم مـن أقاويـل عنّـا، لكـن البـأس كل البـأس أن يحمّـل البحـث العلمـي وزر هـذه لأهـواء فتخـرج بحـوث لهم مشـحونة بأباطيل يزعمـون أنهـا ممـا هـدى إليـه استقراؤهم لتراثنـا، ليس لهـم الحـق فـي الدفـاع عـن هـذه الأفـكار باستعمال غطـاء علمـي كمـا لـو كانـت أفكارهـم ملاحظـات موضوعيـة وحقائـق علميـة[2]"، وتضيـف الباحثـة بأنـه مـن واجـب المفكريـن العـرب الاهتمـام بهـذه الدّراسـات الاستشـراقية ونقدهـا نقـدا علميًـا موضوعيًـا وإبـراز مـا تحتـوي عليـه مـن تناقضـات ونقائـص محتملـة.

٢. الإباضية في دراسات المستشرقين

حظيـت المدرسـة الإباضيـة باهتمـام بالـغ لـدى العديـد مـن المـدارس الفكريـة الاستشـراقية ومـن بيـن المواضيـع التـي تطـرق لهـا المستشـرقون نذكـر تاريـخ أهـل الدعـوة والمجموعـات الإباضيـة فـي شـمال أفريقيـا، المـدارس الإباضيـة المتفرعـة، الفتنـة الكبـرى وأوجـه الصّـراع السياسـي الأول مـن نوعـه فـي تاريـخ الإسـلام بالإضافـة إلـى مسـائل فـي العقيـدة والفقـه الإباضـي.

أمّـا مـا يتعلـق بالمجتمعـات الإباضيـة، فـإن سـتروثمان Strothmann هـو أوّل مستشـرق ينشـر لمحـة تاريخيـة عـن إباضيـي شـمال أفريقيـا مـن خـلال بحـث تحـت عنـوان " البربـر والإباضيـة" "Berber und Ibaditen"»، فـي حيـن يعدَ ليفيكـي أكثـر باحـث اهتـم بهـذه المسـألة حيـث نشـر أبحاثـا تـدرس بدقـة التوزيـع الجغرافـي للمجموعـات الإباضيـة فـي شـمال أفريقيـا وفـي تونـس تحديـدًا فـي القـرون الهجريـة الأولـى، معتمـدًا علـى مراجـع إباضيـة، وهنـا يكمـن الاختـلاف والقطيعـة مـع الأبحـاث القديمـة لفوندرهايـدن Vonderheyden وبرونشـفيك Brunschvig التـي تعتمـد علـى مراجـع غيـر إباضيـة.

وأمّـا مـا يتعلّـق بالحـركات المتفرعـة عـن الإباضيـة فـإنَ أوّل دراسـة فـي هـذه المسـألة قـام بهـا المستشـرق البولونـي ليفيكـي الـذي اعتمـد علـى مراجـع إباضيـة لدراسـة الحـركات الانفصاليـة المنشـقة

---

(١) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، تراثنا بين ماضٍ وحاضر . القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٥٣..

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

عـن المدرسـة الإباضيـة، وتقديـم عـرض تفصيلـي عـن مختلـف هـذه الحـركات.

ونذكـر، فيمـا يتعلـق بالفتنـة الكبـرى والصَـراع السياسـي الـذي أدَى إلـى نشـأة الحركـة الإباضيـة، أعمـال المستشـرقين الايطاليين فاليـريVaglieri وروبيناتشـي Rubinacciحيث درسـت فالييـري الصَـراع الـذي تـم بيـن علـي بـن أبـي طالـب ومعاويـة فـي حيـن درس روبيناتشـي العلاقـة بيـن الخليفـة الأمـوي عبد الملـك بـن مـروان والإباضيـة.

وفـي موضـوع العقيـدة الإباضيـة، نشـر موتيلنسـكي Motilinsky ترجمـة فرنسـية للعقيـدة الإباضيـة عنـد عمـرو بـن جميـع سـنة ١٩٠٥ ونشـر نالينـو بحثـا حـول مـا يعتقـده تأثيـر المعتزلـة علـى الفكـر الإباضـي، فـي حيـن قـام سموقورزفسـكي Smogorsewski بنشـر مقـال حـول نقـاط الاختـلاف بيـن الإباضيـة والمالكيـة اسـتنادا علـى مقـال لا يُعـرف صاحبـه تحـت عنـوان «قصيـدة إباضيـة حـول الفـرق بيـن المدرسـة المالكيـة والإباضيـة».

امَـا مورينـو Morino الإيطالـي فنشـر مقـالًا تحـت عنـوان "موجـز حـول العقيـدة الإباضيـة" Note di theologia Ibadita– ونشـر روبيناتشـي دراسـة حـول العقيـدة الإباضيـة لأبـي زكريـاء الجناونـي مـع ترجمـة إلـى الإيطاليـة يتطـرق فيهـا بالـدَرس إلـى العلاقـة بيـن المدرسـة الإباضيـة والمـدارس الإسـلامية الأخـرى. و تميـز كوبرلـي Cuperly المُتَوَفَّـى سـنة ٢٠٠٨ فـي أطروحتـه "مقدمـة لدراسـة الإباضيـة و عقيدتهـا"[١] بعـرض شـامل للعقيـدة الإباضيـة. كمـا نشـر كوبرلـي العديـد مـن المقـالات عـن الإباضيـة و ترجم بعض النصوص المهمة لمشايخ إباضيين إلى الفرنسية.

يعتقـد عمـرو خليفـة النامـي أن الفقـه الإباضـي، خلافًـا للمواضيـع الأخـرى، لـم يحظـى بدراسـة جديـة مـن الباحثيـن الأوروبييـن علـى الرَغـم مـن البحـث الـذي قـام بـه روبيناتشـي حـول مسـألة الطهـارة عنـد الإباضيـة والمـدارس الإسـلامية الأخـرى أو العمـل الـذي نشـره ميليوالـذي يتطـرق إلـى بعـض نقـاط الفقـه الإباضـي تحـت عنـوان :" مدوَنـة نقاشـات جماعـة مـزاب".

أخيـرًا، حظـي نظـام العزَابـة ببعـض الاهتمـام لـدى المستشـرقين مثـل ليفيكـي Lewicki وروبيناتشـي، حيـث نشـر هـذا الأخيـر مقـالًا سـنة ١٩٦٠ يـدرس فيـه أصـول الحلقـة ونظـام العزابـة، كمـا نشـر ليفيكـي مقـالًا فـي الموسـوعة الإسـلامية حـول الحلقـة.

---

(١)Cuperly, Pierre, Introduction à l'étude de l'ibadisme et de sa théologie, Alger, Office des Publications Universitaires, 1984.

٣. خصوصيات بعض المدارس الاستشراقية ولمحة عن الدراسات الإباضية :

مـن أهـمّ المـدارس الاستشـراقية المُهْتَمـة بالإباضيـة نذكـر المدرسـة البولونيـة والفرنسـية والإيطاليـة والألمانيـة ، وقـد حظيـت أعمـال المستشـرقين المنتمين لهـذه المـدارس باهتمـام الباحثيـن فـي بقيـة أنحـاء العالـم ولا زالـت نتائـج هـذه البحـوث تُعْتَمَـدُ إلـى الآن فـي الأعمـال الأكاديميـة المختلفـة ، و إذا مـا أردنـا تلخيـص إسـهام هـذه المـدارس فـي عـدد مـن النقـاط الرّئيسـة فإننـا نذكـر :

- منهجية عمـل جديـدة تنطلـق مـن المخطوطـات الإباضيـة ومـن رحـلات ميدانيـة إلـى المواقـع الإباضيـة.
- معالجـة النصـوص معالجـة تاريخيـة دقيقـة بمقارنـة المصـادر الإباضيـة بعضهـا ببعـض و مقارنتهـا بالمصـادر غيـر الإباضيـة والتثبـت مـن التواريـخ وأسـماء الأشـخاص والأماكـن، الـخ.
- الاهتمام النسبي بالجانب الفكري للمدرسة الإباضية.

أمـا المدرسـة الفرنسـية، فهـي ممثلـة أساسـا فـي أعمـال ماسـكيراي Masqueray فـي أوائـل القـرن الماضـي و كوبرلـي Cuperly فـي أواخـر القـرن، وإذا مـا نظرنـا إلى ماسـكيراي Masqueray، يمكننـا القـول أن أهـمّ مـا يميـز أعمالـه قيامـه برحـلات إلـى شـمال أفريقيـا وتحديـدًا إلـى مـزاب ودراسـته لمخطوطـات إباضيـة وكذلـك ترجمتـه لمخطوطـات أخـرى ، وكان ذلـك أساسـا فـي فتـرة اسـتعمار فرنسـا للجزائـر ممَا يضيـف إلـى هـذه الأعمـال خاصيـة فـي التعامـل مـع نتائجهـا لأنهـا تُعبّـر لـدى الإباضييـن عـن نظـرة المسـتعمر إلـى المجتمعـات الإباضيـة، أمـا أعمـال كوبرلـي فتنـدرج فـي حقبـة تاريخيـة مختلفـة تميـزت فيهـا الأعمـال الأكاديميـة بنزعـة أكثـر شـمولية، فقـد اسـتفاد هـذا الأخيـر مـن مجمـوع الأعمـال السّـابقة كـي يقـدّم صـورة شـاملة للمدرسـة الاباضيـة مـن خـلال جانـب تناسـته هـذه الأعمـال الأولـى وهـو الجانـي العقائـدي.

أمَـا الأعمـال البولونيـة فهـي فـي الآن نفسـه الأقـدم والأكثـر إلمامـا بالمدرسـة الإباضيـة حيـث تمثـل مثـلا أعمـال المستشـرق ليفيكـي Lewicki الأهـمَ والأشـمل فـي عديـد المواضيـع فهـو أول مـن اهتـم بدراسـة الحـركات المتفرعـة عـن المدرسـة الإباضيـة وهـو الـذي نشـر دراسـة عـن نظـام العزابـة وهـو الـذي اهتـم بدراسـة السـير الإباضيـة بالإضافـة إلـى آخريـن أمثـال موتيلنسـكيMotylinski وسموقورزفسـكي Smogorzewski الـذي خصَـص الجـزء الأهـم مـن أول مخطوطـة جمعهـا عـن الإباضيـة لدراسـة سـير المشـايخ. وقـد نشـر سموقورزفسـكي Smogorzewskiبحثـا عـن الفروقـات

بين المذهب الإباضي والمذهب المالكي، اعتمادًا على مقتطفات من مدوّنة إباضية تحت عنوان " قصيدة إباضية حول الفروقات بين الإباضية والمالكية". أمَا ليفيكي Lewicki فقد علّق على طبقات الدَرجيني وسير الشماخي وسير الوسياني، وقد مكنته دراسة سير الوسياني من نشر عديد المقالات حول المجتمعات الإباضية في شمال أفريقيا تهتم بنشاطهم الفكري و الإقتصادي والسياسي.

أمّا المستشرقون الإيطاليون ، فبالرغم من إلمامهم الجيد باللغة العربية وأبحاثهم العديدة حول الحضارة الإسلامية والعالم العربي فإن اهتمامهم بالمدرسة الإباضية محدود ، حيث لم يهتم الإيطاليون مباشرة بالإباضية، فلانجد في كتاباتهم مقالات أو كتبا تُعنى مباشرة بجانب من جوانب المدرسة الإباضية بل كان اهتمامهم بها لكونها تمثل زاوية نظر جديدة لدراسة التاريخ السياسي في الحضارة الإسلامية ، مثلما هو الشأن لدى الباحثة فالييري Vaglieri أو روبيناتشيRubinacci اللّذان درسا العلاقة بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان والإباضية، أمّا المستشرق مورينو Morenoالذي اهتم بالعقيدة الإباضية من خلال عمله سنة ١٩٤٩ الذي أثنى عمرو خليفة النامي على وضوحه وقيمته ، فإنه استند أساسا إلى أعمال العالم العماني عبد الله حميد السالمي.

انّ ما تميزت به المدرسة الإيطالية هو انتماء المستشرقين لعائلات عريقة ومثقفة يلتقي فيها الجانب السياسي الإستعماري لليبيا، حيث تبرز السيرة الذاتية لهؤلاء المستشرفين أنهم اشتغلوا في فترات معينة لدى وزارة المستعمرات، مثل فالييري Vaglieri ومورينو Moreno. و لا يزال اهتمام المدرسة الايطالية بالاباضية قائما بفضل الباحثة أرسيليا فرنسسكا.Ersilia Franceca

أمّا الاستشراق الألماني ، فإن صفته البارزة هو أنّه لم يزدهر في إطار استعماري كما هو الحال لدى المدرسة الفرنسية والإيطالية كما أنّه لم يرتبط بأهداف دينية تنصيرية ؛ فهو يمتاز بتطبيق المنهج التاريخي و الفيلولوجي البحث على النصوص المقدسة، والأعمال الألمانية هي أكثر الأعمال التي أفرزت ردود أفعال قوية نظرًا لطبيعة الأطروحات المقدّمة ، وفي ما يتعلّق بالإباضية ، فانّ أبرز الاعمال الألمانية هي أعمال شاخت Joseph Schacht و ستروثمان Strothmanو والهاوسن Wellhausen و ساشاو Sachau التي اهتمّت أساساً بالتراث الإباضي في شمال افريقيا من مخطوطات ومعمار وبالمجتمعات الإباضية في شمال أفريقيا وأفريقيا الوسطى والشرق.

• المبحث الثاني: اهتمام المستشرقين بالسير الإباضية

نتطرّق بالذكر هنا إلى أهمّ المستشرقين الذين اهتموا بالسير الإباضية، و نترك تقديم لمحة عن حياتهم العلمية في ملاحق هذا البحث مع مستشرقين آخرين كتبوا عن الإباضية و سير مشايخها.

موتيلنسكي Motylinski

نشر موتيلنسكي Motylinski ترجمة إلى الفرنسية لتاريخ ابن صغير المالكي للأئمة الرستميين Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert (١٩٠٨)، وقد خصَّص في مقاله حول الأعمال الإباضية ملاحق تفصيلية حول سير المشايخ الإباضية:

- سير أبي زكرياء la Sîrah d'Abû Zakariyâ
- طبقات الدرجيني les Tabaqât d'Al-Darjînî
- جواهر البرادي al-Jawâhir d'al-Barrâdî
- سير الشمّاخي les Siyar d'al-Shammâkhî

وقد قام موتيلنسكي Motylinski بأوّل دراسة للأدب الإباضي في مقال تحت عنوان "أدب مزاب" وهي عبارة عن تقديم مفصّل للأعمال الإباضية المذكورة في كتاب البرادي، أضاف إليها المستشرق ملاحظاته الخاصّة وبعض نتائج أبحاثه.

وفي مقدمة هذا العمل يؤكد الباحث على أن عمله ليس سوى إسهام متواضع في دراسة الخوارج في أفريقيا، ثم يستبعد الكاتب من مجال بحثه القضايا المتعلقة بتاريخ نشأة الإباضية وتطورها حتى نشأة إمامة تاهرت مكتفيا بالتلميح إلى عمل ماسكيراي Masqueray حول سير أبي زكرياء.

و عن كتاب ابن الصغير يقول موتلنسكي أنه يتميز عن باقي كتب السّير بكونه يُعَدّ شهادة من قبل مسلم غير إباضي عاش في تاهرت في فترة الإمامة الرستميّة وتصل بنا هذه الشهادة التاريخية عن فترة الرسميتين إلى أبو حاتم يوسف وهو ما يجعل موتيلنسكي يعتقد أن هذا الكتاب تمّ تأليفه سنة ٢٩٠ هجري بما أنّه لا يتطرق للأحداث التي سبقت سقوط تاهرت.

وبالمقارنة مع سير أي زكرياء، يعتقد موتيلنسكي Motylinski أن كتاب ابن الصّغير يعدّ "شهادة تاريخية عن الدولة الرستمية بالمفهوم القصصي السّردي لا بالمفهوم السياسي ، حيث يتطرق الكاتب إلى جوانب خاصة من حياة الرستّميين بما في ذلك الصّراعات الدّاخلية والتأثيرات

الخارجية التي أدت إلى صراعات عائلية وتقاتل على السلطة" وأهمية هذا الكتاب تكمن في إبرازه لحقائق وأحداث تغافلت عنها كتب السير الإباضية التي كانت تسعى للمحافظة على صورة مشرقة للأئمة الرستميين وعدم المساس بالإباضية"(1).

سموقورزفسكي Smogorzewski

خصّص سموقورزفسكي الجزء الاكبر من دراسته للمخطوطات الإباضية في شمال إفريقيا التي نشرها سنة ١٩٥٥ إلى دراسة سير المشايخ بالإضافة إلى مقدمة وهوامش وعديد الملاحظات.

وفي سنة ١٩٢٧، أعدّ سموقورزفسكي Smogorzewski دراسة حول عبد العزيز الثميني: كتاباته ومراجعه، وقد استهّل هذه الدراسة بتبرير اهتمامه بهذه الشخصية التي تُعدّ من أكبر الشّخصيات الإباضية في مزاب وشمال أفريقيا. و فيها يؤكد الكاتب أن اهتمامه منصبّ على دراسة الآثار الأولى من الأدب الإباضي كي يتمكن من تشكيل صورة كاملة متتابعة للمنظومة الدينية والعقائدية للمدرسة الإباضية ولم يكتفِ سموقورزفسكي Smogorzewski بالإشارة إلى خصال عبد العزيز الثميني التي ذكرها المؤرخون الإباضيون بل أضاف إلى هذه الخصال ما لاحظه هو شخصيا من تواضع عبد العزيز الثميني، يقول سموقورزفسكي Smogorzewski: "ان ما ميز شخصيته وأخلاقه، مما ورد ذكره في كتب السير، هو التقوى العلمية والذكاء الحادّ والطابع الهادئ الرصّين والثقة بالنفس، بمجرد السهو عن نافلة يغضب الشيخ المعروف بالكرم والإصرار والتفاني في العمل"(2).

"وعلى الرغم من كون هذه الخصال المذكورة في كتب السير لا تتوانى في المدح فإنه من الضروري لنا أن نذكر تواضع الشيخ الذي يميزه عن غيره الذي يتجلّى في مقدمة واحد من كتبه"(3).

يلاحظ سموقورزفسكي Smogorzewski في دراسته عن سير وأدب الإباضية سنة ١٩٢٧ أن هناك خصوصية ينبغي ذكرها في كتب السير لدى الإباضية: " تذكر الكتب القديمة الملقبة بكتب

(1) Motylinski, .A. de C., « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », 1908, page 4/5.

(2) Smogorzewski. Abd al-'Aziz (at-Tamini) : ses écrits et ses sources, ebox édition, 1927, page 47.

(3) Ibid, page 52.

السير، سير المشايخ بالإضافة إلى مجموع أعمالهم، وهذه القائمة، وإن لم تكن كاملة مثلما نراه في عملي، فهي في غاية الأهمية لأنها تحتوي مراجع قيمة لدراسة المخطوطات"[1].

في سياق حديثه عن كتب السير للمشائخ الإباضية يؤكد سموقورفسكي Smogorzewski أن "هذه المادة لاتخلو من نقائص نوعية حيث تشبه طريقة التعامل مع سير المشايخ كتب التاريخ الرسمي المادح الذي لا يعطي الحقيقة كاملة، على الرغم من الكم الهائل لهذه الكتب"[2].

ليفيكي Lewicki

قام ليفيكي Lewicki بتحقيق طبقات الدَرجيني وسير الشماخي ونشر العديد من المقالات اعتمادًاعلى أبحاثه في سير الوسياني وأعمال إباضية أخرى تشتمل مواضيع مختلفة حول المجتمعات الإباضية في المغرب العربي.

طبقات الدَرجيني

اعتمد ليفيكي Lewicki على مخطوطة سموقورزفسكي Smogorzewski في جامعة لفوف Lwow لتحقيق كتاب طبقات الدَرجيني التي يعتقد ليفيكي Lewicki بأنها "ذات أهمية بالغة لدراسة أصول الإباضية وتطورها في شمال أفريقيا"[3]، وفي مقارنته بين طبقات الدَرجيني وسير الشماخي يؤكد ليفيكي بأنه وعلى الرغم من أن "طبقات الدَرجيني ليست بحجم كتاب الشماخي ولكنها ذات أهمية أكبر نظرًا للمنهجية التي اعتمدها الكاتب"[4]، حيث قام الدَرجيني خلافا للشماخي بترتيب الأئمة والعلماء ترتيبًا زمنيا في حين اتبع الشماخي ترتيبًا منطقيًا حسب طبقات تتوزع كل واحدة منها على مدى نصف قرن وهو الترتيب المعتمد قديمًا في كتب السير العربية.

من جانب آخر، خلافًا لموتيلنسكي Motylinski الذي يعتقد أن طبقات الدَرجيني ألفت سنة ٦٢٦، يؤكّد ليفيكي أن تاريخ تدوين هذا الكتاب هو ٦٥٠ هجري على الأقل، وحجته في ذلك أن الحدث

(1) Smogorzewski , Essai de bio-bibliographie ibadhite, Avant-propos, Rocznik 1927, page

(2) Ibid, page 52.

(3) Lewicki.T, « Notice sur la chronique ibadite d’Ad-Dargini », 1936, page 146.

(4) Ibid, page 146.

التاريخي الأخير المذكور في طبقات الدَرجيني هو ٦٣٣ هجري(١).

من خلال دراسته لعناوين أبواب الكتاب ومحتوى الجزئين من الطبقات قام ليفيكي Lewicki بفرضيات مهمَة حول مشروع تأليف هذا الكتاب كما تصوره الدَرجيني.

يعتقد ليفيكي أن دلائل عديدة تؤكد أن الدَرجيني لم تكن له نية تأليف طبقات بجزئين، حيث لا يمثل الجزء الأول سوى نسخ وإشارات إلى كتاب سير الأخبار والأئمة للوارجلاني وفي هذا الجزء الأول قام الدَرجيني بإدراج ترتيب زمني للأئمة والعلماء الإباضيين وهو ما يُعدَ تكرارًا للجزء الثاني.

يقول ليفيكي Lewicki: "لم يتخذ الدَرجيني قرار تأليف جزء ثان من طبقاته إلى في مرحلة متقدمة عندما تفطن إلى كون كتاب أبي زكريا لا يغطي سوى جزء صغير من سير الأئمة الإباضيين"(٢).

والجزء الثاني من الطَبقات هو الجزء الأهم الذي يحتوي على معلومات جديدة وطريقة عمل تقطع مع المألوف من كتب التاريخ والسير، حيث أن الترتيب الزمني للدَرجيني كان مجهولا لدى كتب السير القديمة في شمال إفريقيا، ويقدم ليفيكي Lewicki كدليل على هذا الأمر كتاب الوسياني "الذي يتميز بغياب التنظيم، غيابا مطلقا" وكتاب الوارجلاني "الذي يقدم ترتيبًا زمنيًا للمشايخ الإباضية سرعان ما تناسته الكتب والدراسات في عصره"(٣).

يفسَر ليفيكي Lewicki غياب شخصيات مشهورة عن طبقات الدَرجيني مثل عبد الرحمن بن رستم بكون هذه الشخصيات كانت غنية عن التعريف.

تناول ليفيكي Lewickiبالدَرس مصادر الدَرجيني التي تناهز الخمسين مرجعًا تكاد تكون كلها مراجع إباضية، قبل أن يثني المستشرق على لغة الكتاب التي يحسبها أكثر جودة وفصاحة من جميع المراجع الإباضية السَابقة.

(1) Ibid, page 152.

(2) Ibid, page 155.

(3) Ibid, page 146

سير الشماخي

يؤكد ليفيكي Lewicki في مستهل دراسته على الأهمية البالغة لهذا الكتاب الذي يمكّن كل باحث من معلومات قيمة عن العصور الأولى من الحضارة الإسلامية وعن نشأة المدرسة الإباضية بالإضافة إلى التعريف بالبربر في شمال أفريقيا.

ويعطي ليفيكي Lewicki في الصّفحات الأولى من هذه الدراسة رسمًا بيانيًا للتسلسل العائلي لقبيلة الشماخي قبل أن يمرّ إلى التّعريف بكتاب السير حيث يؤكّد أنّه لا يوجد تحقيق لهذا الكتاب في زمانه بالرغم من وجود ترجمة إلى الفرنسية قام بها ماسكيراي Masqueray والمخطوطة التي وضعها الحاج سليمان بن مسعود النفوسي في الجزائر.

وحسب ليفيكي Lewicki فإن هذه النسخة لا تخلو من نقائص عديدة أهمها يتعلق برسم الأسماء على الرغم من قيمتها الهامة حيث أضاف إليها النّاشر فهرسًا يُسهّل عملية البحث والتحقيق التاريخي في السير وقد تُرْجِم هذا الفهرس لاحقًا من قبل موتيلنسكيMotylinski في كتابه "سير أهل مزاب".

وكتاب السير للشماخي هو مجموعة من سير المشايخ منذ نشأة الإباضية إلى زمن الشّماخي ويطغى على هذه السّير، حسب قول ليفيكي Lewicki الذي يؤكد ما قاله أستاذه سموقورزفسكي Smogorzewski في دراسته لكتب السير الإباضية سنة ١٩٢٧: "الجانب المدحي المبالغ فيه[1]» بالإضافة إلى معلومات تاريخية مهمة حول حركة الانشقاق لدى الخوارج وانتفاضة إباضي شمال أفريقيا التي أدت فيما بعد إلى ظهور الدولة الرستمية. من نقائص كتاب السير حسب رأي ليفيكي Lewickiغياب التنظيم والتسلسل التاريخي للأحداث المذكورة.

وفي جانب آخر يلاحظ ليفيكي أن الشّماخي لم يكتف بذكر الأحداث والسير بل قارن عديد الوقائع وحققها وتثبت من الرّوايات بمقارنتها بعضها البعض وكان دائما يذكر بدقة مصادره التاريخية.

ينقسم كتاب الشماخي إلى جزئين : يمتد الجزء الأول إلى حدود القرن الثاني هجري ويُعْنَى بتاريخ نشأة المدرسة الإباضية في الشرق ، في حين خَصّصَ الجزء الثاني والأكثر أهمية وتفصيلاً إلى إباضية المغرب من دون ترتيبٍ لسير المشايخ ترتيبا هجائيًا أو تاريخيًا.

---

(١) ليفيكي، «كتاب السير لأبي العباس أحمد الشماخي» ، ١٩٣٣، ص. ٦٧.

يعطي ليفيكيLewicki فكرة مفصلة ودقيقة عن مصادر الشّماخي التاريخية الذي اعتمد على مصادر إباضية وغير إباضية، ومن بين المصادر غير الإباضية "سير ابن الصغير" التي نشرها موتيلنسكيMotylinski بالإضافة الى كتاب قيم عن سير أهل جبل نفوسة لا يعلم صاحبها، ويعتقد ليفيكيLewicki أنّه البغطوري.

فيما يتعلق بأسلوب ولغة الكتاب، يؤكد ليفيكي Lewicki أن كتاب الشماخي، إذا ما استثنينا كتاب الدرجيني هو " أحسن كتب السير أسلوبا ولغته تفوق في الجودة والبلاغة جميع كتب السير في شمال افريقيا[١]».

ويضيف ليفيكي Lewicki أن الشماخي بالغ في محاولة إضفاء جانب الفصاحة والبلاغة والأسلوب الراقي لكتابه مما أدَّى به إلى "مراجعة وتغيير الاستشهادات في كتب السير الأخرى من حيث الرسم والأسلوب [٢].

• المبحث الثالث: ملاحظات وتقييم لأعمال المستشرقين

-أهمية المخطوطات ووجود منهجية عمل جديدة

يؤكد جميع المستشرقين الذي ذكرناهم في مقالنا هذا وخصوصًا منهم أولئك الذين درسوا أولى المخطوطات الإباضية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أمثال ماسكيراي Masquerayوموتيلنسكي Motylinski وسموقورزفسكيSmogorzewski ، إن أعمالهم جزئية لا تزال في بداياتها وينبغي مواصلتها لاكتشاف المزيد عن المدرسة الأساسية ويعود هذا إلى عاملين أساسيين:

- تُمَثِّل المدرسة الإباضية منذ ذلك الحين محور بحث جديد ولا يعرف علماء التاريخ والسياسة والاجتماع إلا القليل عنه- أغلبية المراجع الإباضية والمخطوطات في ذلك الحين هي ملك خاص توجد في مكتبات يصعب الوصول إليها.من ناحية أخرى اعتمدت أعمال المستشرقين الآنف ذكرهم على مخطوطات إباضية ممَا يمثل قطيعة منهجية مع أبحاث أوروبية قديمة اعتمدت على مراجع

---

(١) نفس المصدر ، ص. ٧٥.

(٢) نفس المصدر ، ص. ٧٥

عربيـة مشـرقية فـي حيـن تـم تجاهـل المصـادر الإباضية.دراسـة المدرسـة الإباضيـة مـن جميـع جوانبهـا اعتمـادا علـى مصـادر إباضيـة هـو مـا قدمه هـؤلاء المستشـرقون كنظرة وأفق عمـل جديـدة لأن الإباضية ليسـت بمدرسـة جديـدة ولكـن كتـب التاريـخ تجاهلتهـا أو اختزلتهـا أو فـي أحسـن الحـالات درسـتها كجزء من المدرسة الخارجية. وحتى

المواضيـع التـي أطنبـت فـي ذكرهـا كتـب التاريـخ "الإسـلامي الرَسـمي" والأكثـر توزعـا وانتشـارًا تمـت مراجعتهـا ودراسـتها مـن جديـد اعتمـادًا علـى مصـادر إباضيـة ، مثـل الفتنـة الكبـرى والصراعـات السياسـية الأولـى فـي تاريـخ الحضـارة الإسـلامية بيـن معاويـة وعلـي بـن أبـي طالـب التـي درسـتها المستشـرقة الإيطاليـة فاليـري Vaglieri وكذلـك روبيناتشـي Rubinacci الـذي درس علاقـة الخليفـة الأمـوي عبـد الملـك بـن مـروان والإباضيـة.

١- غياب دراسة تاريخية للفكر الاباضي

يؤكـد عمـرو خليفـة النامـي "أننـا لا نعـرف إلا القليـل عـن الإباضيـة ومبادئهـا وأسسـها وتطورهـا علـى الرغـم مـن اهتمـام عديـد الباحثيـن الأوروبييـن المعاصريـن وقيامهـم بدراسـات قيمـة عـن الإباضيـة [...] هـذه الدَراسـات تغلَّـب الجانـب التاريخـي للمجموعـات الإباضيـة وطريقـة عيشـهم مـن جانـب دينـي واجتماعـي عندمـا نسـتثني بعـض المقـالات حـول العقيـدة الإباضيـة ومبـادىء المذهـب الإباضـي، فإننـا نـرى أن مبـادىء الإباضيـة تفتقـر إلـى نظـرة شـاملة وتعـاط جـدَي دقيـق"[١].

ومـن الملاحـظ أن أغلـب الدراسـات حـول المذهـب الإباضـي تُعنـى بجوانـب تاريخيـة أو اجتماعيـة أو سياسـية أو بمسـائل تتعلـق بالجغرافيـا أو المعمـار ، الـخ . وكلهـا مسـائل ملموسـة و حسـية إن صـحّ التعبيـر ، فـإذا نظرنـا مثـلاً إلـى الدراسـات التاريخيـة نجـد دراسـات لتاريـخ المجموعـات الإباضيـة أو المـدن أو تاريـخ اللهجـات ولا مـكان لتاريـخ الأفـكار والمعتقـدات الإباضيـة.

٢- غياب دراسة شاملة لنشأة المذاهب الإسلامية بما في ذلك المذهب الإباضي

لا يخفـى علـى أحـد أنّ أغلـب المستشـرقين وحتـى الباحثيـن الأوروبييـن المعاصريـن في أوروبـا - الذين يرفضـون تسـميتهم بالمستشـرقين- مـن أمثـال سـيريل آيـي Cyrille Aillet و فيرجينـي بريفـو Virginie

(١) عمرو خليفة النامي، دراسات عن الإباضية، ترجمة ميخائيل خوري، ط، بيروت-لبنان، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١، ص. ٣٣

Prévost، بالإضافة إلى باحثين معاصرين من العالم العربي أمثال هشام جعيط والمنصف قوجة يعتقدون أن الإباضية خوارج : يقول سيريل آيي "وعلى الرغم من معارضتهم لهذا التقارب فإن الإباضية ينتمون إلى المذهب الثالث في الإسلام - الخوارج - الذي تميّز سلفًا بمعارضته لنظام الخلافة الوراثي والمطلق المنحصر في القريشيين ، ولايمكن فهم ظهور الإباضية بالبصرة في أواخر القرن السّابع للهجرة بمعزل عن البحث عن حلّ توافقي للتعايش مع المذاهب الإسلامية الأخرى"[1]

ويعود هذا الاعتقاد أساساً إلى غياب دراسة تاريخية لنشأة وتطور المذاهب الاسلامية اعتمادًا على مراجع ونصوص من داخل هذه المذاهب مثلما هو الشأن مثلاً لدراسة الشيخ علي يحيى معمّر الإباضية في موكب التاريخ أو كتاب نشأة الحركة الإباضية للدكتور عوض محمد خليفات. وبذلك يمكن القول أن الإعتقاد السّائد بتصنيف الإباضية ضمن الخوارج هو في الحقيقة لايتجاوز كونه مُعطًا تاريخيًا وسياسيًّا متداولاً – باعتبار الإباضية كانت مع مجموعة الخوارج في رفض التحكيم – لم يتمّ مناقشته جدّيا بل تمّ تداوله وتكراره استنادًا إلى كتب التاريخ عند المذاهب الأخرى واستنادًا إلى تقسيم تاريخي وسياسي للمذاهب الإسلامية، لايعطي للجانب الفكري الأهمية التي يستحق وكأنّ رفض التحكيم أو معارضة نظام الخلافة الوراثي أو أي أعمال أخرى هي مجرّد أحداث وعوارض تاريخية يمكن إفراغها من منطلقاتها الفكرية ونظامها العقائدي الشامل.

- أهمية المصطلحات في التعامل مع ظواهر تاريخية

من المعروف والبديهي عند علماء التاريخ أهمية المصطلحات في وصف ظواهر تاريخية قصد تحليلها حيث يجب تفادي مايسمى بالفرنسية anachronisme أي اسقاط مفاهيم ومصطلحات معاصرة للتعبير عن ظواهر تاريخية، كما يجب تفادي المصطلحات التي تطورت دلالاتها وأصبحت تستخدم في سياقات مغايرة وهو الحال مثلاً بالنسبة لمصطلح secte الذي استخدمه أغلب المستشرقين في أوائل القرن الماضي للإشارة إلى الإباضية ، وهو مصطلح لم تكن له دلالات الطائفة الخطيرة والشاذة لذلك من الخطأ مواصلة استعماله من قبل الباحثين المعاصرين

(1) Aillet, C., 2012, « L'ibâḍisme, une minorité au cœur de l'islam », Revue du monde musulman et de la Méditerranée, 132, pp. 13-36.

خصوصًا بعدما بينت الأبحاث أن الإباضية من أقدم المدارس الإسلامية و أكثرها اعتدالًا و تعتمد في فكرها على القرآن الكريم و ما ثبت من السنة النبوية.

الخاتمة

لقد ساهم المستشرقون في حفظ التراث الاباضي وقاموا بصيانة الكثير من الوثائق و المخطوطات، و في هذا يقول الدكتور عمر لقمان بوعصبانة: « في بداية الكلام عن جهود المستشرقين لا يسعنا الا أن نقف في اندهاش أمام ما قاموا به من أعمال جليلة من تأليف و تحقيق و طبع و نشر كما ندين لهم بالشكر لحفظهم كثيرا من الوثائق و المخطوطات من أن تأكلها الأرضة أو يفرّقها الورثة فعالجوها بالأدوية و حفظوا صورها بالمكروفيلم أو الميكروفيش أو في ذاكرة الحاسوب. و لكن هذا لا يعني رضاءنا التام..»[١]. فالاهتمام بالدراسات حول الاباضية لا بد أن يستمر و يتكثّف و المطلوب مناقشة هذه الدراسات أيا كان مصدرها و الكتابة عنها من أجل دعم الجاد منها و ترك ما هو بعيد عن الموضوعية العلمية. و لا بد من عقد المؤتمرات و الندوات حول الموروث العلمي و الحضاري للاباضية و نشر الكتب و المجلات في هذا الميدان. و في الأصل الاباضية هم المعنيون أكثر من المستشرقين و غيرهم بدراسة و استكشاف تراثهم بعمق و استشراف مستقبل مجتمعاتهم. و هذا لا يأتي إلا بإنشاء و تفعيل مراكز بحثية تفتح الآفاق لرؤية مستقبلية لا تتحرك بسياسة ردود الأفعال و انما تعتمد منطلقات علمية دقيقة و آراء غير متطرفة لتبدع فيما فيه صلاح الأمة و وحدتها كما يجب علينا أن لا نغفل عن تأسيس المعاهد و الجامعات التي ترعى هذا الفكر و تنمَيه كل ذلك تحت مظلَة المعرفة و التعارف و الاعتراف.

---

(١) محاضرة حول « المستشرقون و تراثنا» منشورة على موقع فيكوس و مجلة الحياة.

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

١. عمرو خليفة النامي، دراسات عن الاباضية، ترجمة ميخائيل خوري، ط، بيروت - لبنان، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١

٢. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، تراثنا بين ماضٍ وحاضر. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٥٣.

المراجع الأجنبية :

1. Lewicki, T. "Al-Ibadiyya", E.I., 2nd edition.
2. Lewicki, T. « Al-Nukkar », E.I., supplément, 172-173.
3. Lewicki, T. « La répartition géographique des groupements Iba?ites dans l'Afrique du Nord au moyen-âge », Rocznik Or., 21 (1957), 301-343.
4. Lewicki, T. « Les historiens, biographes et traditionistes Ibadites-wahbites de l'Afrique du Nord du VIIIe au XVIe siècles », Folia Or., 3 (1961), 1-134.
5. Lewicki, T. « Les Ibadites dans l'Arabie du Sud au Moyen-âge », Folia Or., I (1959) 3-17. Also 24 Int. Cong. Or., 362-364.
6. Lewicki, T. « Les Ibadites en Tunisie au moyen-âge », Conférence tenue à la Bibliothèque de l'Académie Polonaise de Rome, 17 Feb. 1958.
7. Lewicki, T. « Les subdivisions de l'Ibadiyya », Studia Islamica, IX, (1958), 71-82.
8. Lewicki, T. « Mélanges berbère-ibadites", Revue étud. Isl., 1936, 267-285.
9. Lewicki, T. « Notice sur la chronique ibadite d'ad-Dargini", Rocznik Orientalistyczny, t. XI, 1935, 146-172.
10. Lewicki, T. « Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires nord-africains au pays du Soudan occidental et central au Moyen Age », Folia Or., 2 (1960), 1-27.
11. Lewicki, T. « Quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite anonyme », Revue étud. Isl., 1934, III, 1935, 257-296.

12. Lewicki, T. « Un document Ibadite inédit sur l'émigration des Nafusa du Gabal », (Note supplémentaire), Folia Or., 2 (1960), 214-216.
13. Lewicki, T. « Une chronique ibadite 'Kitab al-Siyar d'Abu'l-cAbbas Ahmad aš-Šammakhi », Revue étud. Isl., 1934, 59-78.
14. Masqueray, Chronique d'Abou Zakaria, Paris-Alger, 1878
15. Motylinski, .A. de C., « Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert », 1908.
16. Motylinski, A. de C., « Bibliographie du Mzab », Bulletin de Corres. Afric., 1885, 23-24
17. Motylinski, A. de C., « L'Aqida des Abadhites », Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIVe Congrès des Orientalistes, Alger, 1905.
18. Motylinski, A. de C., « Le manuscrit arabo-berbère de Zwarra », 14 Cong. Int. Or., 1905, II, 4 section, 68-78
19. Motylinski, A. de C., Le Djebel Nefousa, Paris, 1899
20. Nallino, C.A. « Rapporti fra la dogmatica Mu'tazilita e quella degli Iba?iti dell'Africa Settentrionale », R.S.O., Vol. VII, Roma, 1916-18, 455-460
21. Rubinacci, R. "Notizia di alcuni manoscritti Ibāḍīti presso l'Instituto Universitario Orientale di Napoli", A.I.O.N., N.S. 3 (1949) 431-438.
22. Rubinacci, R. "The Ibāḍīs", Religion in the Middle East, General editor: A.J. Arberry, Cambridge, 1969, II, 302-317.
23. Rubinacci, R. « Il 'Kitab al-Gawāhir' di al-Barrādī », A.I.O.N., N.S. 4 (1952), 95-110.
24. Rubinacci, R. « Il 'Alīffo 'Abd al-Malik b. Marwān e gli Ibāḍīti », A.I.O.N., also, "Un antico documento...", Vol.X, 37-78.
25. Rubinacci, R. « La professione di fede di al-Gannāwunī », A.I.O.N., XIV, (1964), 552-592.
26. Rubinacci, R. « La purita rituale secondo gli Ibāḍīti », A.I.O.N., N.S. 6 (1954-6), 1-41.
27. Sachau, E. "Uber die Reliösen Anschauungen der Ibâitischen Muhammedaner in Oman und Ostafrika", Mittheluugen des Seminars für Orientalische Sprachen, Vol. II, 97-82, 1899.
28. Sachau, E. « Uber eine Arabische Chronik aus Zanzibar », M.S.O.S., Vol. I, 1898.
29. Sachau, Uber die Reliösen Anschauungen der Ibâitischen Muhammedaner in Oman und Ostafrika, Mittheluugen des Seminars für Orientalische Sprachen, 1899.
30. Sachau, Uber eine Arabische Chronik aus Zanzibar, 1899.
31. Saïd E., L'orientalisme : L'Orient créé par l'Occident, éd. 1995.

32. Schacht, « Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara », Travaux de l'Institut de recherches sahariennes, Paris, 1954.

33. Schacht, An introduction to Islamic Law, Clarendon paperbacks, Oxford, 1982.

34. Schacht, J. « Bibliothèques et manuscrits Abadites », Rev. Africaine, 100, 375-398, 1956.

35. Schacht, J. « Notes mozabites », al-Andalus, 22, 1-20, 1957.

36. Shinar, Pessah. "Ibāḍiyya and orthodox reformism in modern Algeria", Studies in Isl. his. And civilisation, Scripta Hierosolymitana, IX, 97-120, 1960.

37. Smogorzewski, Z. « Essai de Bio-bibliographie Ibâḍite-Wahbite. Avant-propos », Rocznik Or., V, 45-47, 1928.

38. Smogorzewski, Z. « Un poème sur certaines divergences entre les Mālikites et les Abāites », Rocznik Or., t. 11, 260-268.

39. Strothman, Berber und Ibâiten, Der Islam, 17, 258-279, 1928

40. Thomson, W. "Khārijīsrn and Khārijites", The Macdonald Presentation Volume, Princeton, 1933, 373-389.

41. Veccia VAlīeri, L. "L'Imāmato ibāita dell' 'Oman", A.I.O.N., N.S. 3, 245-282, 1949.

42. Wellhausen, Die religios-politischen oppositionsparteien im alten Islam I. Die chavarig. II. Die Shi'a, Arabic translation by 'Abd al-Ramān Badawī, Cairo, 1958.

• **التعريف بالمستشرقين المذكورين في البحث**

- سموقورزفسكي Zygmunt Smogorzewski (١٨٨٤ - ١٩٣١)

هو مستشرق بولوني متخصص في اللغة العربية، عمل في السلك الدبلوماسي أثناء فترة القيصر الروسي (١٩١٢) واشتغل أيضا أستاذا في جامعة لفوف في بولونيا، وهو أيضا من بين مؤسسي الجمعيةالبولونية للشرق، اشتغل من سنة ١٩١٢ إلى ١٩١٤ مساعدا للقنصل الروسي في الجزائر وقام بأول رحلة له إلى المغرب العربي حيث قام بأبحاث في مجال اللسانيات، أول عمل له حول الإباضية قام به سنة ١٩٢٨ تحت عنوان "دراسة في سير وأدب الإباضية".

- شاخت Joseph Franz Sascht (١٩٠٢ - ١٩٦٩)

باحث ألماني في الدراسات العربية والإسلامية ، حائز على شهادة الدكتوراه من جامعة بريسلاو ،تبوأ منذ سنة ١٩٣٢ منصب رئيس دائرة الدراسات الشرقية في جامعة كونينسبورغ قبل الذهاب إلى مصر حيث عمل في جامعة القاهرة كأستاذ زائر. من أشهر كتبه "أصول الفقه المحمدي" عام ١٩٥٠.

يعتبر شاخت من أكثر الوجوه الإشكالية في مجال الدراسات الإسلامية، فإن البعض يعتبره مستشرقاً بامتياز بسبب مواقفه المشككة بركائز الفقه الإسلامي. أما البعض الأخر فيعتبر أن معرفته الواسعة بالتاريخ الإسلامي سنحت له بتقديم مقاربة جديدة لنشأة الإسلام. وفي عام ١٩٥٤ وضع شاخت كتابه "مقدمة للفقه الإسلامي" الذي مثل خلاصة فكره.

- ليفيكي Lewicki (١٩٠٦ - ١٩٩٢)

هو مستشرق بولوني مختص في اللغة العربية، من أشهر أعماله دراسات حول المسافرين العرب وهو من كبار المختصين في المدرسة الإباضية في شمال إفريقيا. استغلَ مجموعة المخطوطات التي حملها أستاذه سموقورزفسكي إلى جامعة لفوف في بولونيا.

نشر قبيل الحرب العالمية الثانية عديد الدراسات بالفرنسية، تعنى بالشأن الإباضي. متحصل على شهادة في الحقوق من جامعة لفوف، أتم دراسته في الفيلولوجيا الشرقية في باريس سنة ١٩٢٨ ومن ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٤، وقد أصبحت اللغة الفرنسية في ذلك الحين اللغة الأكثر استعمالا من قبل المثقفين البولونيين، وبذلك كانت جل دراسات ليفيكي Lewicki بالفرنسية.

اختص في دراسة التاريخ والأدب الإباضي (دراسات إباضية في شمال أفريقيا، فرصوفيا، ١٩٥٥) وأكمل بذلك أعمال سموقورزفسكي Smogorzewski. قام برحلات علمية إلى مزاب وورقلة في السنوات العشرين والثلاثين من القرن الماضي قبل أن يعود إلى مزاب من جديد سنة ١٩٨٤.

وليفيكي Lewicki من المساهمين في النسخة الثانية للموسوعة الإسلامية و قد أثراها بتراجم عدة لشخصيات إباضية.

وفي دراسته عن ليفيكي يقول الباحث و المؤرخ صالح بن ادريسو في مقال نشر بمجلة المنهاج العدد الأول: "ولقد أحصينا له قرابة ٤٧٠ عملا، يعتبر معظمه دراسات مصدرية في مواضيع تاريخية تراثية ولسانية، بين كتاب وتحقيق، و بحث في دوريات متخصصة و دراسة مادة أو ترجمة عَلم في موسوعة خاصة باللغات الفرنسية، البولونية، الإنجليزية والإيطالية. فمنذ أول إصدار له سنة ١٩٢٩ ، لا تكاد تخلو سنة من إصدار علمي إلى غاية سنة١٩٩٣ .

من مجموع هذه الأعمال، نجد حوالي ٦٥ عنوانا مباشرا خاصا بالإباضية و حوالي ٣٠ آخر في دراسة غير مباشرة عن الإباضية. ولقد ترجم بعض منها إلى العربية، منها ما نشر ومنها ما لم ينشر"

- ماسكيراي Emile Masqueray (١٨٤٣ - ١٨٩٤)

مختص في اللّسانيات والتاريخ تحصّل على شهادة التبريز من دار المعلمين العليا في فرنسا. تعلّم العربية في سن الثلاثين واهتم بدراسة اللهجات البربرية، قبل أن يقوم سنة ١٨٧٥ برحلة علمية استكشافية إلى منطقة مزاب دامت ثلاث سنوات، كان الهدف الرئيسي لهذه الرحلة المدعومة ماديا من وزارة الشؤون العامة والفنون الجميلة، هو دراسة اللّهجات البربرية، وحظيت هذه الرحلة في بداية الأمر بدعم رئيس جامعة الجزائر العاصمة الذي كان يرى لهذه الرحلة أهمية علمية وسياسية تخدم المصالح الاستعمارية لفرنسا.

وفي رسالة خطها ماسكيراي Masqueray يوم ١٥ جانفي ١٨٧٨، تحدث فيها هذا الأخير عن مشروعه وبرنامجه العلمي من هذه الرحلة : مقارنة معجم الألفاظ في زناقة (السينغال) واللهجة البربرية لبني مزاب، وكان ينوي إعداد معجم ونشره بالإضافة إلى العودة بمجموعة آثار إلى المتحف الأنثروبولوجي بباريس، وقبل ذهابه في هاته الرحلة، يؤكد ماسكيراي على دراسة ما

اصطلح على تسميتهم بالبربر: تاريخهم و لغتهم ونمط عيشهم، من بين أعمال ماسكيراي حول الإباضية نذكر:

١٨٧٨ – ترجمة إلى الفرنسية لسير أبي زكرياء الوارجلاني Chronique d'Abou Zakaria

١٨٧٨ – سير مزاب Les chroniques du Mezab

وهذه الدراسة هي الأولى التي تُعنى بالمخطوطات الإباضية من خلال تقديم للأعمال الإباضية التي ورد ذكرها في جواهر البرادي مع إضافة ملاحظات شخصية، ولم يُشِر ماسكيراي Masqueray إلى المكان الذي وجد فيه هذه المخطوطات ويعتقد عمرو خليفة النامي أنّ هذا العمل تشوبه عديد النقائص إلاّ فيما يتعلّق بالجوانب التاريخية.

- موتيلنسكي Adolphe de Calassanti Motylinski (١٨٥٤-١٩٠٧)

هو مستشرق بولوني ولد سنة ١٨٥٤ وتوفي سنة ١٩٠٧، مختص في اللسانيات و زاول مهنته كمترجم قبل السفر إلى مزاب حيث درس الثقافة البربرية والمدرسة الإباضية ونشر دراسة عن الاتفاقات سنة ١٨٨٤ . و غطى اهتمامه بالمخطوطات و السير الإباضية كل مناطق تواجد الإباضية في شمال أفريقيا.

- والهاوزن Jullius Wellhausen (١٨٤٤-١٩١٨)

تخصص في دراسة التاريخ الإسلامي والفرق الإسلامية، من أبرز إنتاجه تحقيق تاريخ بعنوان "الإمبراطورية العربية وسقوطها" ، ومن اهتماماته بالفرق الإسلامية الطبري، وألف كتابا تأليف كتابيه "الأحزاب المعارضة في الإسلام" وكتابه "الخوارج والشيعة" وكتب عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- في كتابه "تنظيم محمد للجماعة في المدينة" وكتابه "محمد والسفارات التي وجهت إليه".

- فالييري Vaglieri (١٨٩٣ - ١٩٨٩)

لاورافاكيا فالييري Laura Veccia Vaglieri هي ابنة عالم الآثار المشهور دانتي فالييري Dante Vaglieri. إثر دراسة موجزة وسريعة حول القانون التونسي، وهي دراسة بطلب من وزارة المستعمرات الإيطالية سنة ١٩١٧. كتبت فالييري كتابًا حول تمجيد الإسلام ، وكانت المشاركة الوحيدة التي لم تكن تنحدر من أصول عربية أو إسلامية في المؤتمر السنوي لمسلمي جينيف بسويسرا. وفي سنة ١٩٣٧ ألفت كتابًا في النحو النظري والتطبيقي للغة العربية واهتمت

بعد ذلك بدراسة تاريخ القرون الأولى من الحضارة الإسلامية ونشرت سنة ١٩٥٠ دراسة حول الخلاف السياسي بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

- نالينو Carlo Alfonso Nallino (١٨٧٢ - ١٩٣٨)

كارلو ألفونسو نالينو هو مختص في اللغة العربية وباحث في الحضارة الإسلامية وأكاديمي إيطالي، ينتمي إلى عائلة عريقة من كبار العلماء والباحثين. نشر وهو في العقد الثاني من عمره دراسة تحتوي على ٣ مجلدات تتعلق بالجغرافيا والعلوم الإسلامية ، كما درَّس في جامعات نابولي Naples، بالرمو Palerme والجامعة المصرية حيث كان طه حسين أحد تلاميذه.

- **لمحة عن بعض الاصدرات المعاصرة حول الاباضية**

-فرنار شوارتز ١٩٨٣ Werner SCHWARTZ: بدايات الإباضية في شمال أفريقيا : مساهمة أقلية مسلمة في انتشار الإسلام.

هذه الدراسة هي الجزء الثامن الذي تنشره مجموعة عمل ألمانية تحت إشراف ناجل و نوث، تختص بدراسة الأقليات في الإسلام . وقد عنونها : بدايات الإباضية بشمال أفريقيا، مساهمة أقلية مسلمة في نشر الإسلام. و درس المؤلف في هذا الجزء حوالي خمسين مخطوطة من جربة ، واطّلع أيضا على أعمال ليفيكي Lewicki و محمود إسماعيل .

أمّا منهجية العمل فتعتمد على الانطلاق من مجموع الشهادات والأحداث التي تحتويها المخطوطات قبل محاولة تأويلها ، ويعتبر الكاتب أنّ هذه الطريقة هي الأنجع لإظهار الحقائق التاريخية. ويوفر هذا العمل تحليلات تُؤكد ماتحتويه المصادر الإباضية من وجهات نظر سياسية تتلاقى فيها المدرسة الإباضية مع المدارس الأخرى في فترة الجيل الأول للإباضية بالبصرة واضطهاد الخوارج.

- Ulrich Rebstock ١٩٨٣ : الإباضية في المغرب . قصة الحركة البربرية تحت ستار الإسلام

يدرس رابستوك Rebstock

في هذا الكتاب تاريخ انتشار الإسلام في شمال أفريقيا من قبل الإباضيين والجوانب السياسية الاجتماعية أثناء فترة الدّولة الرستمية ، اعتمادًا على مصادر ومراجع إباضية وغير إباضية.

- Werner SCHWARTZ ١٩٨٨ فرنار شوارتز: كتاب ابن سلام

كتاب ابن سلام هو أقدم نص في تاريخ أفريقيا الشمالية أخرجه فيرنر شوارتز Werner Schwartz انطلاقًا من مخطوطات إباضية في جربة ، ويدرس شوارتز Schwartz تاريخ انتشار الإباضية وانتقالها من العراق إلى المغرب العربي من خلال حملة العلم الذين ساهموا في تكوين مجموعات من المؤمنين وأهل الدّعوة.

– بيار كوبرلي Pierre Cuperly. ١٩٨٤ مقدمة لدراسة الإباضية و عقيدتها

إثر قيامه بزيارتين متتاليتين إلى مزاب، قرّر كوبرلي Cuperly ، الذي كان من الآباء البيض، إعداد دراسة شاملة للعقيدة الإباضية. وكانت دراسات عديدة قد تطرّقت لموضوع العقيدة الإباضية بالتركيز على عديد الجوانب الجزئية اعتمادًا على مراجع إباضية ، من بينها أعمال إيطالية لمورينو Moreno وروبيناتشي Rubinacci وكريمونازي Cremonesi، بالإضافة إلى أعمال الدكتور عمرو خليفة النامي.

ويقدّم كوبرلي Cuperly في دراسته هذه عرضا شاملاً للعقيدة الإباضية اعتمادًا على نتائج الأبحاث السّابقة ، ولكن أيضا وقبل كل شيء، من خلال اطّلاعه المباشر على المصادر الأصلية الموجودة بمكتبات مزاب، مطبوعة كانت أو مخطوطة.

ينقسم هذا الكتاب إلى جزأين : يحتوي الجزء الأول على تحليل لمصادر للعقيدة الإباضية وهذا يعني، بشكل أكثر دقة، تحليل عدد من النصوص الإباضية في المغرب والمشرق التي يعتقد المؤلف أنها الأهمّ والأنسب لفهم المذهب الإباضي، ويحتوي الجزء الثاني على دراسة تفصيلية للعقيدة الإباضية ، كما تتجلّى في هذه المصادر المختلفة، وكذلك مراجع أخرى أكثر شمولية وعمق، بما في ذلك الموجز لأبي عمار عبد الكافي وأبو يعقوب يوسف الوارجلاني، ومن بين القضايا العقائدية التي ناقشها كوبرلي Cuperly قضية التوحيد والصفات الإلهية وخلق القرآن ورؤية الله والقدر والإمامة.

- بتريسا كرون Patricia Crone ٢٠٠١ و فريتز زيمرمان Fritz Zimmermann. رسالة سالم بن ذكوان. جامعة أكسفورد.

رسالة سالم بن ذكوان هي سيرة إباضية قديمة كانت موضع دراسة، كما تمّت ترجمتها جزئيا، قبل أن يقوم المؤلفان بتريسا كرون و فريتز زيمرمان في هذا العمل بتحقيقها وإخراجها وترجمتها كاملة وإضافة ملاحظات عديدة.

ويستند هذا العمل على العديد من المخطوطات منها تلك التي سلّمها عمرو خليفة النّامي أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه في جامعة كامبريدج إلى مارتن هيندز Martin Hindsونسختان أخرتان تحصّل عليها المؤلّفان من قبل عبد الرحمن السالمي، واستند المؤلّفان أيضا على دراسة سابقة لمايكل كوك Michael Cookوجوزيف فان إيس Josef von Ess ومادیلونغ Madelung وكالدر Calder و اعتمدوا في عملهم على التحليل و التأويل و وصلوا -حسب رأيهم- إلى استنتاجين: أما الاستنتاج الأول فيؤكد أن كتاب الإرجاء هو تزوير قام به الإباضيون وفرقة المرجئة في الكوفة في أواخر فترة الأمويين على حساب المتمردين الشيعة، وأمّا الاستنتاج الثّاني فيتعلّق بسيرة سالم بن ذكوان حيث يعتقد المؤلّفان أنّ هذا الكتاب يتألّف من ٤ أجزاء. و باعتقاد المؤلفين بتريبيسا كرون و فريتز زيمرمان يمكن أن تكون هذه السيرة دُوّنت في عمان في فترات مختلفة تمتدّ من سنة ١٣٤ إلى ١٧٧ هجري.

- سيريل آيي Cyrille Aillet ٢٠١٢ الإباضية : أقلية في قلب الإسلام

يدرس هذا الكتاب الموقع الذي تحتلّه الحركة الإباضية في العالم الإسلامي وظروف نشأتها وتطورها ابتداء من المؤسسين الأوائل وحتّى العصر الرّاهن، بالإضافة إلى أماكن تواجد الإباضية وإشكاليّات الذاكرة والتّراث.

وتندرج هذه الدراسة ضمن مشروع بحث أُطلق عليه اسم مغرباضية Maghribadite أي إباضية المغرب يهدف إلى إحياء الأبحاث الفرنسية في مجال العلوم الإنسانية (علم الآثار والتاريخ في القرون الوسطى والديانات واللسانيات، الخ) ضمن فريق متعدد التخصصات.

- فاليري هوفمان Valérie Hoffman٢٠١٢

نشرت الباحثة فاليري هوفمان Valérie Hoffman في السنوات الأخيرة عديد المقالات عن الإباضية في عمان وزنجبار أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين، ويتعلق كتابها الأخير بالعقيدة الإباضية التي تحاول نشرها وتبسيطها للعموم من خلال ترجمة نصوص معاصرة.

ينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام: مقدمة مُطوّلة وترجمة لكتاب العقيدة الوهبية لناصر الرّواحي، وترجمة لعدّة مقاطع من كتاب معالم الدّين لعبد العزيز الثميني، وتُعطي المؤلّفة في آخر الكتاب معجمًا كبيرًا وقاموسًا سير ذاتية وقائمة في المراجع المعتمدة مع فهرس كامل.

وتُمثل الترجمة الكاملة لكتاب العقيدة الوهبية الذي تنوي فاليري هوفمان Valérie Hoffman

تحقيقه ونشره في قادم الأيّام، المحور الرّئيسي للكتاب. ويُعَدُّ اختيار النصوص المترجمة من قبل فاليري هوفمان Valérie Hoffman التي تقدّم بشكل واضح المفاهيم الصعبة للمدرسة الإباضية اختيارًا صائبًا ومكمّلاً للعمل الذي قام به كوبرلي Cuperly.

الدّرجيني مؤرّخ بالمهارة والاكتساب أديب بالفطرة

سناء الباروني

أستاذة مساعدة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة وباحثة في الأدب والحضارة الإسلامية/تونس

Sana_Barouni@yahoo.fr

قراءتنا لكتاب طبقات المشائخ بالمغرب[1] لأبي العبّاس أحمد الدّرجيني[2] هي قراءة في فحواه بين المعنى والمغنى بمعنى الأدبيّة شكلا ومضمونا. وهي قراءة لا تنبع من داخل مجال التّأريخ، وإنما تروم أن تستقلّ عنه لتعود إليه وتحكم عليه وتستغلّه. فهي نظرة خارجيّة تستعمل فحوى المادّة التّاريخيّة ومنهج التّأريخ كعنصرين معرفيّين أساسيّن لفهم علامات الأدبيّة لدى الدّرجيني في طبقاته وسبر أغوارها.

ويدفع اتّساع المبحث الأدبي في كتاب الطّبقات إلى مواجهة إشكاليات رحبة فيه ، أخذنا بعين الاعتبار بها لماما في هذا العمل دون أن نستوقف عند كلّ إشكال فيها على حدة. وأوّلها ضرورة التّركيز على شخصيّة المبدع.

ثانيها ، النّظر في ملامح مجتمعه وبيئته .

(١)اعتمدنا في هذا البحث على طبعة إبراهيم طلّاي وتحقيقه طبعة مزيدة ومنقّحة . في جزئين . دت .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف بن يخلف النفوسي توفيّ حوالي (١٢٧١/٦٧٠) .. جاء الاهتمام بكتابة السّير على يديه وهو أشهر علماء درجين بالجريد التّونسي. بعد تعلّمه الأوّل بدرجين رحل إلى وارجلان سنة ١٢١٩/٦١٦ لتلقّي العلم ثمّ عاد إلى موطنه. كان مؤرّخا محقّقا أبدع منهجا جديدا في كتابة السّيرة الإباضيّة هو منهج الطّبقات ووضع في ذلك مؤلّفه المشهور طبقات المشايخ بالمغرب في جزأين وجعل مدار كلّ طبقة خمسين سنة وبدأ بالطّبقة الثّانية (٥٠- ١٠٠/٦٧٠ – ٧١٨) معتبرا أن الطّبقة الأولى أشهر من أن يضيف إليها شيئا ولذلك ألّف أبو القاسم البرّادي بعد قرنين تقريبا(١٤٠٧/٨١٠) كتابه» الجواهر المنتقاة فيما أخلّ به كتاب الطّبقات. طبع طبعة حجريّة القاهرة ١٨٨٥.ر علي يحيى معمّر : الإباضيّة في موكب التّاريخ ٢/ ١٣٢-١٣٣ معجم أعلام الإباضيّة ج ٢/٤٥-٤٦.

أمّا ثالثها، الهناية بهويّة النصّ المبدَع وخصائصه.

إلاّ أنّ ضرورة الالتزام بمقتضيات حجم المقال ، يجبرني أن أقف بمجهر الفحص والنّقد على أهم نتائج النظر في أدبية الدرجيني في ضوء منهاجه التأريخي.

لئن كان لبحثنا في هذه الأدبية جانب تاريخيّ ، فهو من التاريخ الأدبي وليس من تاريخ الأدب [١] لأنّ فحص خصوصية عمل الدرجيني في صناعة طبقاته والنظر في جهة تلك الخصوصية أهي في المادة التي يتناولها أم في المنطق الذي يستعمله ، يحيلنا لزاما على دراسة شخصية الدرجيني التي بدورها تحيلنا على دراسة عصره وثقافته ومؤثّراتها وانتمائه الحضاري وهي جوانب على غاية من الاتّساع ، لذلك فقراءة أدبية الدرجيني لا تحتاج لنقد أسلوب الطبقات فحسب، بل تلتزم أيضا بتحليل الأسس النظرية والمنهجية فيه التي منها نخلص إلى تشكّل الظاهرة الأدبية فيما وثّقه النص التاريخي في بعده الوظيفيّ .

أبو العبّاس أحمد الدرجيني لم يكن مجرّد راو للأحداث ، أو ساردا لما جرى في الماضي ، أو ناقلا لمناقب الرجال دونما ذائقة فنية، إنّما نلمس من خلال صناعته في ترصيف الطبقات ترصيفا منضّدا وفق خمسة عقود لكل طبقة؛ أوّلا وعيا بمجموع القوانين التي أسست لهذه الطبقات تدريجيا وجدليا ، وثانيا حبكة أدبية ملك ناصيتها، وقد قامت على أساليب البيان من سجع وجناس وتشبيه واستعارة، بحث في ضونها الدرجيني في كلّ ما أورد من أنواع نثرية خطبا ورسائل وحكَما عمق السيرة وجمال الشكل.

ولعلّ هذه المزية المهمة تجعل - في رأينا كتاب الطبقات ميدانا خصبا للدراسات اللغوية منها والبلاغية والأسلوبية، وقد استعرضنا بعض الأمثلة منها في هذا البحث على سبيل المثال لا الحصر أنموذجًا لطيفا من تأريخه لشخصية مهدي النفوسي وهو أحد من صدّ مكائد

(١) تاريخ الأدب : هو التطور التاريخي للكتابة الشّعرية والنّثريّة

نفّاث[١] وقمع انتشار الفتن، يقول في تدوين سيرته :» ومنهم مهدي النفوسي رحمه الله. قدم الجدال ومدرة النّضال. المقدّم في علم البرهان والاستدلال، المحتجّ على إمكان الممكن، واستحالة المحال، وعلى الفرق بين الحلال والحرام، ولنعم حشو الدّرع هو إذا دعيت نزالِ، الرّادع لقيام أهل البدع والضلال». [٢]

لقد تجلّت من خلال هذا التعريف بالنفوسي ، مقوّمات النصّ المبدَع باعتباره جنسا نثريّا مخصوصا تحرّك في حيّز دلالي بمحاور ثابتة وأخرى متحوّلة . ويضعنا الوقوف على محرّكات الإبداع التأريخي بالمعطيات اللغويّة والفنيّة والمقوّمات البلاغيّة القائمة ، أمام عالم الدّرجيني المخصوص ويتّخذ البعد التّأريخي عنده وضعا جديدا ويتلبّس بوظائف جديدة لايتسنّى لنا اكتشافها وإدراكها إلاّ بفهم طبيعة العلاقة بينهما في صلب النّظام الإبداعي الجديد، وهو هنا التّأريخ بمهارة الأدب الذي تكيّف مع شخصيّة الدّرجيني الخلاّقة . كما نلمس في صناعة الطبقات روح الدعابة عند الدرجيني وإخراج بعض السّير إخراجا فنيّا مخصوصا كسر به الدّرجيني الترتيب التاريخي ورتابة التدوين فيه بحثا عن التكوّن الإبداعي وسعيا إلى جعل الأدبية شكلا ومضمونا من خلال الملحة جزءا من جوهر الجنس الأدبي لطبقاته وقد جاءت تخريجته واضحة في هذا المضمار بما ورد بالقصة الآتية : وذكر المشائخ أنّ باثمان صحب أبا مهاصر موسى بن جعفر يريدان التوجه إلى الحج و أبو مهاصر يتوهّم أنه خرج معه مودعا له حتى وصلا مصلّى أبي مهاصر فوقفت به أتانه فدعا الله فقال له ابق في حفظ الله ياباثمان فقال له باثمان أوَ تقول ذلك يا موسى بن جعفر؟ أو ترى أني أقيم بعدك ؟ لعلّنا نرعى الإبل و الغنم. فقال أبو مهاصر فإذا عزمت فتوكل على الله. فاصطحبا و موؤنة باثمان على أبي مهاصر حتى قال له رجل ممّن سار معهما إلى الحج: اترك باثمان إلي لأقوم به ففعلوا و مضوا و باثمان يمونه الرجل المتكفل

---

(١) النفّاثيّة : هم أتباع نفّاث فرج بن نصر نشأ بنفّوسة ودرس بتاهرت على أيدي الأئمّة الرّستميين والعلماء الإباضيين كان خلافه مع الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرّحمان بن رستم (حكم بين ٢٠٨- ٢٥٨/ ٨٢٣-٨٧١) (نهاية ق ٢ وبداية ق ٣ /٨-٩). عندما لم يعيّنه حاكما عن قنطرارة بعد وفاة حاكمها. فوجّه انتقاداته إلى الإمام كان من أهمّها قوله بأنّ الإمام العاجز عن حماية رعيّته من الظّلم لا يحقّ له أن يجمع الزّكاة منهم لأنّه ضعيف غير قادر على القتال والدّفاع عنهم. اختلف نفاث مع الوهبيّة في بعض الأراء الفقهيّة. والعمل الوحيد لنفاث هو رسالة قصيرة تحتوي على بعض الرّسائل المتعادلة بين المراجع الإباضيّة القديمة، كتبها نفّاث إلى أبي القاسم سدرات بن الحسن البغطوري (ت ٣٣٣/٩٢٥) أحد كبار العلماء في نفوسة وهي تصوّر نظرة نفّاث للمجتمع الإباضي في نفوسة.

(٢) الدّرجيني : السير . ج٢/ ص ١٢٧.

بمؤونتـه. حتـى وصلـوا أرض الحجـاز فقالـت عجـوز للمتكفـل بباثمـان:» دع هـذا فإلـى متـى تحملـه ؟ فأخـذ بقولهـا و خلّـى باثمـان. فعـاد إلـى أبـي مهاصـر كمـا كان أولا فبقيـت فـي نفـس باثمـان مضاضـة مـن كلام العجـوز فتكلّـم بمـا معنـاه: وصلنـا أرض الحجـاز وموضـع كـرب النفـوس فذهبـت المـروّة و ثبـت الديـن لمـن كان عليـه، فيـا سـيل إيـاك إيـاك الرجـال و دونـك العجائـز، لا تـدع منهـن مـن يعبـر. قيـل فأرسـل الله سـيلا فهلـك فيـه ثلاثمائـة عجـوز و لـم يضـر أحـدا مـن الرجـال و قيـل قـد حفـظ مـن كلام عمـر رضـي الله عنـه فـي العجائـز مـا ينبغـي معـه الحـذر منهـن. روي عنـه أنـه قـال لأن أجـد فـي بيتـي سـبعين سـارقا أحـب إلـى مـن أن أجـد فيهـا عجـوزا واحـدة و إن كان هـذا مـن غيـر هـذا المعنـى (١).
إنّ نزعـة الدّعابـة أو « السـخرية» الملتبسـة بالحكمـة وإظهـار القيـم الإيجابيـة والسـلبيّة فـي التصنيـف التأريخـي، وإمكانيـة ربطهـا بالنزعـة النّقديـة لذهنيّـة ظهـرت فـي مقامـات معيّنـة كمـا رأينـا مـن خـلال هـذه القصّـة القصيـرة التـي أوردهـا الدرجينـي ، هـو مـا يجعـل فـي اعتقادنـا مفهـوم الجنـس الأدبـي فـي تاريـخ كتـاب «الطّبقـات» موضعـا ذا علامـة . ولعلّ الجهـاز الاصطلاحـي المتعـدّد الـذي اسـتخدمه الدّرجينـي للإحالـة علـى هـذا المفهـوم يعكـس مـدى تشـعّب الظـواهـر الأدبيّـة فـي عمليّـة تدوينـه للكتـاب.

ولا شـكّ أنّ طبقاتـه هـذه وقـد أتـى عليهـا حيـن مـن الدّهـر منـذ أكثـر مـن ثمانيـة قـرون يطـرح منهـج ترصيفهـا هـذا، وأسـلوب تدوينهـا، جملـة مـن الملاحظـات أهمّهـا يتعلّـق بصيغـة الكتـاب الّتـي مـن الواضـح أنّهـا لـم تنشـأ عنـد صاحبهـا مـن قـراءة عاديـة للوثائـق والأحـداث. فنشـأة الدّرجينـي فـي القـرن السـابع للهجـرة بوسـط علمـي وفـي رحـاب أسـرة مثقّفـة، سـاعدته علـى أن ينظـر فـي أمـر التاريـخ والسـير بمنهـج أكثـر تفاعـلا مـن غيـره مـن المؤرخيـن الإباضيـة . فهـو قـد جمـع فـي نظرتـه للتاريـخ الإسـلامي ولطبقـات المسـلمين نظـرة مزدوجـة تعاضـدت فيهـا متانـة تكوينـه العقلـي والشـرعي فبـدا أحيانـا بمنطـق المـؤرّخ الصـارم وبـدا حينـا آخـر بحـسّ الأديـب اللافـت للانتباه،القـادر علـى التأثيـر ، بالصـور البيانيـة والمحـسنات اللفظيـة الـشكلية والمعنويـة. كمـا خضـع القـول فـي توثيـق بعـض سـير الأعـلام الأخـرى إلـى الحافـز الوجدانـي، لنزعـة فـي الـذّود والدفـاع الضمنـي عـن الأصـول الإباضيـة، وهـي نزعـة تُفهـم بالإطـار النفسـاني والاجتماعـي الـذي كابـده الإباضيـة عبـر العصـور وهـذا الأمـر مـن الوجهـة المنهجيّـة، لـم يكـن قسـرا علـى الدرجينـي

(١) الدّرجيني : السّير . ج٢/ ص ص ١٢٦-١٢٧.

وحده، فكثير من أصحاب السير الإباضية أرّخوا بحسّ وجداني تفاوت بين التجلّي والتخفّي في كثير من الأحيان.

طبقات المشائخ بالمغرب حينئذ، هو نص ثري مكتنز بالمعاني الثقافية والمواقف الفكرية. بدا الدرجيني من خلالها شديد الكلف بالتقسيم الزمني وبإشكاليات الترصيف الطبقي للمجموعات. ولم يكتف بوصف هذه الطبقات وتعريف أعلامها فحسب ، وإنّما أعطى نموذجا لكتابة تاريخية يتوفر فيه النظام والائتلاف الذي تنشده ايبستيمولوجيا التاريخ في ذلك الحين. ولكن ما بقي منها «طريفا» في قراءتنا المعاصرة، هو أنّها بسطت على وجه غير منهجي في مواضع عدّة كالعناوين الصغيرة التي وضعت على رؤوس بعض الفقرات [(١)] في حديثه عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وهو يورد أقوالا وردت في أبي عبيدة دون فحصها. ولكنها جاءت بتأمّل أدبي وبحبك فني كشفت عن أدبية الدرجيني ، سيّما إذا علمنا وفق ما جاء على لسان البرادي في جواهره أنّ بعض سير الإباضية كانت قاصرة عن التعريف بسير الأوائل من أهل المغرب لتسرّب كثير من الألفاظ والعبارات البربرية إليها مما لم يفهمه الكثيرون وأوّلهم إباضية المشرق. فوقع اختيار مجلس العزابة على أبي العباس الدّرجيني المعروف بعلمه وفصاحته وإتقانه للغة القرآن الكريم.[(٢)] فجاء الدرجيني يؤرّخ باعتماد جملة من الأدوات المعرفية العربية أوّلها القرآن والحديث والشعر والأمثال والحكم والأخلاقيات ، وهنا تتبدّى أهمية أدب الدرجيني في ضوء التأريخ الإباضي ، فلم يخفت الجمال الفني نداء الفكر فيه ولا عرجت بالمؤرّخ إلى التكلّف بالبحث عن المفاخر ، وإنّما كان بحكم موقعه التاريخي وليقظة حسّه يعرض لمسائل فقهية كالبيع وقضاء الديون قبل الإرث، وأخرى أصولية كالخلاف

---

(١) على سبيل المثال : السير ج٢ / ص ٤٦

(٢)وفي ذلك يقول البرادي: «ذكر لي بعض العزابة أن سبب تأليف أبي العباس هذا الكتاب، لما وصل الحاج عيسى بن زكريا من بلاد عمان بما معه من الكتب التي ورد بها أرض المغرب كحل ابن وصاف وجامع الشيخ أبي الحسن وجامع ابن جعفر وغيره، فكان مما رغب إليه فيه إخوانه (من أهل عمان) أن قالوا له: وجهوا لنا كتاباً يتضمن سير أوائلنا ومناقب أسلافنا من أهل المغرب من لدن وقع فيه مذهبنا إلى هلم جرا، فإنه قد عميت علينا أنباؤهم وغابت عنا آثارهم من بعد الشقة. فشاء مَن بِجربَة يومئذ من العزابة والفقهاء ومن يشار بالبنان إليه من الحذاق والنبهاء في تلبية طلب إخوانهم إليهم ووصف لهم الكتاب المشروط عليهم، فنظروا في كتاب الشيخ أبي زكريا يحيى بن أبي بكر ، فوجدوه مخلاً ببعض التفصيل قاصراً دون أمد التحصيل، مع أن لسان البربرية أورد ألفاظه موارد التكليف، وقلة تحفظه على قوانين العربية أدخل ببعض معانيها مجاهل التعسف، فاهتموا بتصنيف كتاب يشتمل على سير الدولة الرستمية ومناقب الأسلاف، كما طلب ذلك إليهم، فلم يروا أهلاً لهذا التصنيف غير أبي العباس».

فـي الـرأي. ولمسـائل أخلاقيـة كفضـل التعـاون والمسـاعدة والتحصيـل والعلـم [1].ويبحـث عـن التوثيـق في ضـوء الأحـداث المتعاقبـة التـي مـرّت بهـا الجمـوع الإباضيـة مـن بدايـة ظهورهـا مثيـرا فـي كل ذلـك مسـائل متنوّعـة شـغلت فكـر الإباضيـة. فبـدا الدرجينـي معيـدا لقـراءة جديـدة فـي ذلـك التاريـخ بوقائعـه، يسلمه حسّـه الأدبـي إلـى تلـك التـي قدّمهـا وأرّخ لهـا بدقّـة المـؤرّخ ويقظـة الموثّـق وذوق الأديـب ولمـا لا بشـوق النّاقد المصلـح إن جـاز لنـا القـول . ولـو تأملنـا بنيـة المصطلـح فـي طبقـات الدرجينـي نجـد أنهـا عنصـر مـن العناصـر التـي منهـا تألّـف منهجـه فـي تدويـن السـير. وهـي بنيـة محبوكـة أيضـا فنيّـا فعناوينـه التـي تصـدّرت التعريفـات وقراءتـه التاريخيـة لبعـض المصطلحـات هـي قـراءة تاريخيـة عُنِـيَ فيهـا بالجانـب اللفظـي لرصـد التنويعـات ومـا لهـا مـن أثـر تحسـيني فـي التقبّـل . بـل إنّ أبـا العبـاس اعتمـد فـي تأريـخ بعـض المصطلحـات كمصطلـح العزّابـة ومصطلحـات مفهوميـة أخـرى كالهـدى والضـلال والتّقـى والبدعـة ... علـى المراوحـة بيـن الجانـب اللغـوي وبيـن الجانـب الاصطلاحـي. جاعـلا لـكل مصطلـح بنيـة فكريـة واقعيـة وليسـت متصوريّـة. وغالبـا مـا جعـل فـي شـرحه لهـذه المصطلحـات ومفاهيمهـا نظامـا داخليـا لـولاه لتحدّثنـا عـن قائمـة مـن المصطلحـات المعزولـة عـن بعضهـا البعـض. وإنّ هـذا النظـام الداخلـي الـذي تبيّنـاه فـي منهـج الطبقـات قـد قـام علـى قانونيـن ذاتييـن : أولهمـا قانـون إنتـاج المصطلـح. وثانيهمـا قانـون توليـده مـن صلـب المنظومـة الفكريـة الإباضيـة .

- **خلاصة ما نخرج به من دراستنا لطبقات الدرجيني ثلاث نتائج:**

أولهـا أنّ كتـاب الطبقـات قـد تعـدّى صفـة التأريـخ فحسـب وارتقـى مـن حيـث المكانـة الملائمـة لـه مـن رتابـة السـرد التاريخـي إلـى جماليـة الحـس الأدبـي فـي التاريـخ.

ثانيها أنّ الدرجيني صاحب اجتهاد في التنظير الاصطلاحي.

ثالثهـا وهـي زبـدة هـذا البحـث ، أنّ ناصيـة الأدبِ التـي امتـلأ بهـا كتـاب الطبقـات ، هـي مواهـبُ وراثيـةٌ أدّت إلـى غايتهـا .وهـي مـالا يُعـرفُ إلا بعدَ أن اشـتغل الدرجينـي بتحصيـل المعـارف زمنـاً، وظهـر عليـه أثرهـا وهـو يـؤرّخ ويـدوّن للسـير والطبقـات. فبـدا مؤرّخـا كسـائر المؤرّخيـن بقـوّة

(١)ر على سبيل المثال : السير ج٢/ ص ٢٥٤ وما بعدها .

الكسب والاجتهاد ، أديبا بالفطرة و الموهبة. ويبقى الدّرجيني المؤرّخ أديبا لا بالمعنى الكامل لهذا التخصّص، ولكنّه مسّ هذا العلم من وراء حجب، وحطّ في مناح من كتابه الرّحال على أديم الإبداع الأدبي دون أن يقرّ له قرار أدبي مضبوط يكشف عن حقيقته. ولا نشكّ في أنّ جهود هذا المؤرّخ في مؤلّفه الذي به اهتممنا قد غدا أثرها مصدراً لمعظم من جاء بعده من المؤلّفين المهتمين بتاريخ المغرب الإباضي. وهي جهود على قدر غير زهيد من الأهمية. وأنها أتت أكلها في مجال السيرة بعد حين ولكن الدراسات الحضارية حول هذا الكتاب و حول غيره من كتب السير الإباضية ماتزال على وتيرة بطيئة . وإنّ في تكاثرها وارتفاع وتيرة درسها شدّا لأزر المؤرّخين وكتّاب السير . ولعلّ هذا العمل ينحت له وجودا ضمن هذه الدّراسات.

ختاما إنّ متن كتاب الطبقات وإن كان مشتركا بين أغلب المؤرخين الإباضيين رغم تفاوت أزمنتهم ، فإنّ اختلافه معهم في المنهج والأسلوب يحيلنا على تنوّع ثقافي وحضاري ليس من الهيّن تجاهله كما ليس من الهيّن الإلمام به . وإذا كانت لذّة هذا المؤرّخ الأديب في إبداع تأريخ محبوك الإخراج في أسلوبه وشكله ، فإنّ لذّة المحلّل والباحث تكمن في مجاهدة هذا المدوّنة التّأريخيّة في فحواها وغرضها للوقوف على مقوّمات الإبداع في نسجها ونسق انتظامها وخصائص بنيتها وأساليبها ، وأبعاد معانيها ودلالاتها . إذ ما من شيء في مساحة طبقات الدّرجيني إلاّ وله وظيفة مخصوصة ، ولديه تباعا لذلك دلالة، ووراء النّسق الأدبي فيه فكر منضّد وعقل مدبّر ووجدان مؤثّر يشحن اللّفظ بطاقته العاطفيّة وذائقته الوجدانيّة ، فيحرّك نفس المتقبّل دون أن يفقه له معنى من أوّل وهلة في بعض الأحيان .

التربية الإسلامية في سيّر الإباضية

أبو عبد الله محمد بن بَكر الفرسطائي أنموذجا

المنير عبد الحميد بن سعدون

أستاذ وباحث بمؤسسة عمي سعيد بغرداية /الجزائر

bensadoun.elm@gmail.com

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وهو الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتديّ لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله والمبعوث مربيّا ومعلّما رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين. وبعد:

عند قراءة كتب الإباضية، وبخاصة السيّر، يشعر القارئ ويلتمس وجود ميزة منفرة لهذه المؤلفات، وهي أنّها مفعمة بالجوانب التربوية عند تناولها للعلوم الأخرى، في تناسق رائع لا يفصلها عن لبّ موضوع النصّ المقصود؛ وهو نفس الإحساس الذي ينتاب من يتعامل مع الأصحاب[1].

فالإباضيّة في التاريخ الأول لم يبددوا أموالا ولم يهدروا أوقاتا في بناء هياكل ومنشآت ضخمة، بل اقتصدوا في عمر الإنسان المسلم القصير، لحياته الأبدية، فبنوا وأنشئوا أنفسا وعقولا، تعمل وتدّخر لليوم الآخر وتزهد في الدنيا الفانية، بدون أن تنسى نصيبها من الدنيا بإحسان، كما أحسن الله إليها.

(١)يقول محمود مصطفى عبود آل هرموش، متخصّص في تراث الشيخ نور الدين السالمي (١٢٨٤-١٣٣٢هـ/١٨٦٨-١٩١٤م): « عندما أقرأ كتب الإباضية يستولي عليّ شعور متميّز ويظهر احمرار عليّ يلاحظه أهلي، إذ تمتاز هذه الكتب بالجمع بين العلم والتربية؛ فأقول لابني: اقرأ هذه الكتب لأنّها تعلّمك الزهد والخشوع «، لقاء معه بالمكتبة المركزية، معهد الشيخ عمي سعيد الجربي، قسم التخصّص في الشريعة، غرداية – الجزائر، الخميس ٠٣ محرم ١٤٣٢هـ/ ٠٩ ديسمبر ٢٠١٠م.

فكان من الذين اصطفاهم الله لهذه المهمّة النبيلة، أبو عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطّائي، الذي أحيا من الدين ما اندرس، وجمع شمل الإباضيّة في نظام جعلهم في راحة من دينهم، سمحت لهم أن يتعاملوا مع « سلطات الدنيا والتفكير في اتخاذ تدابير للإصلاح الذاتي ومقاومة الفساد داخل المجتمع الإباضي من غير التعرض إلى إثارة ارتياب الحكام في الطموح إلى السلطة» (١).

ويهدف هذا البحث إلى الاعتناء بالجانب التّربوي، ويرمي إلى محاولة إبراز مفهوم التربيّة عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطّائي، « تلك التربيّة التي اعتمد فيها على الجانب العملي والتطبيقي أكثر من اعتماده على الجانب النظري، وكان مستنده مبادئ الإباضيّة، في أنّ الإيمان قول وعمل لا ينفصلان أبدا»(٢).

• أهميّة البحث

للموضوع أهميّة كبيرة، إذ يتناول شخصيّة عظيمة بارزة في سيّر المغاربة، وعناية لطيفة لدى المشارقة، وإمام أمّة ومؤسّس نظام الحلقة، الذي أثبت جدواه وصلاحيّته منذ أزيد من ألف عام، ولا يزال قائما في مزاب(٣)ووارجلان بالجزائر، وإعادة إحيائه في جربة وجبل نفوسه(٤).

---

(١) محمد أيوب صدقي، حلقة العزابة وتأثيرها عبر العصور، محاضرة، بني يزقن ٢١/٠٧/١٩٨٨، ص٣.

(٢) أحمد إلياس حسين، الإباضيّة في المغرب العربي، الضامري، مسقط سلطنة عُمان، ط١، ١٩٩٦م، ص٥٩.

(٣) تُكتب ميزاب (ميم ممدودة بياء). وتكتب: مزاب (بدون مدّ)، وهي الصيغة التي أقرّها مجمع اللغة العربيّة في القاهرة، سنة ٢٠١٠م، حسب ما أفاد به الباحثُ الدكتورُ الهادي التازي وهو مؤرّخ وأديب مغربي، ناهز التسعين سنة من عمره، عضو في هذا المجمع، في حوار معه شيّق، بمناسبة لقاءهما في ندوة تطور العلوم الفقهية في مسقط عُمان، بتاريخ ٣-٦ أفريل ٢٠١٠م.

– ينظر كذلك: مجموعة باحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان، معجم مصطلحات الإباضيّة، مطابع النهضة ش.م.م، مسقط، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٢، ص ٥٨٧. ، ج ٢، ص ٩٥١، ٩٥٢. يرمز له عند وروده لاحقا بـ: (م. م. إ).

(٤) وهو ما يسعى إليه اليوم أصحابنا بجبل نفوسة، وجربة. « ويعني مصطلح أصحابنا في مصادر الفقه الإباضي، فقهاء المذهب وعلماءه دون عامّة الناس «. ينظر: م.م.إ.

– سالم بن يعقوب (و: ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ت:١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، محقّق في التاريخ، وبخاصّة في سيّر الإباضيّة، فاتخذه الباحثون قبلة، يستشيرونه ويستفيدون من معلوماته. فهو « بقيّة السلف الصالح « كما وصفه تلميذه فرحات الجعبيري. كفّ بصره في أواخر عمره. ينظر: م.م.إ، تر: ٣٦٦، ج٣، ص ٣٤٧.

• إشكاليّة البحث

يشكّل موضوع التربيّة حدثا هاما في حياة الفرد والمجتمع، وللمسلم منهج ربّاني محدّد المعالم، «والسبيل محفور إلى الركبة فلا يؤخذ منه مخرج إلا بوثبة»(١)، ونظام العزّابة الفريد من نوعه، الذي أنشأه أبو عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطّائي، في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، يشكّل معلما تربويا لإباضيّة المغرب خاصة، وهو في عطاء مستمر. ولمواجهة تحديات القرن الحالي، ظهرت عدّة مناهج تربويّة تحدّثْ المسلمين، منها ما هو اختياري ومنها ما هو إجباري، وتعاقبت هذه النّظم، وبقيّ الإباضيّ، مع سيْر الحلقة بين مدّ وجزر.

فهذا البحث يحاول أن يُظهر أبا عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفُرْسُطّائي، ويعرّف به مربّيا، من خلال الجوانب التربويّة لنظام العزّابة، في عهده الأول، في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، بتتبّع خطوات ترتيب الحلقة على يد مؤسّسها، وما سطّره من إجراءات، وما قام به من أعمال في هذا الاتّجاه، ويحاول الإجابة عن هذه الأسئلة: - ما مفهوم التربيّة ؟

- من هو أبو عبد الله محمد بن بكر ؟ - ما موقع التربيّة في فكر الشيخ ؟ - ما الفئات التي اعتنى بها الشيخ في المجتمع ؟ - كيف كانت طريقته في التربيّة ؟ - ما وسائله التربويّة؟

خاصة أنّ منهج الشيخ أبي عبد الله منهج حياتيّ ممتدّ، يمسّ جميع شرائح الأمّة، في البيت والمجتمع والمدرسة « إذ كلّ مكان يصلح للتعليم: غرفة – حانوت - غار - زاوية – مسجد - ظل شجرة - طريق للسابلة - ساحة أو خلاء [فضاء]، المهمّ في عمليات التعليم ما يبذله المدرّس من نشاط»(٢).

---

(١) أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تح الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي، ط٢، ج٢، د.م.ط، د.س.ط، (كتب في هامش مقدمة الطبعة الأولى للمحقق، معلّلا على إعادة تحقيقه، تاريخ: ٢٨ شوال ١٤٢٨هـ - ١٠/١١/٢٠٠٧م)، ص: س. وقد أورده الشيخ أبو محمد اللواتي في وصيّته لأهل الدعوة، ونسبه إلى الشيخ أبي صالح يعلو. ينظر: الوسياني، السيّر، ج١، ص ٤٤٤.

(٢) محمود قمبر، دراسات تراثية في التربيّة الإسلاميّة، الدراسة السادسة التربيّة عند الإباضيّة، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٩٢م، ص ٣٨٤.

• **تعريف السيرة**

السيرة هي السنّة، يقول: أنت جعلتها سائرة في الناس، سار الشيء، وسرته وسرْتُه، فعمّ، والسيرة الطريقة، يقال: سار بهم سيرة حسنة، والسيرة: الهيئة، سار الكلام والمثل في الناس: شاع، مثَل سائر، سائر الناس جميعهم، سائر في الأمثال بمعنى باقٍ(١).

ومن هذه التعريفات اللغوية نجد كتب السيَر الإباضية تأخذ من كلّ هذه المعاني شيئا، فمحتوى هذه النصوص جعلت لتبقى ويدوم أثرها بين الناس، طريقة مرجعية تربوية حسنة، يقتدى بها كسيرة النبي صلى الله عليه وسلّم.

• **تعريف التربيّة**

١. في المعاجم العربيّة

ويَرِد مصطلح التربيّة في معاجم اللغة العربيّة محمّلا بكثير من الدلالات وهي: الزيادة والإنماء، الرعاية والثقافة، والإصلاح، والسياسة والسيادة، والتدبير لأمور الخلق، والتنميّة، والاجتماع(٢).وبذلك فإن التربيّة الإسلاميّة تعتبر مصطلحا شاملا لمجموعة من المفاهيم تنصبّ في معنى: «الرعاية، والتنميّة، والتأديب، والتعليم، وتزكية الإنسان بصورة مستمرة في جميع مراحل حياته حتى يصل إلى أقصى كمال ممكن(٣)».

ويوحي مصطلح التربيّة للعقل المسلم باستمراريّة العمليّة التعليميّة مدى الحياة، نظرا للمواهب التي أعطاها الله للإنسان، كأدوات العلم والمعرفة.(٤)

---

(١)بن منظور، ج ٦ ذ- س، ص ٤٥٤.

(٢) عبد الرحمن النقيب، عن محمود حمدي زقزوق، الموسوعة الإسلاميّة العامة، وزارة الأوقاف، مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٣٦٤.

(٣) عبد الرحمن النقيب، عن محمود حمدي زقزوق، الموسوعة الإسلاميّة العامة.

(٤) عبد الرحمن النقيب، عن محمود حمدي زقزوق، الموسوعة الإسلاميّة العامة.

٢. عند المفسّرين

لقد ورد مفهوم التربيّة في القرآن الكريم في قوله تعالى: « اِلْحَمْدُ للهِ رَبِّ اِلْعَالَمِينَ»، مشتقّا من لفظة « ربّ»، فماذا قال المفسرون في مفهومها ؟

يقول الشيخ إبراهيم بن بيحمان: « ربّ العالمين، اعلم أنّ الربّ مصدر بمعنى التربيّة العامة، وهي تبليغ الشيء على جهة التدرّج إلى كماله، وهو الحدّ الذي أريد به بمعنى التربيّة الخاصّة، وصف به الذات العليّة بمعنى الملك والسيّد والمصلح المربّي والخالق المعبود، وكلّها صالحة هنا»[(١)].

والشيخ الحاج صالح لَعْلي[(٢)]- رحمه الله-: « والربّ في الأصل مصدر بمعنى التربيّة وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا»[(٣)]؛ وفسّره الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني[(٤)]-رحمه الله- بالمصلح، قال ابن كثير: « ربّنا جلّ ثناءه السيّد، والمصلح أمر خلقه، بما أسبغ عليهم من نعمه».

وفي مقدمة التوحيد وشروحها[(٥)]، عند شرحه لكلمة « ربّ»، في الحمد لله ربّ العالمين، نجد:

---

(١) الشيخ إبراهيم بن بيحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني اليسجني، (بيحْمان: صيغة بربريّة لعبد الرحمن، ويرد بحمان كذلك)، من علماء بني يسجن البارزين، أخذ العلم عن خاله الشيخ عبد العزيز الثميني (ت: ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م)، وعن الشيخ أبي زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي (ت: ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م).

له تلاميذ كثيرون، وكانت له صلات وثيقة بعلماء الجزائر والمغرب وعُمان، فكان يراسل الإمام سليمان بن عبد الله الإسماعيلي إمام سلطنة عمان؛ كما أنّ له مراسلات إلى البايات والدايات الأتراك باسم مجلس عمّي سعيد، الذي كان كاتب تقاريره، [وهو جدّ لأمّي]. ينظر: م.أ.إ، تر: ٠١٦، ج٢، ص ٢٢.

(٢) الشيخ الحاج صالح لَعْلي، ولد ببني يزقن، يوم الأربعاء ٢٠ رمضان ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، وتوفي ضحوة السبت ٢٧ ربيع الثاني ١٣٤٧هـ/ ١٣ أكتوبر ١٩٢٨م. م.أ.إ، تر: ٥٠٦، ج٣، ص ٤٧٥.

– ينظر: مصطفى وينتن، الشيخ صالح لعلي مدخل إلى جمع التراث ومحاولة قراءة، أعمال اليوم الدراسي حول شخصية الحاج صالح لعلي يوم ١٩ محرم ١٤٣٢هـ/ ٢٥ ديسمبر ٢٠١٠م، ببليوغرافيا عنه، بن سعدون المنير بن عبد الحميد، مكتبته وعشيرة آت دادي باحمد، مطبعة الآفاق، بني يزقن، غرداية، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٣٧-٥٧.

(٣) الشيخ الحاج صالح لَعْلِي، القول الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، مرقون، بمكتبته، ٨٩-١٩٩٩م، ص ٢٣.

(٤) الشيخ يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني، (و: ٥٠٠هـ/ ١١٠٥م، ت: ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م)، علم من أشهر علماء الإباضيّة بالمغرب، ترك بصمات بارزة في التراث الإباضي خصوصا، والمكتبة الإسلاميّة عموما، ومن مؤلّفاته: « الدليل والبرهان لأهل العقول» و« العدل والإنصاف ». م.أ.إ، تر: ١٠٤٩، ج٤، ص ١٠١٠.

(٥) عمرو بن جميع أبو حفص، ق:٧هـ/١٣م، من كبار المدرّسين بجامع تيفروجين بجربة. م.أ.إ، تر: ٦٨٦. وينظر: مقدّمة التوحيد وشروحها، الشمّاخي والتلاتي، صحّحها وعلّق عليها أبو إسحاق إبراهيم طفيش، ص١٨.

« التربيّة هي تبليغ الشيء إلى كماله، شيئا فشيئا».

والشيخ الطاهر بن عاشور: « والربّ، بمعنى ربّه وهو ربّ بمعنى مربّ وسائس، والتربيّة تبليغ الشيء إلى كماله تدريجيّا... إذ المراد أنّه مدبّر الخلائق وسائر أمورها ومبلّغها غاية كمالها»[١].

والشيخ أحمد بن حمد الخليلي: « مراد الله بهذا الاستخلاف تربية هذا الجنس المستخلف في هذه الأرض بما يمنحه من مواهب وينمي فيه من قدرات ويودع في تكوينه من طاقات حسيّة ومعنويّة، وذلك مفهوم من لفظة الربّ فإنّها بمعنى المربّي والمصلح كما تقدّم في الفاتحة»[٢].

٣. الخلاصة

ونخلص مما تقدّم أن التربيّة الإسلاميّة هي مفهوم شامل، يجمع في طيّاته أهدافا نبيلة تخدم الفرد والجماعة في كيان واحد حيّ، وباستمرار متواصل.

• محدّدات المنهج التربوي

عند استقصاء النّصوص التي تحدّثت عن أبي عبد الله، نجد هذه المفردات: أخلاق، ومن أخلاقهم، ومن آدابهم وممّا دأبوا عليه، أدّب، آداب، السيّر، والخطّة.

فالتربيّة عند أوائلنا- رحمهم الله- منهج حياتيّ مستمر، «سلسلة ذهبية ترقّ ولا تنقطع»[٣] منذ الأيام الأولى لنشأة المذهب، على ضوء ونهج القرآن والسنة النبوية والسّلف الصالح.

فكانت الوسيلة الأولى، منذ البداية، في نشر الدين والمحافظة عليه، هي التربيّة والتعليم، ولنا في تاريخنا شواهد على ذلك، مثل مدرسة إمام المذهب جابر بن زيد[٤]- رحمه الله- وأبي

(١) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدارين التونسية والجزائرية للنشر، ط١، ١٩٨٤م، ج١، ص٥٦.

(٢) أحمد بن حمد الخليلي، جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل، مسقط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ج ٣، ص١٧.

(٣) الوسياني، سيّر، ج١، ص ٤٤٤.

(٤) جابر بن زيد اليحمدي الأزدي، و:١٨هـ/٦٣٩م، ت: ٩٣هـ/٧١١م، م.أ.إ، تر: ٢٣٠، ج٢، ص ٢١٧.

عبيدة مسلم[1]، وعلي بن الحصين العنبري[2]، وجبل نفوسة، وجربة[3]، إلى سليمان بن زرقون[4] وأبي مِسْوَرْ وابنه فصيل، فأبي عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطّائي، رحمة الله عليهم أجمعين.

• حياة الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطّائي

نشأة الشيخ ومكانته العلميّة

قبل الحديث عن نشأة الشيخ، يودّ أن يبيّن مميزات العصر الذي عاش فيه الشيخ حتى يضع القارئ في الصورة، ويتمكن من بيان أثر العصر في نشأة الشيخ أبي عبد الله.

عصر الشيخ

عاش الشيخ أبو عبد الله محمد، عصر ما بعد سقوط الدولة الرستميّة سنة ٢٩٦ هـ[5]، فنتج عن سقوطها تشتّت أتباع المذهب الإباضي، وملاحقة خصومهم لهم، واندثار الكتب التي أحرق معظمها في مكتبة المعصومة بتاهرت.

كما تميّز ذلك العصر بالمخلفات التي تركتها وقعة «مانو»[6] التي راح ضحيّتها أكثر من أربعمائة عالم من علماء جبل نفوسة؛ الجبل الذي يعتبر الدرع الأيمن للإباضيّة، في عهد الرستميّين وما بعده.

ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الظروف مجتمعة على تنشئة الشيخ أبي عبد الله، وعلى مسيرته العلميّة والتربويّة، وهو ما سنتطرق إليه في المطالب اللاحقة.

---

(١) هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، بالولاء، مولى لعروة بن أديّة، أصله من فارس، ت: حوالي ١٤٥هـ. عرفت الإباضيّة تحت إمامة أبي عبيدة مسلم لأول مرّة في تاريخها نشأة دولها في المشرق والمغرب. ينظر: م.أ.إ، تر: ٨٩١، ج٤، ص ٨٧٣.

(٢) علي بن الحصين العنبري، أبو الحرّ، أورد له الدرجيني قصّة طريفة تبيّن منهجيّة أبي الحرّ في التربيّة والأخذ بيد المنحرفين للعودة إلى الاستقامة. م.أ.إ، تر: ٦٣٢، ج٣، ص ٦١٠.

(٣) جزيرة جربة تقع جنوب البحر الأبيض المتوسط شرق القطر تونسي، معقل إباضيّة تونس إلى العصر الحالي.

(٤) سليمان بن زرقون النفوسي أبو الربيع، ط٧: ٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م. ينظر: م.أ.إ، تر: ٤٤٧.

(٥) والتي كانت قد انتعشت فيها الحياة الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية.

(٦) واقعة مانو: « معركة تنسب إلى قصر بين طرابلس وقابس، وفيه وقعت معركة بين الأغالبة والإباضيّة سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م، ويحمل المصطلح في التاريخ الإباضي معنى حزينا ومأساويا ». ينظر: م.م.إ، ج٢، ص ٩٤٥.
- تقع منطقة مانو في جنوب الجمهورية التونسية، لعلّها حاليا: مَارِث.

مولد الشيخ

هو الشيخ محمد بن بَكر بن أبي بَكر بن يوسف، المكنىّ بأبي عبد الله، والملقب بالفُرْسُطّائي، والمشهور بصاحب الحلقة[١]، أو بمؤسس الحلقة[٢]، أو بسيدي محمد السايح[٣].

يعتبر الشيخ فرحات بن علي الجعبيري أن الربع الأخير من القرن الرابع الهجري (ما بين ٣٧٥ و٤٠٠هـ) هي الفترة المحتملة لميلاده[٤]، بينما استبعدت لجنة معجم أعلام الإباضيّة هذا التاريخ، استنادا إلى تتلمذ الشيخ أبي عبد الله على يد الشيخ أبي نوح سعيد بن زنغيل، في القيروان[٥] قَبْلَ عرض المعز لدين الله الفاطمي على الشيخ أبي نوح الرحيل معه إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، وعلى فرض أن عمر الشاب أبي عبد الله حين تعلمه كان حوالي سبع عشرة سنة، فيكون ميلاده حوالي ٣٤٥هـ، وهو ما ذهب إليه الشيخ سالم بن يعقوب، والشيخ علي يحيى معمر.

نشأة الشيخ

ترعرع الشيخ أبو عبد الله بين أحضان أبوين كريمين بمدينة فُرْسُطّاء؛ فأبوه بَكر بن أبي بَكر بن يوسف كان حيّاً بعد سنة ٢٨٣هـ[٦]. وهو عالم وفقيه، وأحد أعلام بلده وعصره[٧]،

(١) نسبة الى حلقة العزّابة المباركة التي أسّسها سنة ٤٠٨ هـ.

(٢) لنفس السبب.

(٣) اشتهر بهذا الاسم في منطقة بلدة اعمر – أين يوجد قبره– وتقرت وبسكرة ووادي ريغ جنوب شرق الجزائر، لكثرة تنقلاته، وسياحته في الأرض للدعوة و نشر المذهب الاباضي.
- قال الشيخ ابراهيم محمد طلاي، باحث ومحقق معاصر: « وإلى هذا تنسب ذريته في الناحية، حسب ما أفادني به بعض الشيوخ الأفاضل «.
- الدرجيني، طبقات المشايخ، تح: الشيخ إبراهيم محمد طلاي، دار البعث، قسنطينة، ط١، ١٩٧٤م، ج١، ص٣٩٢.
- وقال الأستاذ بكير بن سعيد أعوشت: « وقبره مشهور ... لاسيما أولاد سيدي السايح الذين ينتسبون إليه «، ينظر: وادي مزاب في ظل الحضارة الإسلاميّة دينيا تاريخيا اجتماعيا، المطبعة العربيّة، غرداية، ١٩٩١م، ص ٩٢-١٠٢.

(٤) ينظر: الشيخ سالم بن يعقوب، تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلميّة، إعداد فرحات بن علي الجعبيري، ص ١٠٠.

(٥) مهنا بن راشد السعدي، مدرسة الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، مقال في الانترنت، بتاريخ ٢٠٠٣/٠٩/٠٣م.
- وذكر « أنّه درس في الحامّة عوض القيروان». الجعبيري، نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبية في جربة، ص٣٢.
- و ينظر: م. أ. إ، ج ٤، تر٨٠٣، ص٧٧٣.

(٦) حيّ بعد ٢٨٣هـ. م.أ .إ، تر: ١٨١، ج٢، ص ١٧٣و ١٧٤.

(٧) علي يحيى معمر، الإباضيّة في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة، الإباضيّة في الجزائر، صح أحمد عمر أوبكة، المطبعة العربيّة، غرداية، ط١، ١٩٨٥م، ص١٦٩.

ولقد تعلم على يد سليمان بن ماطوس[1] بجبل نفوسة؛ وما حُفظ عن هذا الوالد الكريم أنّه كانت له مسائل تتميّز بالتيسير على الناس. وأما أمّه فلم يعثر على ذكر اسمها، فيما توصّل إليه من مصادر[2].ويروى عن الشيخ أبي عبد الله في عهد شبابه بأنّه كان مفعما بالنشاط والحيويّة، « ولم يرد عنه أنّه تقاعس عن القيام بجهاده العلمي والاجتماعي في كبره، ممّا يؤكّد سلامة جسده من الأمراض، وقوة عزيمته في فعل الخيرات «[3].

وقد واصل الشيخ أنشطته الدعويّة رغم ابتلاء الله له بفقدان بصره في كبره، حيث عاش أيّاما من عمره ضريرا، ولكن تنعّم ببصيرة وقّادة في الدين والدنيا. وقد سجّل لنا التاريخ محاولات علاج الشيخ لعينيه، التي لم تنجح، فهذا الوسياني يذكر أنّه « أرى عينيه الطبيب فقال له: أفسدك الدوّاوون يا محمد. وأتى القيروان ليداوي عينيه ويقدح ماءها، فقال له الطبيب: لو عالجتك، إذا رجعت إلى أهلك، رجع إليك، هواء أرضك فاسد بارد»[4].

أسرة الشيخ

ذكرت المصادر- التي بين يدي الباحث- أنه تزوج امرأة اسمها عائشة، هي من بني يانجاسن من قصر تمغموسة، تزوجها الشيخ وجلبها إلى أجلو[5].وكانت الحياة الزوجية للشيخ مرْضيّة، إذ قد وهبه الله من زوجه وذريّته قرّة عين، وجعله الله إماما للمتقين، فكان إماما ناجحا في أسرته وأمّته[6].ولقد أنجب الشيخ بنتا سماها « تيسَل»، وممّا رويّ عنها أن والدها الشيخ أبا

---

(١)سليمان بن ماطوس الشَرَوَسي أبو الربيع. ق٤، حيّ بعد ٢٨٣هـ. م.أ.إ.، تر: ٤٦٢، ج٣، ص ٤٣٦.

(٢) « توفيت وأبو عبد الله في العزم – التعلّم- عند الشيخ أبي زكريا، فأتاهم الخبر ليلا في المسجد فدعا أبا عبد الله فقال له: ما رأينا من يعزّي في المسجد ولا رأينا من ينهى عن ذلك، ونحن نفعل ذلك، فعزاه عن أمّه «. الوسياني، سيّر، تح عمر لقمان بو عصبانة، ط١، ٢٠٠٩م، ج٢، ص٦٧٧.

(٣) الشيخ طلاي إبراهيم بن محمد، وثيقة حول شخصية أبي عبد الله الفُرْسُطَائي، مخ، دت [تسعينيات ق٢٠م].

(٤)الوسياني، سيّر، ج ١، ص، ٣٦٠.

(٥)م.أ.إ: لم يترجم لها. ينظر: الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ٢، ص ٢٠٢.
– كانت على قيد الحياة عند احتضار الشيخ. ينظر: الوسياني، سيّر، تح عمر لقمان بوعصبانه، ج١، ص٤٨٩.

(٦) « ولم يكن واسع المعرفة فحسب، بل شارك كذلك عمليا في حياة المجتمع الإباضي، الذي كان رئيسه الروحي والسياسي في أريغ ووارجلان ومزاب «. تاديوس ليفيتسكي، المؤرّخون الإباضيون في شمال أفريقيا، تر: ماهر وريما جرار، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠١م، ص ٦٠-٦١.



عبد الله حينما نزل في تين يسلي أمرها أن تبدل ألوان الطعام لأول طارئ، من أهل الفضل، يزور الشيخ[1]. ممّا يبيّن كرم الشيخ، وحسن تربيّته لأولاده. ولقد رُزق أيضا بثلاثة ذكور، هم: أبو العباس أحمد، وأبو يعقوب يوسف، وإبراهيم. فأبو العباس أحمد كان عالما فاضلا، له جهود في خدمة المذهب الإباضي، إذ قال عنه أبو القاسم عبد الرحمان ابن عمر[2]:» كان رحمة لأهل مذهبنا حيّا وميّتا، كان في حياته بيت علم يفيد به كلّ طالب وذا حاجة، ولما دنت وفاته أودع علومه الكتب»[3]، وتوفي بمدينة أجلو في ذي الحجّة سنة ٥٠٤هـ.

أما أبو يعقوب يوسف فقد نال دعوات والده بالصلاح، وحفل برعاية خاصة، وهو ما تشير إليه هذه الرواية، يقول أبو يعقوب عن نفسه: «عند قدومي من أفدود، حيث مواشي أبي، أزورها وأتفقّدها، فإذا قدمت على والدي فيستخبرني وأخبره، فيقول: « ما أهمّك شيء يا ولدي ولا حفلت بشيء». ولا يسفّه عملي ولم يقنعه ذلك من سعيي، ولا أترك طاقتي رغبة ورهبة حتى أودّ الموت، إذ لم يرضه سعيي، فلما مات -رحمه الله- رجع إليَّ ذلك كلّه وعرفت أنّي كنت في راحة أيّامه»[4]. وهذا اعتراف من الابن برعاية الوالد لأولاده.

توفي الابن أبو يعقوب يوسف في تماوط بوارجلان، التي قد سكنها عند هربه من أريغ لما وقعت فيه فتنة حمران وتاعمارت سنة ٤٧٠هـ، وهي أول فتنة وقعت بين أهل الدعوة في أريغ؛ وترك وصيّة تولى تنفيذها أخوه أبو العباس أحمد[5]؛ كما خلّف ابنا واحدا[6].وعن الولد الثالث للشيخ أبي عبد الله المسمى بإبراهيم فإن والده قد بعثه إلى جبال بني مصعب، مع خادمه

---

(١) م.أ.إ: لم يترجم لها.
- الوسياني، سيَر، ج٢، ص٦٨٧.

(٢) م.أ.إ: لم يترجم له.

(٣) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج٢، ص ٤٤٣.

(٤) الوسياني، سيَر، ج١، ص٢٩٥.

(٥) الدرجيني، طبقات المشايخ.

(٦) « وثمّة روايات قليلة عن الشيخ أبي نوح، وقد يقصد به أبا نوح صالح بن إبراهيم الزمريني صاحب السيّر، وغالبا ما يقصد به أبا نوح يوسف حفيد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، وقد وصفه الدرجيني بقوله: « وكان أوسع بضاعته حفظه سيَر أهل الدعوة وأخبار السلف، فمتى رأيت في هذا الكتاب أو في غيره من كتب المشايخ رواية عن أبي نوح، فهو هذا الشيخ فاعرفه « [في الهامش تعليقات]، لمزيد الموضوع ينظر: فهارس كتاب طبقات المشايخ للدرجيني، تح: الشيخ إبراهيم طلاي، إعداد مصطفى بن صالح باجو ومصطفى بن محمد شريفي، ص: و.

وماشيّته، ليمكث عندهم، ويقنعهم بالمذهب الإباضي، فقُتل في الطريق.

منطقة فُرسُطّاء

يجدر بنا ذكر وصف مسقط رأس الشيخ ومكانتها التاريخية، وننقل نصًا حديثًا لأحد أبناء نفوسة المعاصرين- بارك الله فيه- إذ يقول: « مدينة فُرسُطّاء[1]من المدن القديمة وقبل مجيء الإسلام بمئات السنين، آثارها التاريخية باقية بمنطقة الزمْلَة[2]، وبالتحديد خربة تَاغْلينْ[3]، وخربة أنْ جَايْ، وخربة الحَوَارِيِّنْ[4] التي ما زالت تعجّ بكثرة آثار المساكن والغيران والمباني المكمورة[5] ذات الأقواس الجميلة، وغيران بها دور وغرف تحت الأرض وعلى أسطحها بيوت وحجرات وأبراج وأقواس اعتاد عليها أهل الجبل مساكن وغيران تحت الأرض للإقامة الشتويّة ومباني سكنيّة فوقها للإقامة الصيفيّة.وبين تلك الخِرَب رواب مرتفعة ومتعدّدة تعلوها آثار القصور المنهدمة التي أُعدّت للتخزين والدفاع، لم يبق منها في الوقت الحاضر إلاّ رسوم ضئيلة تتمثل في بعض الجدران والحوائط العاليّة وبقايا الكَمَر والخنادق المحفورة حول تلك الروابي، وربّما كانت بعضها مقراً للأدْيِرة والمعابد القديمة التي تحتاج إلى دراسة معماريّة للوصول إلى حقيقتها التاريخية.

وتوزّعت بين تلك الخرب القرويّة المذكورة صهاريج المياه المتعدّدة المحفورة والمنقورة في باطن الأرض بطرق علميّة وهندسيّة، وطليّت بطبقات متكرّرة من الجير لزيادة استحكامها فتحتفظ بمياه عذبة، دافئة في الشتاء وصافية باردة في الصيف، فسبحان الذي أوجدها بهذه

(١) فُرسُطّاء بمعنى أمازيغي: الضيعة.

(٢) مصطلح جغرافي جبلي، كثُرَ استعماله في الوقت الحديث، ويطلق على المناطق التي تحيط بها وديان من ثلاث جهات وفوق الجبل. توجد عدّة مناطق في جبل نفوسة بهذا الشكل.

(٣) مُسمى تعدّدَ في الجبل يتعلّق بمعبد كنسي مسيحي لم نتمكّن من معرفة دوره الديني الذي كان يؤديه في القدم.

(٤) الحواريون والحواريّة: وجد بكثرة بين قرى الجبل وهو في الغالب معمار على شكل مساجد الجبل القديمة وله مدخل من جهة الجنوب، وغالبها حوّر إلى مسجد بوضع محراب بالقرب من المدخل، ودوره تدريس وتعليم الديانة المسيحية عن طريق الحواريين أو الحواريّة من النساء.

(٥) الكَمَر والمكمور: سطح مقوّس مستطيل. استعمل في فترات زمنيّة في مزاب، وبعض هذه الهندسة النفوسيّة باقيّة إلى الآن، فمثلا: نجد في مصلىّ الشيخ باسة وافضل ببني يزقن فيه أروقة مكمورة سقفها، وأخرى على النمط المعروف، لأنّه بنيَ على فترات زمنيّة مختلفة. لقاء مع بوراس يحيى بن عيسى، متخصّص في التراث المحلّي، المكتبة الثّقافية، بني يزقن، ماي ٢٠١٠م.

- كما شاهد الباحث بنايات جديدة على هذا النمط في الجنوب التونسي، جويلية ٢٠٠٩م، ومارس ٢٠١٢م، وأوت ٢٠١٤م.
- إكْماز: فضاء مفتوح في الطابق الأول للمنزل المزابي، الظاهر أنّه أخذ اسمه من شكل سقفه المكمّر.

الكيفيـة[1].

ومـن خـلال الزيـارة الميدانيـة لواقـع فُرْسُـطّاء القديمـة يتّضـح أنّهـا كانـت عامـرة بالسـكان فـي زمـن الديانـات السـماويّة السـابقة، بدليـل تلـك المعابـد والكنائـس الموجـودة بهـا والتـي يسـتمرّ ذكرهـا فـي حينهـا، وبالتدريـج عانـق وعانقـت الإسـلام فـي نفـس المـكان[2]، ممّـا أدّى إلـى تحويـر بعـض معابدهـا القديمـة إلـى مسـاجد، وفـي خـلال هـذه الفتـرة أنجبـت أعلامـا وعلمـاء أقدميـن، أواخـر القـرن الثالـث وبدايـة القـرن الرابـع الهجـري.

وبالتـدرّج تَـمّ انتقـال فُرْسُـطّاء، فـي المرحلـة الثانيـة إلـى تحـت حافـة الجبـل وصـدره وعلـى نهايـة الضفّـة الشـمالية لـوادي فُرْسُطّاء، حيـث الأمـان وكثـرة ميـاه العيـون والآبـار والوديـان الجاريّـة فـي فصـل الشـتاء، واسـتقرّ بهـا المقـام حـول القصـر [قصـر التخزيـن] الـذي قـد يكـون بنـيّ قبـل انتقـال النـاس إليـه، لحفظ أموالهـم ومدّخراتهـم الزراعيّـة والصناعيّـة وغيرهـا، وتعرّشـت حولـه المسـاكن ذات الكَمَـر المسـتطيل والغـرف المتعدّدة، وشـقّت الطـرق والـدروب لتصـل لجميـع الأدْيِـرة السـكنيّة حسـب التقسـيم العائلـي والعشـائري الـذي تميّـز بـه سـكان نفوسـة فـي كلّ قريـة ومدينـة.

وبذلـك تكوّنـت فُرْسُـطّاء المرحلـة الثانيـة التـي توسّـدت صـدر الجبـل واحتضنتـه مـن جميـع الجهـات كأنّهـا أمّ حنـون يمدّهـا بالأمـن والاسـتقرار والعطـاء، وبمرحلتيهـا التاريخيتيـن الأولـى والثانيـة حفلـت بأمجـاد علميّـة ودينيّـة وأنجبـت أعلامـا أفـذاذا، أنـاروا درب الأمّـة مشـرقا ومغربـا وحملـوا مشـعل الهدايـة إلـى مناطـق إفريقيـا، ويكفيهـا فخـرا وحرِيّـا أن تسـمّى عاصمـة الجبـل الثقافيّـة، وأن تنجـب الشـيخ الفقيـه المصلـح الإباضـي أبـي عبـد الله محمـد بـن بكـر- رحمـه الله- مؤسّـس قواعـد السـيرة ونظـام العزّابـة الـذي ولـد سـنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م. موقعهـا الحالـي شـمال شـرق كَبَـاوْ علـى خمسـة كيلومتـرات تقريبـا.

---

(١) وقد شرب الباحث ورفيقاه من مثل هذه الآبار ماء عذبا زلالا، وشاهدوا أشغال حفر جديدة لمثل هذه الآبار في منطقة نالوت لأرضي تُستصلح حديثا، جويلية ٢٠٠٩م.

– نفس الشكل للآبار مستعمل بجزيرة جربة، جويلية ٢٠١١م، سبتمبر ٢٠١٢م، ماي ٢٠١٣م.

(٢) يصرّ أهل جبل نفوسة الذين التقى بهم الباحث عند زيارته للجبل في مارس ٢٠٠٩م، على أنّ جبل نفوسة كان متديّنا بديانة أهل الكتاب السماويّة في العصور القديمة ولم يكونوا على الوثنية، ممّا جعلهم يحتضنون الإسلام عند دخوله بدون معارضة تذكر.

اتصف أهلها بالبساطة والكرم، بهم طيبة وعشرة وخلق كريم، اكتسبوه من تراث وعلم موروث بَناه أجداد وأبناء»[١].

من أقواله لأولاده:

وقال لبعض أولاده: « خمّص بطنك من أموال الناس، وطهّر لسانك من أعراضهم، وخفّف ظهرك من أوزارهم، ونقّ كفّك من دمائهم».

قيل عنه إنّه أوصى بنيه فقال لهم: « إيّاكم وكثرة الطمأنينة، فإنّ كثرة الطمأنينة ليست بمحمدة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «الحزم سوء الظن بالناس، والطمأنينة سهم وافر لا يعطى إلا للصديق المحبّ[٢]».

الوضع المادي للشيخ

« شدّد المذهب الإباضي، بعد القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، على التشبّث بالأرض؛ وليحافظ على حيّز البقعة التي يقيم عليها؛ عمل على تحقيق العمل على زراعة الأرض، وتربية الأبناء على حبّ الأرض، بمصاحبة الأطفال إلى بساتينهم، وتدريبهم على تسلّق النخيل صغارا»[٣]، ولنا في الشيخ الأسوة الحسنة في ذلك.

حيث كان الشيخ الفُرْسُطّائي ميسور الحال وبخاصة عندما استقر في بلدة أريغ، فله قطيع غنم وإبل، وله أجراء يعملون له ويرعون له ماشيته؛ وكان حريصا على توجيه أجرائه، وتفقد أحوالهم، إذ تذكر المصادر أن له عامل يسمى «منزو» من « لمطة»، لما قدم بلدة أريغ تأثر بسلوك الشيخ، وتعلّم سيَر أهل الدعوة والصالحين، حتى صار من المقرّبين عند الشيخ، فكان يرسله داعيا إلى سبيل أهل الدعوة في جبال بني مصعب، وراعيا لماشيّته[٤]. وللشيخ ضيعة كبيرة

(١) صلاح مسعود الدبْلي، ورقات مخطوطة حول فُرْسُطّاء، طرابلس ليبيا، ٠٣ أفريل ٢٠٠٩م.

(٢) كتاب المعلّقات، ص ١١٤.

(٣) عثمان حجازي، تطور الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي من القرن الأول حتى القرن العاشر الهجري ٩٥هـ/٧١٣م – ٩٢٨هـ/١٥٢٠م، المطبعة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٩٠-٩٢.

(٤) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج٢، ص ٣٩٠.

فـي بلـدة تِينْيَسـلي، تحتـوي علـى عـدد وفيـر مـن الفسـائل، بلـغ عددهـا خمسـمائة فسيلة؛ وتـروي الروايـة التاليـة حـوارا بيـن الشـيخ أبـي عبـد الله وأحـد المشـايخ الذيـن زاروه فـي مزرعتـه حينمـا كان يغـرس الفسـائل بمسـاعدة فلاحـي بنـي ورتيزلـن، فدعـا لـه الشـيخ معـاذ وقـال: «عسـى الله أن يحييَّهـنّ كلهـنّ ويلـدن، ويبلغـن العشـور، فترسـله لـي إلـى آجلـو، فتبسَّـم أبـو عبـد الله، فأخـذن، وقمـن، وحييـن كلّهـن، وولـدن وبلغـن العشـور، وأرسـله إلـى الشـيخ معـاذ إلـى أجلـو، فأجـاب الله دعوتـه، وقضـى أمنيَّتـه»[1]. وهـذا يـدل علـى سـعة ثروتـه، ودماثـة أخـلاق الشـيخ فـي وفائـه بوعـده، ومكانتـه عنـد أهـل تنسـلي.

مسيرة الشيخ العلميّة

بـدأت الحيـاة العلميّـة للشـيخ أبـي عبـد الله فـي مدينتـه فُرسُـطّاء، علـى يـد والـده الشـيخ بَكـر بـن أبـي بَكـر، ثـم انتقـل بعدهـا إلـى جربـة، فاسـتقطب انتبـاه أسـاتذته ومشـايخه، مـن خـلال مـا تفرّسـوا فيـه مـن نباهـة، وحـرص علـى التحصيـل العلمـي، والاجتهـاد فـي كسـب المعـارف والعلـوم الشـرعيّة، لذلـك أولـوا لـه اهتمامـا خاصـا فـي تكوينـه، إذ يـروي الدرجينـي أن شـيخه أبـا زكريـاء فصيـل بـن أبـي مسـور[2] لمـا رأى اجتهـاده، وانضباطـه، وحسـن سياسـته، وتمسكه بخـلال الخيـر، قـال: « إن أصـاب خرصـي ولـم تخطـئ فراسـتي فـإن هـذا الفتـى يحيـي الله بـه الديـن، فصدقـت فراسـته ولـم يخـب ظنّـه»[3]. ثـم توجـه الشـيخ أبـو عبـد الله بعـد ذلـك إلـى القيـروان[4] قصـد الاسـتزادة والتبحّـر فـي علـم الإعـراب والنحـو، فقصـد مؤدّبـا، فلمـا امتحنـه، قـال لـه: « أوصـي بـك إلـى مـؤدّب آخـر أعلـم منّـي فـي هـذا البـاب»[5]، وتنقل بيـن عـدّة حلـق، يرتـوي مـن علمهـا، ويسـعى أن يسـتفيد ممـا حـواه صـدر مشـايخها،

---

(١) الوسياني، سيَر، ج٢، ص٤٧٩.

(٢) فصيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين اليهراسني (أبو زكرياء)، م.أ.إ، تر: ٧٣٤، ج ٣، ص ٧٠٧.

(٣) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج١، ص ١٦٧.
- والشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، سلسلة مؤلفاته، تر: الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر الفُرسُطّائي النفوسي، مص، القرارة، صيف ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٨.

(٤) مدينة بإفريقية-تونس- بناها الأمويون عند فتحهم الغرب الإسلامي، سنة ٥٥هـ، وهي شاهدة على العصر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٧م، ج٤، ص٤٢٠-٤٢١.

(٥) الوسياني سيَر، روايات أبي عبد الله ، ج١، ص٢٩٤.

وعلى رأسهم الشيخ أبو نوح سعيد بن زنغيل[1]، الذي تعلم منه علم الكلام[2]، ويبدو أن ذلك كان أثناء إقامة شيخه بالحامّة بين يدي المعز الفاطمي قبل أن يرتحل منها المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ.ويروي الشيخ أبو عبد الله عن نفسه، أثناء تمدرسه، أنّه كان مرجع إخوانه الطلبة في العلم والجدّ والاجتهاد، فكان يراجع لهذا ويقرأ لآخر، ويُحفّظ هذا، ويكتب لذاك، ويصبر لهم ويصابرهم فكانوا يداعبونه ويهرجون عليه، وهو بذلك أصغرهم سناً[3]

تلامذة الشيخ

بعد أن تبوّأ الشيخ أبو عبد الله مكانة مرموقة في العلم، صار مقصدا لطلاب العلم، من عدة أماكن، يجلسون إليه في حلقاته العلميّة، ويتربّون على يديه، ويرتوون من معينه الصافي، ويتخلّقون بأخلاقه العالية، فكان أثره على تلامذته جليّا، في تحصيلهم، وسيرتهم، وإيمانهم العميق بالدعوة إلى الله بالحسنى، وإبلاغ سيرة أهل الدعوة والاستقامة إلى الآفاق.

وبرز من تلاميذه النجباء عدد كبير يعد بالمئات [4]، كان لهم الفضل في مؤازرة الشيخ في عمله الدعوي والاجتماعي، نذكر بعضا منهم:

زكريا ويونس ابنا فصيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين اليراسني، وهما اللذان بعثهما والدهما إلى الشيخ أبي عبد الله للتفكير في نظام الحلقة. وأبو بكر بن يحي الزواغي النميلي، ت٤٣١هـ. وعبد السلام بن منصور بن أبي وسجون المزاتي، المكنيّ بأبي الخطاب[5]، وهو من تلامذته المتأخرين، الذين صاحبوه إلى بلدة أريغ، وقد وصّاه الشيخ أبو عبد الله قائلا: «كن معي، فإنّ من يقصد الناس لحاجاتهم كمن دخل في الحرب، لا غنى له عمّن يؤيّده ويرعاه

---

(١)شيخ الشيوخ أبو نوح سعيد بن زنغيل، أوائل ق ٤ هـ/ ١٠م. م.أ.إ، تر:٣٩٠، ج٣، ص٣٦٤.

(٢) أبو اليقظان، مصدر سابق، ص٨.

- صالح باجيه، الإباضيّة بالجريد، الجامعة التونسية، دار بوسلامة، تونس، ط١، ١٩٧٦م، ملحق٢، ص٢٢٢.
- إبراهيم بن بانوح مطياز، تاريخ امزاب، مخ، كراس مصوّر، د.ت، ص ٧٣.
- الوسياني، سيَر، ر.د، ٢٠٠٥/٠٦، ج١، هامش ص٢٤٩..

(٣)الوسياني، سيَر.

(٤)م.أ.إ، تر: ٨٠٣.

(٥)م.أ.إ، تر:٥٥٢.

ويرفده ويداوي جراحه ويسدّ خلله، وإلاّ كان هلاكه وشيكا»، وهي وصيّة تدل على حرص الشيخ على الاهتمام بالجانب التربوي، ورفع مسؤوليتها إلى مصاف الجهاد في سبيل الله.ومن تلامذته البارزين ابنه أبو العباس أحمد[1]، الشبل النحرير، الذي ألَّف وخلَّف. ومنهم أبو الربيع سليمان بن يخلف الوسياني المزّاتي النفطي القابسي[2]، الذي روى عنه أكثر السيّر.

أقران الشيخ

حُفّ الشيخ بمجموعة من المعاصرين المجدّين، الذين وفّروا وسطا علميّا راقيّا، مساعدا على الابتكار والإبداع، وعلى عقد منتديات علميّة، وجلسات أنس لتبادل الخبرات والمعارف، والاستفادة من بعضهم بعضا لحلّ المسائل العلميّة، والإجابة عن النوازل المستعصيّة. ونسرد من أسماء هؤلاء الأخيار ما يأتي:ـأبو يعقوب محمد بن يدر الزنزفي[3]، من مشايخ جبل نفوسة المتميّزين بالنباهة واللباقة، وكان يعلم العزّابة المبتدئين، السيّر والأدب. الشيخ يحيى بن ويجمن[4]، كان كثير الحياء، قال له أبو عبد الله: «رقيق الوجه لا يتعلّم يا يحيى، والعمل في غير حينه ضعيف، والحين في غير عمله ضائع»[5]. الشيخ أبو يعقوب يوسف بن الوالي[6] قدم إلى أبي

---

(1) أحمد بن محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفُرسُطّائي، ت: ١٠ذي الحجة ٥٠٤هـ/١٨ جوان ١١١١م،
نال عناية خاصّة من شيخه أبي الربيع سليمان الذي توسَّم فيه النجابة قائلاً: « إن كنت أعقل وأتفرّس فإنَّ هذا الفتى يحيي دين الله ». « وروى عمرو عن أبي العباس أحمد أنّه قال: كنت أقرأ على الشيخ سعدون وأحضرُ مجالسه «. ينظر: الدرجيني الطبقات، ط٢، ٢٠٠٧م، ج٢، ص ٢٦٩. توفي بتَصَنْوَانْتْ بأريغ بعد أخيه أبي يعقوب يوسف الزاهد. وقبره [بجانب قبر أبيه] في آجلو الغربية، تِينْ يَسْلِ. م.أ.إ، تر: ٨٩، ج ١، ص ٩٥-٩٨.

(2) ينظر: م.أ.إ، تر: ٤٧٢، ج٣، ص ٤٤٤ إلى ٤٤٨.

(3) محمد بن يدر الدرفي الزنزفي (أبو يعقوب)، (النصف الأول ق: ٥هـ / ١١م): من مشايخ جبل نفوسة بليبيا، عاصر الشيخ أبا عبد الله مُحَمَّد بن بكر النفوسي، والشيخ محمد بن سدرين الوسياني. وكان هؤلاء الثلاثة بمثابة المنظومة التربويّة بمراحلها الثلاثة الكبرى: الابتدائية، والثانوية، والجامعيّة.
كان الشيخ محمد بن يدر يتولّى المرحلة الابتدائية، فيتخرَّج التلاميذ على يده في علمي السيّر والأدب فضلا عن المعارف الأخرى؛ لينتقلوا بعدها إلى الشيخ محمَّد ابن سدرين فيتعلَّموا عنده الإعراب والنحو؛ ثمَّ يتخصَّصوا عند الشيخ محمد بن بكر النفوسي في علوم الأصول والكلام والفقه.
كان الشيخ الدرفي عالما كيّسا، حسن السياسة، اعترف له الشيخ محمد بن بكر بأنّه أكيس منه في أمور السياسة، فقال له إثر غارة صنهاجة الزيريّة على زناتة، إذ عرف يدّر كيف يتصرَّف معها: « أنت خير منّي يا أبا يعقوب في السياسة». م.أ.إ، تر: ٨٥٩، ج ٣، ص ٨٣١.

(4) م.أ.إ: لم يترجم له.

(5) الوسياني، سيّر.

(6) م.أ.إ: لم يترجم له.

عبد الله في تينيسلي، وعنده الشيخ فلفول[1] قاعدا، وذلك في سنة تسمى فَرَوْرَاوْ، سنة مجاعة في طرابلس، قال: فلمّا قدم عليهم صافحوه وعانقوه، فرأى فلفول في ثياب رثّة، فأبدل له لباسه، فشكا الشيخَ أبا عبد الله ما هم فيه من الشدّة، وكيف ترك عياله، فدفع إليه عشرين دينارا، فشاوره في القدوم إلى وارجلان، إلى الشيخين داود وصنادي لأجل ما ينفعانه به، فقال له أبو عبد الله: فما ينفعك إن قدمت إلى أهلك إلاّ وقد ماتوا وفاتوا وتلفوا، قال: فعمل على الرجوع من هناك[2].

ومن أقرانه كذلك: أبو يعقوب يوسف بن نفاث القنطناري النفوسي[3]، وأبو ميدول مصكوداسن الزنزفي الهواري[4]، وعبد الله بن أمّ أبان[5]، أبو موسى هارون بن أبي عمران[6]، والشيخ أبي صالح الورجلاني[7]، وغيرهم كثير.

(١) فلفول بن يحيى بن أبي عبد الله محمّد ابن الخير، (حي في: ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)، كان شيخًا عالمًا ذكيا سخيا، عاصر أبا عبد الله وأبا العباس أحمد بن محمّد بن بكر (ت: ٥٠٤هـ / ١١١٠هـ). كان شديدا في الأمر والنهي، له حلقة للتعليم. ترك مأثورات وقصائد شعريّة وحكما، م.أ.إ، تر: ٧٣٦، ص ٧١٠.

(٢) الدرجيني، طبقات المشايخ.

(٣) يوسف بن نفاث القنطراري النفوسي، أبو يعقوب، ت: ٤٤٠هـ / ١٠٤٩م. م.أ.إ، تر: ١٠٧٤، ص ١٠٣٦.
- جعله الوسياني من العزّابة الكبار الذين اجتمعوا بتَجْديت بأريغ، فأجروا بينهم ثلاثمائة مسألة من الرخص، ومن هؤلاء العزّابة: أبو يعقوب يوسف بن نفّات، وأبو يعقوب يوسف بن سهلون اليرنياني، وأبو سليمان داود بن أبي يوسف إلياس اليرتاجني. للشيخ سعيد بن يخلف المزاتي المدوني أبو نوح. م.أ.إ، تر: ٤١٢، ص ٣٨٥.

(٤) مصكوداسن، - وورد مطكوداسن ومطكومداسن ومكدول- الزنزفي الهواري أبو ميدول، الطبقة التاسعة ٤٠٠-٤٥٠هـ/ ١٠٠٩-١٠٥٨م. م.أ.إ، تر: ٨٩٨، ج ٣، ص ٨٨٠.

(٥) عبد الله بن أمّ أبان النفوسي، ق: ٥هـ / ١١م، من شيوخ نفوسة. م.أ.إ، تر: ٥٧٦.

(٦) هارون بن موسى أبي عمران بن سُدرين الحامّي الوسياني أبو موسى، ق: ٤هـ / ١٠م. م. أ. إ، تر: ٩٥٥.

(٧) جَنُّون بن يَمْرِيَان اليهراسني الوارجلاني أبو صالح، أوائل ق: ٤هـ / ١٠م، من سدراتة إيزُوزام، كان شيخ الإباضيّة بوارجلان، وهو الذي آوى العالمين الجليلين أبا خزر يغلا بن زلتاف وأبا نوح سعيد بن زنغيل، بعد فشل ثورتهما على الفاطميين، ومطاردتهم لهما. قبره بسدراتة في المقبرة المنسوبة إليه، ومعبده غارٌ أسفل جبل كريمة، لا يزال إلى الآن على حاله. م.أ.إ، تر: ٢٤٥.

مكانته وجهاده

فالشيخ حلقة متينة من سلسلة نسب الدين[١]، ويكفي أنّه مؤسّس نظام العزّابة الذي شهد له الأقارب والأباعد، ولا يزال قائما، منذ أكثر من ألف عام.

إنشاء حلقة العزّابة

أوضاع إباضيّة المغرب عامة، لم تكن ترضي مشايخ وعلماء ذلك العصر، فقد قامت عدّة محاولات لاسترجاع الهيبة، ويذكر عن الشيخ ويسلان اليراسني[٢] قوله: « ما مرّ قط على هذا الدّين شرّ من هذا الزمان، فقيل له: ما ينس الناس، بل نحن في جموع وجماعات، فقال لهم: هيهات لم يمر زمان على هذا الدين إلاّ ولهم إمام»[٣].

---

(١) سلسلة نسب الدين:

وهي: « رواية العلم في المذهب الإباضي من عالم إلى آخر ومن شيخ إلى تلميذه، بحيث تشكّلت من مجموع أولئك العلماء سلسلة متّصلة عرفت بنسب الدين؛ ونهاية نسب الدين: أبو عبيدة مسلم بن كريمة عن جابر بن زيد عن الصحابة رضوان الله عليهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويتفق العلماء في كلّ عصر على العلم المجتهد الذي يروي عنه المذهب «. ينظر: م.م.إ، ج٢، ص٩٩٦.
وإذا تأملنا سيرة الأوائل، رحمهم الله، تبيّن لنا أن لمذهبنا سندا شاهدا مأثورا عن أئمّة عدول، ويعتبر الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر ممّن جازت على يده سلسلة نسب الدين -المذهب-، حيث ذكر الشيخ أبو عمرو إسناده، في أخذه الدين، في إسنادين هما كالآتي:
الإسناد الأول:

- قال: « أبو عمرو عن أبي العباس، عن أبي الربيع سليمان بن يخلف، عن أبي عبد الله محمد بن بكر، عن أبي نوح سعيد بن زنغيل، عن أبي خزر، ...، عن الله، لا إله إلا الله « مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»، الآية ١٤ سورة غافر. - الوسياني، سيّر، روايات أبي خليل صال، ج٢، ص٤٣٥.

الإسناد ثاني:

- « وأمّا إسناد إخواننا وأهل دعوتنا الطرابلسيّين، رحمة الله عليهم، أبو عمرو عن أبي العباس بن أبي عبد الله، عن أبي عبد الله محمد بن بكر، عن أبي زكريا فصيل، عن والده أبي مسور، ...، رحمة الله عليهم «، ينظر: الوسياني، سيّر، تح عمر لقمان بوعصبانه، روايات أبي خليل صال، ج٢، ص٤٣٦،
- ويذكر الشيخ عبد الله بن يحي الباروني في كتابه أربعة أسانيد، نأخذ منها سلسلة إسناد المذهب، الطريقة الرابعة، ما نصّه: « وأظنّها، والله أعلم، ...، عن أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفُرْسُطّائي النفوسي، عن أبي الربيع سليمان بن يخلف الزواغي، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، عن أبي نوح سعيد بن زنغيل، عن الشيخ أبي خزر يغلا بن زلتاف، ...». ينظر: عبد الله بن يحي الباروني، رسالة سلّم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، ت: ١٢٩٠هـ، مطبعة النجاح مصر، ط: ٨ ذي الحجة ١٣٢٤هـ، ص٤٠-٤١.
- إسناد القطب الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش:

« إنّ جدّ الشيخ محمد بن عبد العزيز أخذ الدين عن ...، عن أبي الربيع سليمان بن يخلف عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر عن أبي نوح سعيد بن زنغيل عن أبي خزر يغلا بن زلتاف ... «. ينظر: إبراهيم بن بكير حفّار القراري (إبراهيم بن أبي بكر بن بابا)، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشية، كاتبه: الحاج عمر بن يوسف عبد الرحمن،[لأنّ المؤلف ضرير] إخراج قيّم مكتبة القطب حفيده: محمد اطفيش، ط[١]، [١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م]، ص ٣٩.

(٢) الشيخ ويسلان بن بكر أبي صالح بن قاسم، أبو محمد، اليراسني، حيّ بعد ٤٣١هـ/١٠٣٩م. م.أ.إ، تر ٩٧٥، ج٤، ص٩٣٩.

(٣) الدرجيني، طبقات المشايخ.

ومنهم الشيخ أبو زكريا فصيل بن أبي مسور، الذي كان يفكّر في مخرج من هذا الوضع المحرج، فاستخار الله تعالى في الأمر وكرّر وألحَّ على الله، إلى أن هداه الله إلى الاستعانة- وهو في كبره- بتلميذه الذي توسم فيه الخير، وهو في ريعان شبابه ومنتهى قوّته، ألا وهو أبو عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطّائي، فضحى بأغلى ما وهبه الله له من زينة الحياة الدنيا فأرسل إليه فلذتَيْ كبده، زكريا ويونس وابن أخيه أبا بكر بن يحيى وغيرهم من أقاربه في جماعة من الطلبة لحثّه على إيجاد نظام يجمع به شمل الإباضية. في حين كان أبو عبد الله ينوي الاستزادة من العلوم متوجّها من القيروان إلى تاجديت.

خرج الطلبة، محتسبين الله ومتوكّلين عليه، فصادفتهم كرامات في طريقهم، منها أنّهم خرجوا من جربة متوجهين إلى الجهة التي يرجون أن يجدوا فيها أبا عبد الله وهم في ذلك لا يعلمون له مستقرا، فمرّوا بجبل تمولست، مرور الكرام، وكان بها بقيّة عائلة وحيدة على دين المذهب، فيهم يصليتن، عمّ الفقيه سليمان بن يخلف[1] ونساء وأطفال، فسمع بهم الشيخ يصليتن فأرسل إليهم وعزّهم في الخطاب، وبعد إلحاح شديد ساعفوه وأقاموا لديه أياما يتعارفون بأهله ومن معهم من بقيّة الإباضيّة هناك.

وَدَّعوا أهل تمولست واتجهوا صوب تقيوس، فصادفوا قدوم الشيخ أبي عبد الله، فقصرت عليهم الخطى وقرَّب الله لهم ما كانوا يضنون أنّه بعيد، وذلك تيسيرا من الله بما أدخلوه من سرور على الشيخ يصليتن وأهله.

فلما جَمَع الله شملهم بأبي عبد الله، أعلموه بما جاؤوا من أجله وما وصّاهم به أبو زكريا، فرغَّبوه في ذلك وألحّوا في الطلب.

لكن الشيخ امتنع كلّ الامتناع، ذلك لأسباب عدّة منها: أنّه لم يكن ينتظر مثل هذا الفرض العينيّ عليه، في هذا الوقت بالذات، الذي هو منشغل فيه بالاستزادة من علوم اللغة خاصة، ولو أنّه، في رأي الباحث، فكرة جمع شمل الإباضيّة لم تفارق ذهنه، شأنه في ذلك شأن كلّ المشايخ الإباضيّة، فقد يكون أرجأها إلى حين، فالمسؤوليّة كبيرة والإباضيّة منتشرون في ربوع شمال

(١) هو سليمان بن يخلف المزاتي، ت ٤٧١هـ/١٠٧٩م. م. أ. إ، تر:٤٧٢.

إفريقيا الواسعة، من ليبيا إلى المغرب، وأوضاعهم مختلفة باختلاف مكان تواجدهم، سياسيّا وأمنيّا وجغرافيّا، فبالضرورة تكون النتائج المرجوّة في غاية من الأهميّة، لأن كلّ خطأ قد ينجرّ عنه نتائج وخيمة، على الأصحاب[1]، فالأوضاع غير مشجّعة على الإقدام بالمبادرة- ملاحقة العبيديّين وتدمّر الإباضيّة- لم تكن لتشجع الشيخ ليتكلّف المسألة، مع ما عُرف عنه من تواضع العلماء وزهد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

ونلاحظه رغم ذلك لم يترك هؤلاء الطلبة وشأنهم، بل كان معهم مرافقا لهم في حلّهم وترحالهم- دليل اهتمامه بالفكرة- ويشاء الله القدير، الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، أن يحضروا في مسجد المنية بتقيوس[2]، بعد أداء الصلاة، يخرج رجل من أهل الدعوة، ويشيّعه صاحبه بقوله: « اجعلها لله لا تخب»، وتقع هذه الجملة المباركة في مسامع الطلبة ثم يردّدونها على الشيخ فيتلقاها بقبول حسن ويكفلها أبو عبد الله، بعد أربعة أشهر شرطا مسبوقا.

أثناء هذه الفترة كان الشيخ يستخير الله تعالى في ما يستحضر من أفكار لهذه الأمانة التي عرض الله مثلها على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها أبو عبد الله محمد، لأنّه كان حفيظا عليما.

استشار الشيخ الطلبة زكريا ويونس ومن معهم في القضية، فقال لهم: « إنّ هاهنا أناسا رقاق القلوب أرجو أن ينتفع فيهم الإسلام ويتلقوا ما نحن عليه بالقبول ويكونوا لهذا الخير أهلا، وهم مغراوة ريغ، قالوا: في رأيك اليمن والبركة، وسرّوا بذلك سرورا عظيما واغتبطوا أيّما غبطة».

(١) هنا يكمن سرّ شخصيّة الإباضي، فهو فرد كائن - دائب- في جماعته ويعيش لها ومن أجلها.

(٢) تقيوس: هي (Thiges) قديما، ودقّاش حاليا، مدينة بالجريد التونسي، وقد عنت القرية تارة والكورة أخرى، أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد الشماخي، كتاب السيَر، دراسة وتحقيق محمد حسن، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٩م، ج٣، ص ٨٣٩.

- « فتأسّست الحلقة بمسجد المنية سنة ٤٠٨ هـ، ومن غريب المصادفات أنّها المكان الذي عقدت فيه بيعة إمامة الدفاع لأبي خزر [يغلا بن زلتاف الوسياني] سنة ٣٥٠هـ! أي قبل نصف قرن تقريبا، وكأنّها تواصل الأجيال «. الشيخ محمد أيوب صدقي، المجالس العرفية بوادي ميزاب، شوال ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م، مر، ص ١٠.

خلاصات تربوية

ذكر على سبيل المثال: التفكير في المصلحة العامة والحرص على تسليم أمانة خير السلف سالمة لخير الخلف؛ والجهاد والتضحيّة بالنفس والنفيس في سبيل الدين؛ والبركة عند تزاور أهل الدعوة وإدخال السرور عليهم؛ والنزول عند رغبة المشايخ؛ وإخلاص الأعمال لله وحده، لا رياء ولا سمعة.

واستخارة الله تعالى في الأمور المهمة، واستشارة الرفقاء، من باب:» ما خاب من استخار ولا ندم من استشار «؛ واختيار الرفقة الطيّبة، من باب: « الرفقة الطيّبة تعين على طاعة الله ورسوله»؛ ورقّة القلب وإيثار الآخرة على الدنيا من خير الخلال؛ وطاعة أولي الأمر من المسلمين، من طاعة الله عزّ وجلّ، فيها يُمن وبركة.

- حسن اختيار الشيخ لمن يحمل الفكرة ويرعاها وهم من أهل الآخرة المتديّنين الورعين.

وكذا حسن اختيار الشيخ لمنطقة آجلو، حيث جوها طيّب مساعد، ذكر عن أبي عمار عبد الكافي -رحمه الله- أنه قال: «جزتها من مصر إلى هنا، ما رأيت أطيب هواء من آجلو».

غاره: موضع تدريسه

قدّم أبو عبد الله رسولا إلى أبي القاسم يونس بن ويزكن الوليلي[1]، وكتب له بما عزم عليه هو وتلامذته من التوجه والعمل برسم العلوم، وأكد عليه في أن يهيأ له غارا[2] يجتمع فيه التلاميذ يأوون إليه ويحلّقون فيه وتكون فيه دراستهم وانفرادهم ليتسنى عزمهم واجتهادهم.

هيأ أبو القاسم الغار، فلمّا جاء العزّابة وجدوه جاهزا، وقد تيسّرت أمورهم بلطف من

(١)يونس أبي وزجون، ورد: ابن أبي ويزكن، ابن وزجين، أبو القاسم الوليلي، حيّ قبل ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، من مشايخ أريغ جنوب شرق الجزائر، وصفه الشمّاخي بأنه كان شيخًا كثير الفضائل، زاهدا، وصديقًا مصافيًا لأبي عبد الله محمّد بن بكر، وهو الذي هيّأ له الغار الذي أنشأ فيه حلقة العزّابة، فيكون بذلك أوّل بانٍ لمدرسة مستقرّة لحلقة العزّابة المؤسّسة سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م، ولذلك سمّي بالغار التسعي. م.أ.إ، تر:١٠٨١، ج٤، ص١٠٤٠.

(٢)« بناء مشيّد ...، أسّس فيه أبو عبد الله محمد بن بكر الفُرسُطّائي النفوسي نظام حلقة العزابة واتخذته مدرسة لتلاميذه». م.م.إ، ج١، ص ١٦٥.

الله عزّ وجلّ، أقام أبو عبد الله وتلامذته بين بني ويليل مدّة ثم انتقلوا إلى تينسلي وتسمى آجلو -بلدة اعمر، حاليا- فرتّب الحلقة وشيّد من كريم البناء ما يليق بالعزّابة، وذلك سنة ٤٠٩ هـ.فسمّيت الحلقة المباركة الصادرة من أكرم مشاركة بين الشجرتين الطيبتين بالمسوريّة البكريّة[١]، بمبادرة وسعي كانا في الله وعلى الله.

يقع هذا الغار ناحيّة الشمال من قصر بني نوبه، يدعى التسعي، نسبة إلى سنة حفره في تسع سنين وأربع مائه من الهجرة، ٤٠٩ هـ.وفي سنة واحد وأربعين وأربعمائة للهجرة ٤٤١ هـ، بعد وفاة الشيخ أبي عبد الله، جاء الشيخ نزوراس بن يوسف[٢] من الحجّ، فوجد الناس يصلون في الغار في أجلو الغربي، فقال لهم: في الغار إلى الآن! فبنى مسجد أجلو الكبير، وخطّه بيده ومصلاه، في نفس السنة، قال: ردّوه في موضع أبي عبد الله، حيث أرض المسجد والمصلى ودور الغرباء والمقبرة، ملْك للشيخ أبي الحسن أفلح المدغاسني قاضي بني ورتزلن[٣].

الغار المنسوب إليه حاليا

كتب الله للباحث أن زاره مرّتين، للتعرف عليه عن قرب، فصوّر وضعيته، كما يأتي: غار محفور على ربوة في أرض رملية متماسكة، نوعا مّا، على مستوى الأرض، مقاسه حوالي: ٤ x ٤ م، علوه حوالي: ١,٥م، في وسطه عرصة منحوتة من تلك الأرض، به غرفات صغيرة بحجم جلسة رجل، مدخله مسقف بجدع النخل.

ولا يبدو البتّة أنّه هو نفس الغار الذي هيّأه أبو القاسم للمدرسة، لأنّ حجمه صغير جدًا، حيث تذكر المصادر أنّ الغار التسعي فيه أساطين، يستند إليها التلاميذ ألواحهم عند الدراسة، ورؤوسهم عند النوم، وفيه مسجد، ومرافق الحياة، وفيه مكان خاص لتعليم المرأة، في أوقات معلومة، كما تذكر المصادر أنّه طُلب إنشاءه سنة ٤٠٨ هـ، وانتقلوا إليه سنة ٤٠٩ هـ، إي أنّ تهيئته تطلّبت سنة كاملة من الوقت حتى أصبح جاهزا للاستغلال الإنساني اللائق.

---

(١) « كما تطلق هذه التسمية في مزاب [حاليا] على أيام مغلقة تجمع باحثين من تخصّصات مختلفة لمدارسة القرآن الكريم وفهمه تجسيدا للعمل الجماعي، وكانت أوّل دورة لها سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م». م.م.إ، ج٢، ص ٩٥٧.

(٢) م.أ.إ، لم يترجم له. - حي في سنة ٤٤١هـ، وانفرد الوسياني بذكره، الوسياني، سيّر، ج١، ص٣٠١.

(٣) الوسياني، سيّر، ج١، ص٣٠١.

وحيث إنّـه عندمـا دخلـه الشيخ أبـو عبـد الله رفقـة أبـي الحسـن قاضـي ورتزلـن، مكثـا داخلـه يسـأله مسـائل الأحكام، مـدّة تزيـد علـى يـوم كامـل مـع مجمـوع التلاميذ، وبقـي يعقـوب بـن أبـي القاسـم ينتظرهمـا خارجـا علـى نيّـة أن يخرجـا بعـد وقـت قصيـر. فيتصـوّر بذلـك أنّـه كبيـر الحجـم وذو عـدّة مرافـق، فالتهيئـة يفهـم منهـا أعمـال بيـد الإنسـان مّمـا تسـتوجبه ضروريـات الحيـاة اليوميـة[1].

صفاته وأخلاقه

لقـد تحققـت فراسـة الشـيخ أبـي زكريـا فـي تلميـذه أبـي عبـد الله، فـكان إمامـا ورعـا، عالمـا، حازمـا، صارمـا، سـخيّا، حريصـا علـى الديـن، وأبـاً ناجحـا، ذا بصيـرة وقّـادة، وحـدس سـديد[2].

احتضاره ووفاته وقبره

زار أبـو الخطـاب عبـد السـلام بـن منصـور بـن أبـي وسـجون المزاتـي[3]، حيـن قدومـه أريـغ، بعـد غيـاب طويـل، أبـا عبـد الله فوجـده يحتضـر، فتأسـف وجـزع لفراقـه، فقـال لـه: يـا أخـي أقصـر عـن هـذا، ولكـن الدعـاء الدعـاء، فصـار يكررهـا حتـى قبـض، رحمـه الله. وكان عبـد السـلام يقـول بعـد مـوت الشـيخ أبـي عبـد الله: « إنّمـا مثلـي كمثـل رجـل يسـير فـي يـوم شـديد الحـرّ، فبينمـا هـو يمشـي إذ وقعـت لـه شـجرة عظيمـة، فقصدهـا جاريـا ليتفيأ ظلّها ويتّقي بهـا حـرّ الشّـمس، فلمّـا وصـل إليهـا اقتطعـت فأزيلـت، فبقـي ضاحيـا»[4].

---

(١)وقد شاهد الباحث، عند زيارته لجبل نفوسة بمدن: نالوت وجادو وفُرسُطّاء: غيراناً مهيّأة، وتسمى كذلك بيوت الحفر، « إزِجِي « بالبربريّة، منها غار كبير الحجم في وسط مدينة نالوت كان مسكنا لعائلة أتْفُوشِيتْ، وقد اتخذه الجيش الإيطالي مستشفى لجنوده، عند احتلاله للمدينة سنة ١٩١٤م، وهذا يُظهر أهميّة تهيئته، واستجابته لمتطلّبات الحياة.

غار أتفوشيت « يتكوّن من: مخزن للمؤونة، وحجرة الضيوف، وحُجر المعيشة- غرفات-، ومطبخ، وفتحتين لنور الشمس والقمر، فبعد استكمال أعمال الحفر يتم تبييض الحوائط والأسقف بالجبس أو الطين، والجدران بالجير المحلّي، ويصنع له أبوابا من جذوع النخل وأغصان شجر الزيتون.

يصلح هذا الغار لإيواء أسرة ممتدّة من اثني عشر عائلة نواة، مساحته الإجمالية ٢٣٠ م٢؛ وأعادت تهيئته جمعية الشباب حاليا متحفا لعادات وتقاليد المدينة «، ينظر: م.علي أحمد عسكر وسليمان عمرو يحمد، المشروع التطوعي لصيانة وترميم « دار أتفوشيت «، ورقة مقدمة للجنة الشعبيّة للشباب والرياضة للمشاركة ضمن فعاليات مسابقة العمل التطوعي للشباب. ينظر: جمعية أصدقاء البيئة والتراث، نالوت، ٢٠٠٥م، ص ١٣-١٥.

(٢)الوسياني، سيَر، ج١، ص٣٥٩. – مطياز، تاريخ مزاب. – الدرجيني، الطبقات، ج٢، ص١٩٧.

(٣)عبد السلام بن منصور بن أبي وزجون المزاتي، ط ٩: ٤٠٠-٤٥٠هـ/ ١٠٠٩-١٠٥٨م. م.أ.إ، تر: ٥٥٢.

(٤)الدرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص ٤٠٨.

ذكر الشيخ أبو نوح أن أبا عبد الله محمد بن بكر، إذا قال للشيوخ والتلامذة: امضوا بنا إلى جُغْراف، يقولون له: لمَ تريد جغراف؟ أين نحن من منه؟ ثم يذهبون إلى الموضع الذي يسمى جُغْراف(١)، فيقول لهم: ما تقولون فيمن قال لكم: إنّه لا يموت إلّا في جغراف، يعني نفسه؟، فمات رحمة الله عليه في غاره في تينيسلي(٢).

قبره

وقبره قبالة الغار، قال عبد الرحمان بن عمرو: جُعلت علامته شجيرة، يقال لها: العُنظوان، بالبربريّة « تاعقاية» (بالقاف المثلّثة) مقابلة صدره(٣)، وكان الشيخ سأل الله أن لا يجعل قبره قبر ذي سمن، ولا يجعله مشهورا، فأجاب الله دعاءه، ولا أعرف أحدا يفرزه اليوم(٤).

لكن المشهور في عصرنا أنّه معروف في آجلو، بلدة اعمر حاليا ٢٠ كم على اليمين قبل تقرت من ولاية ورقلة وقد زاره من أجل هذا البحث مرتين(٥).

شهادة العلماء له

« كان أبو عبد الله من أكثر الناس علما وورعا وله السبق في أنواع كثيرة من الفضائل،

---

(١)ذكر أن أم خليفة امرأة صالحة مانوجيّة، قال لها رفيقها: لا تموتين إلا في جغراف، وأرى لها حدودها، وأشار لها إلى الغرب، فسافر بها ولدها، حتى أشرفت على أجلو، ذكر لها الكديتين الحمراوين، فقالت: هي أرض جغراف، فقطنت أجلو حتى توفيت به، [وعلى هذا نستدل أن أرض جغراف هي أجلو، والله أعلم]، الوسياني، سيَر، ج٢، ص٤٦٣.

(٢)الوسياني، سيَر، ج٢، ص٤٦٧.

(٣)الوسياني، سيَر، ج٢، ص ٤٦٧ و٤٦٨.
– غير أنّه فيما رأى الباحث حاليا، لا توجد هذه الشجرة، اندثرت مع مرور عشرة قرون من الزمن.

(٤)انفرد الوسياني بهذا الأثر، حيث تخالفه جميع المصادر المذكورة في البحث، وبدون إشارة ولا تعليق عليه؟.

(٥) الأولى في شهر أوت ٢٠٠٦، حيث قضى القيلولة في الغار، لشدّة الحرّ وانعدام المواصلات في هذا الوقت، والثانية في ١٧ جوان ٢٠٠٧م، لأخذ صور فطوغرافية للمنطقة، لإثراء البحث.
يقوم بسدانة قبره والغار، الموجودين على الكدية الأولى، أهل المنطقة منذ عهود مضت، بجانبه مقبرة صغيرة قديمة العهد، بين الكديتين، ربّما هي المذكورة في طبقات المشايخ، ط١، ج٢، ص٣٩٢.
–دفن بجانب هذه المقبرة أولياء صالحون لأهل منطقة بلدة اعمر، وفي السنوات الأخيرة بُنيَ بجانبه، على الكدية الثانية، مسجد، مساحته حوالي ٤٠٠م^2، مبلّط ومسبوغ، على الطراز الحديث، ويشرف على ساحة أكبر، تحيطها دورات مياه وميضآت مجهزة على النمط الجديد وغرف متواضعة للزوار الذين يأتون للتبرك والقيام بعادات وتقاليد، في مناسبات الأعراس والأعياد، إذ يعتبرونه وليّا صالحا، يأتونه من كل فج عميق، حسب ما أفاد به أحدُ القيّمين الباحثَ هناك، ولم يذكروا عن حقيقته التاريخية شيئا كثيرا، إلاّ أنّه شيخ سائح دفن هو وابنه هنا. وقد اعتنت بالمَعْلم السلطاتُ المحليّة مؤخرا، في إطار إعادة الاعتبار للزوايا الدينيّة.

وهو أول من أُلهم سلوك الطريقة التي حفظ الله بها هذا المذهب»[1] مثل أبي عبد الله، مثل ما قال الله: «هذا نذير من النذر الأولى»[2].

« لو أنصت أهل الدعوة، واستمعوا لجميع ما يقوله هذا الشيخ، لكان كلامه كلّه حكمة، إمّا للدين، وإمّا للدنيا لأنّه حكيم زمانه»[3].

« الطود الذي تضاءلت دونه الأطواد، والبحر الذي لا تقاس به الثماد، بيت أهل المذهب والمشهور بالبركات، والمعتمد عليه فيما أصلٌ للحركات والسكنات، أسّس قواعد السيرة، وله في كلّ فنّ تآليف كثيرة، وحفظ عنه في الأخلاق حكم قد خلّدت في بطون الأوراق»[4]. قال الشيخ فلفول بن يحيى لما مات أبو عبد الله محمد بن بكر، قلت للمشايخ: « اقتفوا بنا آثاره مادامت غير مندرسة»[5].

من مواقف الشيخ الاجتماعية وآرائه التربوية

نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر، في ثلاث مباحث.

موقفه من قبيلة ورزمار: تسبّبت جماعة بني ورزمار[6]، من جموع مغراوة في الفساد

(١) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) الوسياني، سيَر، أبو محمد، ج ٢، ص ٢١٢.
- الآية ٥٦ سورة النجم.

(٣) الوسياني، سيَر، ج ٢، ص ٨٤٠.

(٤) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ٢، ص ١٩٧.

(٥) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج٢، ص ٤٥٢.

(٦) الدرجيني، الطبقات، ج ٢، ص ٢٠٦.
- الشيخ محمد أيوب صدقي، مخ، حلقة العزابة وتأثيرها عبر العصور، ١٩٨٨/٠٧/٢١م، مخ.
- الشيخ محمد أيوب صدقي، المجالس العرفية بوادي ميزاب، شوال ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م، مر، ص١٣.
- ذكرت بـ: « بني ورماز»، الشماخي، كتاب السيَر، طح، مك الجابرية بنين، بني يزقن، ص ٣٨٨-٣٨٩.
- ذكرت بـ: « جموع بني مغراوة «، سير مشايخ المغرب، لأبي الربيع الوسياني، تح، إسماعيل العربي، د.م.ج، الجزائر، مارس١٩٨٥م، ص٤٢-٤٣.
- وفي أبي زكريا يحي بن أبي بكر، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تح، عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، بن عروس، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

وقطع الطريق على القوافل، يكون فيهم العزّابة الوافدون من طرابلس وإفريقيا والزّاب وقصطيليا وغيرها يقصدون أبا عبد الله من الآفاق، فيتعرضن للمقاطعة بنواحي أريغ، فإذا اجتمعت إليه جموع بني مغراوة وَعَظهم وأمرهم ونهاهم عن إحداثهم الشبهة وقطعهم الطريق، قال قائلهم: لا نقدر ولا نستطيع لمن يفعل ذلك، فقال لهم: إذًا فنحن نستطيع ونقدر لأنفسنا.

فهاجرهم الشيخ مع أهله إلى إفران[1] من قرى وارجلان، فمكث بها مع عياله وطلبته مدّة سنة أو تزيد، فضاعت أحوال أريغ، لفقدانهم أبا عبد الله، لما كان يصلح من أحوالهم وفسادهم[2]. فاجتمعت إليه جموع بني مغراوة من أهل أريغ وأتوه ورغبوه في الرجوع، فامتنع؛ قالوا ضيعتك أقبلت منفعتها وحان وقت قطافها، فقال هي عندي مثل هذه الزيتة[3]، وهذه قفتي تدور، في بني يكشن[4] للتمر، مع ما ذكرتم من غلّة تين يسلي، صرت فيكم كالفريسة يعتادها السباع من كل مكان، وعدَّ عليهم أشياء قبيحة، وأصرّ على هجرانهم؛وأيسوا من رجوعه، فرجعوا واجتهدوا في وجوه الصلاح، وتعاونوا على البرّ والتقوى، وتجنبوا الإثم والعدوان، وقمعوا الطغاة، فأتوه مرة أخرى، ورغّبوه في الرجوع، فرجع إليهم.

تعيين القاضي على بني ورتزلن

عَيَّن أبو عبد الله أبا الحسن أفلح[5] قاضيا على بني « ورتزلن»، بطلب منهم فمكث فيهم سنين قاضيا يحكم بالعدل حتى ملّوه وشكوه إلى أبي عبد الله، وأكثروا الشكوى وكرّروا القول؛ فجمعهم به في جمع جمّ، وحلّق القوم حلقة واحدة عظيمة، لينظر في شكواهم، فسكتوا طويلا، فقال لهم أبو عبد الله: ما الذي نقمتم من أبي الحسن ؟ فقال قائلهم: إنّ أبا الحسن يحكم بين بعض منّا دون بعض، فقال الشيخ: أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ فقال: نعم، فقال لهم الشيخ: ثم ماذا ؟ قالوا: حكم على رجل بصداق امرأة بغير إقرار ولا شهادة، فقال له: أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ قال: نعم،

(١)قرية من قرى وارجلان المندثرة.

(٢)الوسياني، سيَر، ج ٢، ص ٨٢٧.

(٣)ذكرت: زيتا، زيت، وحققها الشيخ إبراهيم طلاي، طبقات المشايخ، ج١، الزيتة وهي نبتة صغيرة.

(٤)قبيلة، لم يتمكن من التعريف بها الوسياني، ج١، ص٣٧٥.

(٥)أفلح المادغاسني أبو الحسن، الطبقة ٩: ٤٠٠-٤٥٠هـ / ١٠٠٩-١٠٥٨م. م.أ.إ، تر: ١١٣.

فقال لهم: ثم ماذا ؟ قالوا: اختصم عنده رجلان في شفعة فأبطلها من يد القائم فيها، فقال له: أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ قال: نعم، قال لهم: ثم ماذا ؟ قالوا: مات رجل بقُرَانا فأوصى في ماله بوصيّة فاستأثر بها أبو الحسن، فقال: أكان ذلك يا أبا الحسن؟ فقال له: سأخبرك بما فعلت فيها، قال لهم الشيخ: ثم ماذا ؟ فلم يجدوا زيادة، فقال له أبو الحسن: يا محمد أَيُثْبت الحاكم الخصومة في الأرض المشاعة التي لم يتعين لها ربّ ؟ قال: لا، قال: فإنّ هؤلاء القوم، حين دخلت هذه البلاد، قالوا لي: ما بين فلانة إلى فلانة مشاعة لبني ورتزلن، فجعلوا يعمرون هذه الأرض دون أن يسلم بعضهم لبعض، فهو ما لم أحكم فيه بينهم. ثم قال: ما تقول في رجل أقرّ بالنشوز، هل يحكم عليه بالصداق، أم لا ؟ قال نعم، قال اختصم إليَّ الخير وامرأته تازوراغة، فأقرّ بالنشوز، فحكمت عليه بصداقها.

ثم قال أبو الحسن: ما تقول في نخل نَبَت في أعلى مجرى العامّة، هل يحكم فيها بالشفعة لبعض دون بعض ؟ قال: لا، ثم قال: إنَّ رجلين اختصما عندي في نخلة هي في مجرى العامة، فطلبها رجل بالشفعة من مشتريها، وهو واحد من تلك العامة، فلم أحكم له بها.

وأمّا أمر الوصيّة، فإن الرجل الذي مات من بني ورتزلن، استخلف امرأته على تنفيذ الوصيّة، فقالت لي أرسل معي من يعلّمني كيف أنفّذ هذه الوصيّة، فأرسلت معها ولدي، فبلغني أنّها تصدَّقت عليه بربع شاة لحما، ولم أَرَه، ولم آكُله.

فقال فلم يجد فيها أبو عبد الله ما يخالف الدين، إلاّ ما يخالف هواهم، فقال الشيخ لأبي الحسن: « إن جيرانك يصارعون من لا يَصرعونه»[١]. ثم قال أبو الحسن: إنّ عندي كلاما لا أريد أن أُلْقيه إليك، فقال: دَع كلامك، فحلف أبو الحسن أن لا يتكلّف قضاء بينهم سبع سنين، فصاح فيهم الشيخ، فتفرّق كلّ واحد على جهة.

وقام أبو الحسن منصرفا، فقال الشيخ ليعقوب بن أبي القاسم[٢]: أُرْدُد أبا الحسن، فردّه ومضى معه إلى الغار، فقال الشيخ ليعقوب: انظرني، وذلك في أول الليل، فلمّا أصبح لم يخرجا، ثم إلى

(١) الدرجيني، الطبقات، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٢) يعقوب بن أبي القاسم بن يونس ابن وزجين الويليلي، ق: ٥هـ / ١١م. م.أ.إ، تر: ١٠٣٠.

غروب الشمس فلم يخرجا، ثمَّ إلى الصبح فخرجا، فتوادعا، فقال يعقوب: فقمت إلى أبي عبد الله، فقال من هذا ؟ فقلت أنا يعقوب، فقال: أوَ أنت قاعد هنا إلى الآن ؟ فقلت: أجل، فقال: إنَّ أبا الحسن لم يزل يسألني عن مسائل الأحكام، ولم يَفْتر عن السؤال إلاَّ إذا قمنا إلى الصلاة.[1]

مساهمته في تحضُّر جبال بني مَصْعَب

من المعروف أن أبا عبد الله كان السبب - بعد الله تعالى- بأسلوبه المرن وسياسته الرشيدة، في تمذهب بني مصعب بالمذهب الإباضي، بعد ما كانوا واصليّة، على مذهب المعتزلة، كما ساهم في دفع عجلة حضارة المنطقة، فأعطى لها دفعا قويّا، وذلك برحلاته الدوريّة إلى جبال بني مصعب- سهل وادي مزاب حاليا- كلّ ربيع هو وتلامذته؛ ويقال أنّ ابنه إبراهيم قتل في إحدى رحلاته الدعويّة إلى هناك.

مؤتمر أريغ[2]

تراكمت عدّة أسباب جعلت مشايخ أريغ يفكرون في إيجاد فضاء آخر يكون وسطا جديدا للتوسع العمراني للمجموعة الإباضيّة، فاجتمعوا حوالي سنة ٤٢٠ هـ « فاقتضى رأي المؤتمر على انتداب أدهى رجل ليجول في صحراء جنوب المغرب الأوسط (الجزائر)، فوقع الاختيار على الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، وابنه وغلامه»[3]. خرج هؤلاء وساحوا في هذه الربوع، فبعد التأمل وقع اختيارهم على جبال بني مصعب، العامرة بالمعتزلة؛ رجع الرأي والمشورة إلى مؤتمر أريغ، فانعقد ثانية، فاتفق رأيه على النزوح إلى هذا الوطن الطيّب أهله، وتعميره بما يصلحه ويصلح سكانه المعتزلة من العلم والألفة وحسن الجوار.

ويذكر أنّ أوّل قرية في الوادي أثّر فيها الشيخ أبي عبد الله، وآثارها بادية إلى الآن، تسمى بـ:

« أَغَرْم نَ تْلَزْدِيتْ» ببلدية العطف حاليا[4]؛ وله بها مقام يزار إلى الآن، بنيّت حاليا بمقابله مدرسة

---

(١) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج٢، ص٣٨١-٣٨٢. وهو دليل آخر على كون الغار مجهّزا بالمرافق الحيوية.

(٢) ينظر: اجتماع وادي أريغ. م.م.إ، ج١، ص٢٨.

(٣) إبراهيم بنوح مطياز، تاريخ مزاب، مخ، د.ت، مصوّر، مك المعهد الجابري بنات، بني يزقن، ص٧١-٧٢.

(٤) اسمها بالبربرية تاجْنِنْتْ، بلدية في دائرة بنورة، ولاية غرداية، الجمهورية الجزائرية.

للتعليم الثانوي، سمّيت باسم الشيخ.

فكانت مدرسته الأولى بهذا الوطن بالعطف، واشتهرت بأنّها عاصمة العلم بمزاب، واعتنى أكثر رجال المعتزلة بحضور دروسه فكان له منهم إقبال عظيم واعتناء زائد، وألفوه بما أعطاه الله من حسن الأخلاق والموعظة الحسنة ولين الجانب.

قُتل ابنه الذي كان معه في المهمّة، فصبر صبرا جميلا ولم ينتقم من قاتله، ولا أظهر جزعا أو حزنا عليه، فبذلك وغيره من كياسته ورجاحة عقله وعلمه توصّل إلى هداية أمّة كاملة إلى دين الله المستقيم[1]. فنبغ من تلامذته، المنسوبين له، بمزاب[2] كثير منهم: إبراهيم بن مناد[3] بالعطف، وعبد الرحمن الكرثي[4] بمليكة، وبابه السعد[5] بغرداية.

فكان منتصف القرن الخامس الهجري إلى أواخر السادس عصر تعمير وإنشاء وبناء، وتجديد للقرى بمزاب[6].

- **آراء الشيخ التربوية**

أقواله وتوجيهاته التربوية

أُثر عنه هذه الأقوال: « قطيعة الرحم مثل قطع العضو من البدن، لا يخاط ولا يناط ولا يعقد إلى

(١) مطياز، تاريخ مزاب، ص ٧٥.

– « ولم تكن منهم استجابة بسهولة، إذ من الصعب التخلّي عن المعتقدات الراسخة، حتّى انتقموا من الشيخ باغتيال ابنه، ولم يفتّ ذلك من عزيمته ومواصلة كفاحه «. ينظر: الشيخ محمد أيوب صدقي، المجالس العرفية بوادي ميزاب، نشأتها أنواعها آثارها. مر: ٢٠٠٦م، ص ١٣.

(٢) مطياز، تاريخ مزاب، ص ٧٥.

(٣) إبراهيم بن مناد العطفاوي، النصف الأول ق: ٦هـ/١٢م،. م.أ.إ، تر: ٥١، ج١، ص ٦٤.

(٤) عبد الرحمن الكرثي المصعبي، « با عبد الرحمن»، ق: ٦هـ/١٢م، من علماء وادي مزاب في القرن السادس الهجري، لعلّه تتلمذ على يد الشيخ أبي العباس أحمد بن محمّد بن بكر، كما يعدُّ من المعمّرين الأوائل للمنطقة، له مصلّى لا يزال قائمًا قبلة قرية مليكة، وفيه كانت تعقد جلسات المجلس الأعلى لمزاب، كما تقام فيه المؤتمرات الدينية النسوية المعروفة بمؤتمرات «لا إله إلاّ الله». م.أ.إ، تر: ٥٤٠، ج ٣ ، ص ٥١٢.

(٥) بابا السعد الغرداوي، ت: ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م. م.أ.إ، تر: ١٣٤، ج ١، ص ١٣٨.

(٦) مطياز، تاريخ مزاب، ص ٩١.

مـا قطـع منـه»[1]. و «مـن كان لـه قلـب سـوء، لا يجـد خيـرا ولـو كان مـن البهائـم»[2]. و « ومـن قـال أنـا جيـد، فهـو غيـر جيـد بـلا شـك». وسـأله رجـل عـن سـوء الخلـق، هـل هـو مـن الذنـب؟ قـال: هـو أشـرّ مـن الذنـوب. وقـال: مـن لا يحلـم، فمـن يصاحـب؟ ومـن لـم يخـزّن، فإلـى مـاذا يـردّ يـده؟. وقـال: حمّـل نفسـك الطمـع يتـركك الفـقر.

ومـن وصيّتـه لأهـل تاجديـت[3]: «عشـر خصـال مـن كـنّ فيـه فقـد فـارق الإسـلام: الأكل بالدَّيْـن، والمداهنـة بالديـن، وإيثـار الدنيـا علـى الديـن، وسـوء الظـنّ، وسـوء الصحبـة، وسـوء الخلـق، وحـبّ الشـرف، وحـبّ الرياسـة، وحـبّ المحمـدة، وتقليـد الرجـال».

وقـال: لـو حلفـت مـا خشـيت أن أحنـث، أنّ مـن كانـت فيـه ثـلاث ليس معـه تقـوى: مـن إذا ذكـرت عيوبـه غضـب، وإذا ذكـرت قومـه أصابتـه حميّـة، ومـن كانـت بينـه وبيـن رجـل مباغضـة فـإذا ذكـر بالسـوء أعـان عليـه. وقـال: مـن حكـم علـى نفسـه كمـا يحكـم علـى غيـره فقـد عـدل، ومـن أعطـى مـن نفسـه مثـل الـذي يريـد لهـا فقـد أنصـف، لأخيـك عليـك مثـل الـذي لـك عليـه.

ذكـر علـيّ بـن منصـور اليراسـني، أن رجـلا يقـال لـه بيّاضـة، قـدم مـن أفريقيّـة إلـى تينيسـلي عنـد أبـي عبـد الله فـي مشـورة، فمكـث عنـده الشـتاء ولـم يذكـر لـه شـيئا مـن شـأنه، فلمـا كان عنـد رجوعـه إلـى أهلـه شـيعه أبـو عبـد الله، فشـكا إليـه أمـر زوجتـه، فقـال لـه أبـو عبـد الله: « الأصحـاب اثنـان، أحدهمـا يفديـه الرجـل بمالـه ولا يفارقـه، والآخـر يعطـي الرجـل مالـه كلّـه ليفارقـه».

رحلاته وسياحته

ظهـر تمسـك الشـيخ أبـي عبـد الله محمـد بـن بكـر بالقـرآن والسـنّة النبويّـة وصالـح الأوائـل ـرحمهـم

(١) الوسياني، سيَر، ج ٢، ص ٨٢٧.

(٢) مجهول، المعلقات، ص ١١٦.

(٣) « تاجديت أو تجديدين أو تقديدين: توجد هذه المدينة قرب مدينة جامعة [بين مدينتي: تُقرت وواد سوف حالياً]، « وهي تمثل حقا في الفترات التاريخية القديمة عاصمة علميّة فريدة «. الوسياني، سيَر، ج١، ص٧٤.

الله- في السيّر على الأرض والسياحة فيها والتزاور[١] في الله لأهل الدعوة، ولمآرب أخرى، فهو مقتصد في مشيه، يأتي «عصافير كثيرة بحجر واحد»، فهو في رحلته يقصد الدعوة والتزاور والتقاء علماء أهل الدعوة للتعلم منهم وتبادل المسائل، فهم دائما بين مفيد ومستفيد، وللراحة والاستجمام والاستصحاح، له ولطلبته.

فهي الفرصة الميدانيّة لصقل التجارب واستكشاف المواهب ومحكّ للرجال وتدريب على قساوة العيش، من باب: « اخشنوا واخشوشنوا فإن الحضارة لا تدوم على جنب واحد»، « فكانت الحركة دؤوبة [بين أهل الدعوة]، وليست هناك حواجز وهميّة تمنعهم والترحال من مكان إلى آخر، خاصة وأنّ الدولة الرستمية قد شملت بحدودها جميع أماكن التواجد الإباضي سواء في الجزائر، أم الجنوب التونسي، أم جبل نفوسة وشرقه، [طرابلس وما جاورها]، أم منطقة أريغ وأسوف ووارجلان[٢]».

تنظيم الرحلة

وكان في رحلاته مع طلبته يجعل على كل قبيلة عريفا وسفيرا يرعاهم ويتفقد أمورهم، خوفا ممّا يحدثون أثناء الرحلة، ويحثهم على الاجتهاد والجدّ والحذر والوجل، فمن هذه الرحلات ما يأتي:

رحلاته الدوريّة إلى جبال بني مصعب- سهل وادي مزاب[٣] حاليا- كلّ ربيع هو وتلامذته، فقد كان أهلها واصليّة[٤] ثم بحكمته وحسن سياسته أرجعهم إلى مذهب أهل الحق والاستقامة أي إباضيّة، وله مقام بالعطف يزار، مقابل ثانوية سميت باسم الشيخ أبي عبد الله بن بكر الفرسطائي.

---

(١)سجّلت المصادر الإباضيّة هذه السياحات لأهل الدعوة، مثل عام الزيارة: « هي زيارة قام بها علماء وطلبة سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، لعدّة مناطق من المغرب الإسلامي، كجبل نفوسة وقراه، ووادي سوف وأريغ ووارجلان وبلاد الجريد ودرجين وجربة وغيرها، حيث قصدوا مشايخهم لتفقّد أحوالهم وتجديد التواصل العلمي معهم «. م.م.إ، ج١، ص ٤٥٤. والظاهر لملء الفراغ الذي تركه رحيل الشيخ الفرسطائي، الذي كان يقوم بمثل هذه الزيارات.

(٢) عمر لقمان بوعصبانة، معالم الحضارة الإسلاميّة بوارجلان، ورقلة من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراته، جمعية الوفاق بمساهمة مديرية الثقافة لولاية ورقلة، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٢٥.

(٣)ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ص٣٧.

(٤)نسبة إلى واصل بن عطاء المعتزلي.

رحلتـه إلـى قسـطيلية[1]، فـي جماعـة مـن أصحابـه فاجتمعـت عليـه جمـوع مـن النـاس واشـتهر حتـى خـاف أن يقـال إنّمـا يحـاول أمـرا، وكان عـازم التوجـه إلـى طرابلـس.

وسـاروا ومـن معـه إلـى « تملوسـت[2]» فـإذا بالفقيـه أبـي الربيـع سـليمان بـن يخلـف[3] ومحمـد بـن عيسـى بـن إبراهيـم الهـواري[4] قادميـن مـن الباديّـة مـن موضـع يقـال لـه « أدريكـم» ولهمـا بـه أهـل وأنعـام، وذلـك فـي فصـل الربيـع ولمـا وصلـوا رحّـب بهـم وأدخلـوا السـرور فـي أهـل البلـد وأكرموهـم وفيهـم عيسـى بـن إبراهيـم والـد محمـد بـن عيسـى، أطـاف بـه التلامـذة وأهـل الحـيّ يسـألون عـن مسـائل دينهـم حتـى مضـى وقـت مـن الليـل فتفـرق مجلـس الرجـال، واجتمعـت نسـوة الحـيّ فأطفـن بالشـيخ يسـألنه والشـيخ يجيـب[5].

ثـم توجـه إلـى « لمآيـة» وقـد سـبقهم أبـو الربيـع وتاكـدس إلـى هنـاك يبشـرونهم بقـدوم الشـيخ وأصحابـه، فاسـتقبلهم الشـيخان أبـو محمـد عبـد الله بـن الأميـر وأبـو محمـد ورسـفلاس بـن المهـدي[6] وكان عالمـا كبيـرا، وكان فـي مـدّة اجتماعهـم إذا سـئل عـن مسـألة أحـال علـى عبـد الله بـن الأميـر، وكان قليـل الجـواب فـي محضـر الشـيخ هيبـة لـه، فيقـول لـه وارسـفلاس: أجـب النـاس يـا شـيخ فليـس لـك عنـد أبـي محمـد جـواب، فيجيـب عـن المسـائل[7].

ولمـا دخلـوا جربـة، حتـى كان بالمسـجد الكبيـر علـى بنـي يراسـن فصافحهـم وأقـام فيهـم مـا شـاء الله ولـم يـزل كلّ مـن هنـاك بيـن مفيـد ومسـتفيد.

ولمـا خـرج مـن جربـة وكان طريقـه إلـى « تباجلـت» أو « تفاجلـت»، اجتـازوا علـى الشـيخ عمـروس

---

(1) قسطيلية / قصطيلية: منطقة بإفريقية-تونس-، بينها والقيروان مسيرة سبعة أيام. البكري، ص١٨٢. وهي بلاد الجريد، حسب محمد حسن، ينظر: أبو العباس أحمد الشماخي، كتاب السيَر، ج٣، ص ٨٦٥.

(2) يقع هذا القصر المسمى حاليا تَمُلَّسْتْ، في جبل دمّر، ١٧ كلم جنوب تطاوين، [تونس]، وسط بلاد تسكنها القبائل الوهبيّة من زنزفة ولمّاية ومزاتة، وقد كانت في ق٥هـ/١١م، مركزا لمقاطعة تَمُولَّسْتْ، الشمّاخي، كتاب السيّر، ج٣، ص٨٤١.

(3) هو سليمان بن يخلف الوسياني المزاتي النفطي القابسي أبو الربيع، ت:٤٧١ هـ/ ١٠٧٩م. م.أ.إ، تر: ٤٧٢.

(4) محمد بن عيسى بن إبراهيم الهواري، ق: ٥هـ/١١م. م.أ.إ، تر: ٨٤٦، ج ٣، ص ٨٢١.

(5) الدرجيني، الطبقات، ج ١، ص ١٨٥- ١٨٦.

(6) ورسفلاس وورد وارسفلاس بن مهدي أبو محمد، النصف الأول ق٥هـ/ ١١م. م.أ.إ، تر: ٩٦٤، ص ٩٣٢.

(7) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ١، ص ١٨٥- ١٨٦.

فأنزلهم للضيافة ولما حضر الطعام، جعل أحد التلاميذ يختار للشيخ أحسن اللحم وأسمنه فقال له الشيخ: « كيف يكون قلب من يأكل هذا من ماله؟ فكيف من مال غيره؟».

ثم كرّ راجعا إلى أريغ هو وأصحابه وكلّهم لا يعدو موافقة قلب الشيخ، فقال عبد الله بن الأمير حينئذ: « عجبا لهذا الشيخ وأصحابه، إنّما مثلهم كمثل الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام»[١].

وله عدّة رحلات إلى وارجلان وقد سكنها مدّة عام أو تزيد، معاقبة لأهل وارزمار. ومن رحلاته: زيارته لموضع يسمى « سلامليك»، طالعين من قسطيلية متوجهين إلى إفريقيّة تونس، فوجدوا على كلّ حيّ ومنزل من يستفاد منه خيرا وعلما.رحلته إلى قصطيلية، واجتماعه بالمشايخ في قنطرار منهم محمد بن الخير، وداود بن يوسف وسعيد بن إبراهيم وجماعة كثيرة، ومصادفته بقصّة دَيْن الشيخ ينكول بن عبناء المزاتي.وكذلك ذهابه إلى البقاع المقدسة قصد أداء فريضة الحجّ[٢]، ومروره بجبل نفوسة ذهابا وإيابا،[٣] كانت الرحلة في كبر سنّه وضعفه[٤]، فقد أنشد وهو يحنّ إلى شبابه:

لله أيام الشباب وعصره   لو يستعار جديده فيعار

ما كان أقصر ليله ونهاره   وكذا أيام الشباب قصار

---

(١) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) لم اطّلع عليها في كتب السيَر: الوسياني والشماخي والدرجيني، وانفرد بذكرها أبو اليقظان إبراهيم.

(٣) ذكر أنّ مشايخ مزاب عند ذهابهم إلى الحجّ يمرّون على الجريد التونسي وجربة وجبل نفوسة، ذهابا أو إيّابا، فهي فرصة سانحة لزيارة الأصحاب وتفقّد أحوالهم، وتمتين أواصر التواصل الديني والحضاري بين إباضية هذه المناطق ومزاب؛ مثاله ما فعل في رحلته الحجازية كلّ من الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني في آخر عمره، حيث صادف جنازة الزمخشري في مكّة. والشيخ إبراهيم بن بحمان سنة ١١٩٦هـ، والشيخ امحمد بن يوسف اطفيش القطب، حوالي سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م. ينظر يحي بن بهون حاج امحمد، من الرحلات الحجازيّة لعلماء المغرب الإسلام، في كلّ من:_
- رحلة الوارجلاني، الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الوارجلاني، ٥٠٠-٥٧٠هـ / ١١٠٦-١١٧٥م.
- رحلة المصعبي، الشيخ إبراهيم بن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني اليسجني المصعبي، المتوفى سنة ١٢٣٢هـ- ١٨١٧م.
- رحلة القطب، الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش الشهير بـ» قطب الأيمّة»، ١٢٣٨هـ-١٨٢١م / ١٣٣٢هـ-١٩١٤م.

(٤) الشيخ أبو اليقظان إبراهيم، سلسلة مؤلفات الشيخ: تراجم، الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطّائي النفوسي، مخ بيده، ٢٥ جمادى ١ ١٣٨٨هـ/ ١٦ أوت ١٩٦٨، التصوير بالقرارة في صيف ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، تنقصه الصفحة ٧(، ص: ٥٥-٥٦).

وذكر ماكسن- رضي الله عنه- أنّه قال: توجّهت من طرابلس قاصدا إلى أبي عبد الله محمد بن بكر، فالتقيت معه في أسوف يريد الوصول إلى طرابلس، فقال لنا: « لا تكثرتوا ولا تضيقوا صدوركم، فإنّي إن شاء الله راجع على أثري»[1].

• مدرسة أبي عبد الله محمد بن بكر الفَرْسُطّائي[2]

مقر المدرسة وهيئة العزابي

مدرسة أبي عبد الله، في حلقتها، اعتمدت على الجانب العملي في التربيّة أكثر من الجانب النظري الذي اتسم به كثير من المدارس الإسلاميّة الأخرى، « بخلاف الإباضيّة الذين عُرفوا كمربّين ممارسين أكثر ممّا عُرفوا كمفكرين أو منظرين»[3]، وهو ما سنبيّنه- إن شاء الله- في هذا البحث، فهي مدرسة[4] نظاميّة[5] مفتوحة لكلّ الشرائح العمريّة، متنقلة[6]، مقرّها الغار التسعي بأجلو.

مقر المدرسة

اتخذ بعض مشايخ الإباضيّة، المغاربة[7] منهم خاصة، الغار مكانا للعبادة والاعتكاف والتأليف والتدريس، تأسّيا بما قام النبي -صلى الله عليه وسلّم- بغار حراء وغار ثور؛ وبُعدا

---

(١) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) المدرسة الفَرْسُطائيّة: « ترمي التنظيمات التي وضعها الفَرْسُطّائي أساسا إلى هدفين:.

– روحي تربوي: يظهر في تلك الجهود الكبيرة التي تقوم بها حلقة العزّابة، من تعليم وتثقيف وتوعيّة، مستغلّة كلّ ما أمكن من وسائل للمحافظة على الشخصيّة الإسلاميّة.

– دفاعي: [أمني] يرمي إلى الإبقاء على أهل الدعوة، والحفاظ على استمرار المذهب الإباضي «. ينظر: م.م.إ، ج٢، ص ٧٩٣.

(٣) محمد قمبر، دراسات تراثية في التربيّة الإسلاميّة، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٩٢م، ص ٣٦٧.

(٤) ينظر: « التعليم الحرّ «. م.م.إ، ج٢، ص ٧٢٦.

(٥) « وربّما كان الإباضيّة من أوائل واضعي أسس سليمة ومنظمة للتربيّة والتعليم «. ينظر: أحمد إلياس حسن، الإباضيّة في المغرب العربي، مكتبة الضامري، مسقط، ط١، ١٩٩٦م، ص ٥٩.

(٦) « وقامت أيضا المدارس المتنقلة، ورغم محاربة الإباضيّة للبداوة، إلّا أنّ تلك المدارس قدّمت خدمات جليلة للمناطق النائية، كما أثْرت مناطق التجمعات التي لم تقم فيها دراسات عاليّة «، المصدر السابق، ص ٦٠.

(٧) « هم إباضيّة المغرب، كما في المصادر الإباضيّة القديمة، وبانتشار العلم وازدهاره بجربة في تونس وارجلان ومزاب في الجزائر حمل مصطلح أهل المغرب دلالة أوسع ليشمل إباضيّة المغرب بعامّة في ليبيا وتونس والجزائر [والأندلس] «. ينظر: م.م.إ، ج٢، ص ٧٥٩-٧٥٨.

عن ضوضاء المدينة وضجيجها، مثل غار أَمَجْماجْ[1] وغيران بني أُجَّاجْ[2] وغار وادي أريغ [3].

يقع هذا الغار الذي هو: « بناء مشيّد، في آجلو، أسّس فيه أبو عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطّائي النفوسي نظام حلقة العزّابة، واتخذه مدرسة لتلامذته، كما يعرف بغار التسعي نسبة لسنة تأسيس الحلقة عام ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م»[4].

هيئة العزّابي

ممّا رتبه أبو عبد الله من سيَّر[5]الحلقة، وبقيّ رسما يقتدى به، أن جعل للعزّابي[6] الذي انضم في سلك المتديّنين، واعتزل عن دناءة الأجلاف الدنيويّين، علامات ليعرفوا بسيماهم، ويتميّزوا عن

(١) غار أَمَجْماجْ بجزيرة جربة تونس، غربي الحارة الصغيرة، وهو عبارة عن غار بسيط مستطيل الشكل، سقفه من طين، يمتد من الشمال إلى الجنوب، طوله حوالي أربعة أمتار، وعرضه متران، وارتفاعه قرابة مترين، ومن الأرجح أنّ التسميّة جاءت من التفاف واجتماع بعض علماء الإباضيّة في القرن ٥هـ/ ١١م، قصد تأليف ديوان العزّابة، الذي يعدّ من أقدم الموسوعات الفقهيّة المؤلفة جماعيًا، إذ شارك في تأليفه سبعة عزّابة ». م.م.إ، ج١، ص٤١. - ينظر كذلك: « أهل الغار ». م.م.إ، ج٢، ص ٧٧٧.

(٢) « محمد بن سليمان النفوسي ومحمد بن عمرة، زاراه [أبا عبد الله محمد بن بكر] فسألهما عن مَقْدمهما، فأعلماه أنّهما قدِما من غيران بني أُجاج [خارج وارجلان بجبل كريمة، قرب جبل عبّاد بسدراته]، وأنّهما يدرسان كتب الفقه، فاستحسن عكوفهما على دراسة الكتب »، الدرجيني، طبقات المشائخ، ط٢، [٢٠٠٧م]، ج٢، ص ٢٠٩.

(٣)في غار وادي أريغ « اجتمع بعض علماء الإباضيّة في القرن ٥هـ/ ١١م، قصد تأليف ديوان الأشياخ، الذي يعدّ من أقدم الموسوعات الفقهية المؤلفة جماعيًا، إذ شارك في تأليفه ثمانية عزّابة »، [يطلق ديوان العزابة على ديوان الأشياخ والعكس، كما يسمى بـ: كتب العزّابة]. م.م.إ، ج١، ص ٣٩٣.

- « كما اتخذ الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش القطب، بطلب من تلامذته، غارا بجُبَيل أبي العباس ببني يزقن، يسع تقريبا خمسين نفرا، وغرضهم الوحيد أن يتّخذ لهم درسا فيما مسّت إليه حاجتهم أو تناهت دونه مداركهم، من سائر العلوم الدينيّة والمعقوليّة، فجعل في كل صبيحة يأتيهم؛ وأتى في اليوم الأول بقفّة وقادوم، وتوافد عليه الطلبة والمشايخ من القرى الخمسة، يقول لكلّ من يرِد عليه: خذهما ومهّد بهما لمجلسك مقعدا، فيفعل ويجلس بفرح وسرور، وقد صفا لهم الجوّ واستطيبوا أمر الاجتماع في الغار وكان لهم أحسن ما يكون ». ينظر: إبراهيم بكير حفّار، مرجع سابق، ص٥٥-٥٧.

- إبراهيم بن أبي بكر حفار القراري، ولد عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م. م.أ.إ، تر: ٠٨، ج ١، ص ١٢.

(٤) «غار تينيسلي». ينظر: م.م.إ، ج١، ص ١٦٥.

(٥) ينظر: م.م.إ، « السيّر »، ج١، ص ٥٢٠. - ينظر: م.م.إ،» سيّر الحلقة »، ج١، ص ٥٢٢.

(٦) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ١، ص ١٧٢. - « مصطلح العزّابة أطلق على تلاميذ الحلقة، ثمّ اقتصر على شيوخ الحلقة بعد ذلك ». ينظر: « حلقة العزّابة »، م.م.إ، ج٢، ص ٦٩٧.

سـواهم، داخـل الحلقـة وخارجهـا (١).

حلق الشعر

ومنهـا الاعتنـاء بمظهـر الوجـه والـرأس، فيكسـب بذلـك هيبـة ووقـارا فـي أعيـن وقلـوب العامّـة، فـأوّل مـا يتجـرّد مـن طريقـة أهـل الدنيـا بحلـق شـعر رأسـه، فـي هيئـة معيّنـة ثـم لا يتـرك شـعره يطـول أبـدا.

اللباس

اتخـذ لهـم لباسـا بسـيطا سـاترا موحّـدا أبيـض اللـون مـا أمكـن، ويليـق بـه أن يقتصـر علـى عبـاءة أو ملحفـة، وإن لبـس ذلـك علـى قميـص كان أكمـل، مـا لـم يكـن مبتـدأ، ولا سـبيل علـى اقتصـاره علـى قميـص، أو قميـص دون اشـتمال، ويمكـن الاسـتغناء عـن العمامـة، فـإن اقتصـر علـى العبـاءة أو اللحـاف غطـى رأسـه وألقـى الطـرف الأعلـى مـن هـذب حاشـيّة الجانـب الأيمـن علـى الجانـب الأيسـر، كمـا هـو متعـارف بـه فـي مـزاب وورجـلان إلـى الآن(٢).

---

(١) « والحلقة بدأت تربويّة علميّة محضـة، بحيث يجلس التلاميذ إلى شيخهم في شكل حلقة دائريّة، ويبدو أنّ هذا النظام سرعان ما تطوّر ليصبح بمثابة نظام اجتماعي سياسي للجماعات الإباضيّة في مناطقها ببلاد المغرب الأدنى والأوسط «، « حلقة العزّابة «، م.م.إ، ج٢، ص ٦٩٧.

– ينظر: م.م.إ، « العزّابة «، ج٢، ص ٧٠٠. – ينظر: م.م.إ، « نظام العزّابة «، ج٢، ص ٧٠٢.

(٢) بقي هذا اللباس في مزاب وورجلان، وفي ليبيا وجربة وجنوب تونس، يسمى أحُلِي أو الجَرْدْ (تسمية نفوسيّة)، ويضفي هذا اللباس على العزّابي مَسْحة من الهيبة والوقار. م.م.إ، « أحُلِي «، ج١، ص ٢١. و» لَحْفَيَتْ «، ج٢، ص ٩٣٢.

– ونلاحظ ذلك في موسم المقابر في بلدة يزجن، حيث يلبس جميع الحاضرين المشاركين، وهم بالمئات، نفس اللباس في نفس الوقت وفي نفس المكان، وكأنّهم بلباس الإحرام في موسم الحجّ الأكبر.

تصنيف الحلقة[1]

للتسيير المحكم للمدرسة، قسّم العزّابة إلى صنفين، آمر[2] ومأمور، ولجميعهم أوقات، لما يختصّ به، فالآمر اثنان هما الشيخ أومن ينوبه، العريف اثنان، منفرد وغير منفرد، المنفرد اثنان، عريف أوقات الختمات والنوم، وعريف أوقات الطعام، الغير المنفرد وهم من حملة القرآن، لا يحصون عددا، فهم حسب الحاجة. والمأمورون ثلاث وهم طلبة القرآن، طلبة فنون العلم والأدب، والعاجزون (القاصرون) [3].

مهام الشيخ

« ومع أنّ المتعلّمين ينتظمون في جماعة، إلاّ أنّ الشيخ يتعامل معهم فردا فردا وكلّ في دوره وبحسب قدراته ودافعيّته وظروف تحصيله»[4]، وتتعلق به[5] مهام منها الجلوس لطلبة العلم، في وقت معلوم، ليأخذوا فيه الدرس. والجلوس بأثر الختمات، للجواب على الأسئلة، في أي فن كان. يذاكر التلاميذ[6] فيما حصلوه قبل ذلك، فيستفيدون ويستفيد من حضر. زيادة شيء من الوعظ، والتذكير والتحذير ويورد أمثالا حكيّمة وحكايات زهديّة وذلك عشيّة الجمعة. يمحص جميع من حضر فيسأل عن أحوالهم واحدا واحدا، وذلك في نفس العشيّة. يتفقد العرفاء، فمن حمدت أحواله

---

(١) هنا تعني الاعتناء بالموارد البشريّة في المدرسة، وهو اسم مجموعة مختلف التلاميذ والطلبة يلتفون حول شيخهم، يعلّمهم العلم ويلقّنهم السيّر ويبصّرهم في الدين بحسب ما يفتح الله على كلّ واحد منهم، يحصل البعض، وإن أعياه الكلّ، { فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ } سورة البقرة: ٢٦٥، فكأنّهم محلّقون ولو أنّهم مفترقون، الدرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص ٤. فهي حلقة فكريّة وحسّية، تجمعهم وحدة الغاية والمصير.

(٢)الآمر: الأول هو شيخ الحلقة إذ هو العمدة في التدريس والمرجع في الفتوى. الثاني هم العرفاء وهم من يتولى رعاية الدراسة من التلاميذ، وهم على نوعين:. ثقافي مهمّته مراقبة المراجعة وتحضير الأسئلة ومناقشة الحصص، فهو تقريبا يعادل الأستاذ المساعد. واقتصادي يتولى تقسيم الأوقاف ومراقبة أوقات الوجبات والنوم ورعاية السلوك، فهو يشبه مراقب الداخلية. الشيخ محمد أيوب صدقي، حلقة العزابة وتأثيرها عبر العصور، مخ، بني يزقن ١٩٨٨/٠٧/٢١، [بمناسبة مهرجان الذكرى الألف لتأسيس حلقة العزابة، معهد عمي سعيد، غرداية، من: ٢١ إلى ٢٩ جويلية ١٩٨٨م].
- ينظر: م.م.إ، « الآمرون »، ج١، ص ٤١.

(٣)يمثل مدرسة ذوي الحاجات الخاصة: المعوّقين أو المتخلّفين ذهنيا، في عصرنا.

(٤)محمد قمبر، دراسات تراثية في التربيّة الإسلاميّة، ص ٣٩٤.

(٥)ينظر: م.م.إ، « شيخ الحلقة »، ج١، ص ٥٧٧.

(٦)ينظر: « التلاميذ »، م.م.إ، ج٢، ص ١٥٤.

حمد الله وشكره على فوزه، ومن عيب عليه شيء من أحواله، فإن كان صغيرا أقيم إلى الزاوية[١] واجتهد في تأديبه جلدا، والكبير إلى الخِطّة. واستفتاح القرآن، في الثلث أو الربع الأخير من لليل، فيأتي موضع الاستفتاح فيستعيذ ويبسمل ويقرأ فاتحة الكتاب، ويبدأ من حيث انتهى المجلس في الليلة السابقة، فيهبّ كل نائم، منهم من يجلس معه فيقرؤون القرآن، حتى يؤذن المؤذن لصلاة الصبح فيقطعون القراءة ويدعون، ومنهم من يخرج ويدرس وحده. يستأذن في شؤون الوافدين الجدد إلى الحلقة، من طلبة ملتحقين أو عابري سبيل، فيكشف الشيخ عن أحوالهم، فيحكم بالتحاقهم بالحلقة من عدمه. وإليه تولية العرفاء. مع الإذن فيما يُشترى ويباع ويدخر من الأقوات، ويقسم ما يفتح الله من أرزاق ومتى وعلى من يقسم. كذلك الحكم بين المختلفين والمتخاصمين من التلاميذ وإحقاق الحق بينهم. ويشرف على جميع الحركات والسكنات في الحلقة ولا يفوته شيء منها.

مهام العريف[٢]

عريف الختمات وأوقات النوم[٣]

يتعلق به إرصاد حزب الغداة في المجلس الذي تعقبه المذاكرة، فإذا كمل الحزب أو كاد، دعا وجميع من في المسجد يؤمنون على دعائه، فيدعو أسنّهم ويدور الدعاء. فإذا كان الضحى نادى بنوم الهاجرة فينامون. فإذا كان غروب الشمس نادى بالختمة[٤] فيجتمعون على أكبرهم فيدير معه من يليه في السنّ والمعرفة رجالا، إن قلّوا فثلاث، وإن كثروا فعشرة، لا يتجاوزونها، والوسط بين التحديدين أعدل. فإن استداروا حلقة ذكروا الله وقرأ قارئان آيات من القرآن ثم يدور الدعاء كالعادة، ويؤمن من خلفهم.

---

(١) الزاوية: صفة عقوبة التلاميذ الصغار، وهي تشبه ما يطلب من التلميذ، في عصرنا، من الوقوف آخر القسم أثناء حصة الدرس، بسبب مخالفة ارتكبها.

- ينظر: نفسه، « الزاويّة »، ج١، ص ٤٥٤.

(٢) العريف: « أحد الطلبة النجباء يكلف بتنظيم سيْر الحلقة في إحدى نواحيها، وهي ستة وظائف أو مهام: عريف أوقات الختمات والنوم، عريف أوقات الطعام، عريف أوقات الدراسة، عريف الأوقاف، عريف العرفاء، عريف حملة القرآن ». ينظر: فهارس كتاب طبقات الدرجيني، تح الشيخ إبراهيم طلاي، إعداد: مصطفى باجو ومصطفى شريفي، جمعية التراث، القرارة، أفريل ١٩٩٥م، ص٩٧. وينظر: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٨٦.

(٣) ينظر: عريف الختمات والنوم، م.م.إ، ج٢، ص ٦٨٨.

(٤) ينظر: «وهناك من يقيم مثل [في عصرنا] هذه الختمات في بيته وبين أفراد أسرته، أو في محلّه التجاري بين عمّاله، ممّا يضمن المداومة على حفظ القرآن الكريم ومدارسته »، الختمة. م.م.إ، ج١، ص ٣٢٤.

وإذا صلّوا العشاء وقرؤوا من القرآن ما يسّر الله وحان وقت النوم، نادى بالدعاء، وهي ختمة على الكفاية، فيدعون دعاء خفيفا، والمستحب الذي وضعه الشيخ أبو عبد الله أن يكون بيد أفصحهم كتاب في الوعظ أو فيما أتاح الله فيقرأ منه قليلا ويستمعون وهم مجتمعون أو لا يجتمعون، ثم ينادي بالنوم. كما يراقب تطبيق الخطّة -العقوبات- ويُحَتّم على المتخلفين نوم القائلة[1].

المرقد (تنظيم النوم)

نظم مضاجع التلاميذ عند النوم في الغار إلى ثلاثة أصناف، بحسب سنّهم كما يأتي:

الأكابر يردون رؤوسهم إلى القبلة تجاه المحراب وتلقائه. والأواسط يردون رؤوسهم إلى أساطير الغار وأعمدته. والأصاغر يردون رؤوسهم إلى ناحية القبلة، إزاء رؤوس الأواسط، من السطر الأخير، ويتركون مكانا للشيخ مقابل المحراب.

دواعي الخطة[2]

ولحسن سير النظام وضبط سلوك المتمدرسين، المراهقين منهم خاصة، وُجدت إجراءات عقابيّة، تعيد المخطئ إلى جادّة الصواب، « وإذا نال بعضهم عقابا تأديبيّا تقبّلوه بشيء من الرضا لأنّه ممزوج بالرحمة ويحدوه الحرص على النجاح والفلاح»[3] ويكون إذا تخلّف أحد التلاميذ عن التأمين في مجلس حزب الغداة من القرآن الذي تعقبه المذاكرة. أو تكلّم أو تحرك أحد عند النداء لنوم الهاجرة عند الضحى، بحيث يؤذي النائمين. أو إذا امتنع عن نوم القائلة، بغير عذر، وكان تركه النوم ذريعة إلى امتناع قيام الليل، حتّم عليه نوم القائلة والخطّة. أو إذا تخلف عن ختمة غروب الشمس. أو إذا تكلّم أو تحرّك، عند نوم الليل، إلاّ أن يكون في مطالعة كتاب بعيدا عن

---

(١) ذكر عن أبي نوح سعيد بن يخلف المزاتي أنّه: « لم يصلّ صلاة بالتيمّم، على كثرة سكناه بالبادية، ولم يلبس الثياب المعدّة للصلاة إلى غيرها قَطّ، ولم يفته نوم القائلة »، صالح باجيه، الإباضية بالجريد التونسي، ط١، دار بوسلامة، تونس، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص ١٩٨.

- سعيد بن يخلف المزاتي المدوني أبو نوح، ط٨: ٣٥٠-٤٠٠هـ/ ٩٦١-١٠٠٩م. م.أ.إ، تر: ٤١٢.

(٢) « تعتبر أول عقوبة رسمها الشيخ أبو عبد الله، وتعني وضع خط مربّع وإيقاف المعاقب داخله، لمدّة تطول أو تقصر، حسبما يراه الآمر كافيا، ويبدو أنّها عقوبة ابتدائية وفردية »، ينظر: الشيخ محمد أيوب صدقي، مصدر سابق، ص ٢٢، (نقلا عن توضيحات للشيخ يوسف العطفاوي).

(٣)محمد قمبر، دراسات تراثية في التربيّة الإسلاميّة، ص ٣٨٩.

النائمين.

عريف أوقات الطعام[1]

لقد التقى الباحث بنصوص كثيرة تعنى بآداب الأكل، حتى قيل: هذا كثير في الموضوع، ولكن أيقن بعد ذلك أنّها آداب مهمّة جدًا في حياة الفرد السّويّ، خاصة عندما يكون الأكل جماعيًا.

فالمتعلق بالعريف أن يرتّب جلوس التلاميذ في مجلس الأكل. و يستدعي الماء ثم يغسلون أيديهم، بعد أن يعدّلوا هيئة اللباس[2]. فإذا فرغوا يأذن بالإنصات للدعاء. كما يرتّب ما يقدّم، حسب نوع القوت والوقت عند الضحى وبعد العصر، مثلا. كما يستعين بمن استحسن، ممّن هو غير منقطع إلى دراسته وكتبه[3].

آداب الأكل

على التلاميذ التزام آداب الأكل، وهو لا يخلو أن يكون داخل الحلقة أو خارجها، وإفراط الحذر في ذلك، وجعل الشعار بينهم كلمة « حَسّان» أي حَسِّن السلوك واثبت على الطريقة[4].

دواعي الخطة [5]

وهي تطبق إذا غاب عن المجلس بدون عذر. أو إذا عاد إلى ما نهيّ عنه من عيب في آداب الأكل. أو إذا امتنع أحد من إعانة العريف بغير عذر.

عريف الدراسة اثنان[6]

عريف القرآن

---

(1) ينظر: عريف الطعام. م.م.إ، ج2، ص ٦٨٩.

(2) « وهو أن يُخرج طرفي ثوبه على صدره بعد أن يدير كلّ طرف فوق العتق الذي يليه، فتبرز اليدان ولا ينكشف شيء من الجسد». ينظر: الدرجيني، الطبقات، ج1، ص ١٧٦-١٧٧.

(3) عفا الشيخ عن التلاميذ النجباء المجدّين المتفرّغين للتحصيل العلمي الأشغال العامة في المدرسة، وهذا تحفيزا لهم للبحث العلمي.

(4) الدرجيني، الطبقات، ج ١، ص ١٧٦.

(5) « وكأنّ خطًا فاصلا وضع بينه وبين الناس»، الخِطّة. ينظر: م.م.إ، ج1، ص ٣٤٣.

(6) « وقد تطوّرت هذه المهمّة في بعض مدن ميزاب إلى إدارة المدرسة الحرّة بحيث يعيّن هذا العريف مديرا لها «، عريف تعليم القرآن الكريم. ينظر: م.م.إ، ج2، ص ٦٩٠.

وهـو مـن حملـة القـرآن وإذا ارتسـم أحـد بعريـف، فليـس لـه أن ينتقـل عنـه إلـى غيـره إلا بـإذن؛ يملـي عليهـم ويكتبـوا ويصحـح ألواحهـم، ويأخذهـم بالحفـظ عـن ظهـر قلـب.

وقت الاستظهار

عنـد الضحـى يتأهبـون للكتـب، ولـكلّ جماعـة نقيـب[1] مـن أنفسـهم يحفّـز علـى أصحابـه ويجمعهـم، ثـم يسـتدعي العريـف لاسـتظهار مـا كتـب أمـس، ميامنـة، ثـم اسـتأذنوه إمـلاء اللـوح الجديـد.

القسم النموذجي[2]

أكثرهم عشرة تلاميذ، وأقلهم اثنان، أمّا عند الضرورة فلا حدّ لهم.

دورة الحفظ

يـوم كامل من إمـلائه وكـتابـتـه.

عدد الأخطاء

- خمس عثرات، إن كان مبتدىء.

- ثلاث عثرات، إن كان متقدّما، وفي أول قلم.

- عثرة واحدة، إن كان إعادة اللّوح، فمن زاد فعلى ما يجتهد فيه العريف.

عريف أوقات الدراسة[3]

واحد وأكثر، يتـفـقـدون أصحاب الألواح، بين الظهر والعصر.

دواعي الخطَّة

(١)وهو مسؤول الجماعة، أو هو مسؤول القسم في عصرنا، ودوره عظيم في تنظيم جماعته وتحفيزهم على الجدّ والاجتهاد، وقد استحسن الباحث دور مسؤول القسم في معهد عمّي سعيد الثانوي، عند تدريسه لمادة التاريخ الإسلامي، في الموسم الدراسي: ١٤٣١-٣٢هـ/ ٢٠١٠-١٤م وما بعده.

(٢)هل يمكن أن يعتبر هذا الإجراء أول نموذج لمّا تدعو إليه حاجة المدرسة العصرية ؟.

(٣) « من مهامه: تربيّة الطلبة على خلق الحزم وعدم اللهو وتضييع الوقت «، عريف أوقات الدراسة. ينظر: م.م.إ، ج٢، ص ٦٨٦.

تطبق إذا أخطأ أحد عند استظهار اللوح عددا معينا. أو إذا تخلّف أحد عن عريفه الذي ارتسم له بغير إذن. أو إذا لم يحفظ لوحه تماطلا وتكاسلا. أو إذا أبطأ عن وقت الاستظهار بين الظهر والعصر. أو إذا اشتغل بما يلهيه عن القراءة. أو إذا لم يصحّح لوحه، رغم علمه به. أو إذا أبطأ عن وقت الاستظهار بين المغرب والعشاء. أو إذا قام إلى الطعام أو النجوى بدون استئذان. أو إذا نام أو تناوم في وقت الاستفتاح. أو إذا اشتغل بغير الدراسة ولم يكن له عذر. أو إذا غاب عن استماع قراءة كتاب المواعظ، بين صلاة الجمعة والعصر.

الدورة اليوميّة لعمل التلاميذ

عند الثّلث أو الرّبع الأخير من الليل يكون لاستفتاح القرآن[1]. وعند آذان الصبح تقام صلاة الفجر. وعند الضحى قراءة حزب الغداة الذي تعقبه المذاكرة، ثمّ صلاة النافلة. وفي آخر النهار يقضي الطلبة استراحة في أماكن الماء والأشجار والأماكن التي تنشرح فيها النفوس وتتفسّح فيها الصدور، إجمالا للخواطر وجلاء للنواظر.

عند الهاجرة فترة نوم إجبارية، القيلولة، تطبيقا لقوله صلى الله عليه وسلم: « قيلوا فإن الشياطين لا تقيل»[2]. وعند الظهر تقام الصلاة؛ يظهر أنّ وقتها بعد الزوال بكثير، أي بعد نوم القيلولة، كما هو في بعض مدن الجزائر و مزاب. وبين الصلاتين تفقّد الألواح وقراءتها حتما، ويومي الاثنين والخميس تفقّد أحوال التلاميذ.

عند العصر تقام الصلاة. وقراءة الألواح استحبابا. وعند غروب الشمس قراءة ختمة، ثم صلاة المغرب. وعند العشاء الصلاة، ثم قراءة القرآن، ما تيسّر، ثم دعاء[3] الختمة، ليست بأكيدة، حضورها على الكفاية، دعاؤها خفيف. ثمّ نداء للنوم، حتما، إلاّ من أراد القراءة أو الاشتغال بالكتاب، أو قيام الليل.

---

(1) « قيام التلاميذ بمعيّة شيخ العزّابة وأعضاء الحلقة في الثلث أو الربع الأخير من الليل بتلاوة شيء من القرآن الكريم إلى بزوغ الفجر، استفتاحا لنشاطهم اليومي بكلام الله تعالى »، استفتاح. ينظر: م.م.إ، ج٢، ص ٧٨٤.
- وهو معمول به إلى الآن في مزاب وورجلان.

(2) حديث شريف، رواه الطبراني في الأوسط.

(3) « هو الابتهال إلى الله بالسؤال استمدادا للمعونة، أو رغبة في الخير، أو دفعا للمكروه »، الدعاء. ينظر: م.م.إ، ج١، ص ٣٧٦.

• أنواع الطلبة في الحلقة

تشتمل المدرسة على شرائح الأطوار الثلاث للتلاميذ، وتنفرد بقبولها للطلبة العاجزين، إذ يعتبر ذلك ممّا تتميز به هذه المدرسة، أو هي السبّاقة في ذلك.

ويلاحَظ من خلال النصوص، وجود فئات عمريّة متفاوتة في نفس المجموعة، صغار الطلبة مع الكبار، والأذكياء مع من دونهم في المستوى الذهني والجسدي، وذلك للقضاء على الأميّة الدينيّة، حتى لا يعبد الله عن جهل، مع التوعية المستدامة للرفع من المستوى الحضاري للمسلمين، على كلّ المستويات وفي كلّ الميادين.

أولا طلبة القرآن

لباسهم: أن يشتملوا فلا يظهروا من أجسادهم شيئا.

هيئتهم: عملهم فردي، يسندوا ألواحهم إلى الأساطين، ويقابلونها غير مستندين ولا مكثرين من الالتفات، خاصة الصغار منهم. وسيلتهم: الألواح.

طلبة العلوم: نوعان

- أصحاب اللويحات[1]، وهم صغار السن، يقتدون بطلبة القرآن في الهيئة والنظام.

- أصحاب الكتب، عملهم فردي وجماعي، ولهم أن يسندوا إلى ما يشاءون من أركان المسجد، فرادى أو مجتمعين، للبحث والمذاكرة والمناظرة، ويكون هذا دأبهم.

ولهم وقت يجتمعون فيه إلى أستاذهم- الشيخ- يتفقّد أحوال دراستهم، ويسألونه عما أشكل عليهم، يتداولون السؤال بالأدوار، أو يسأل أفصحهم، أو يسأل أشدّهم حاجة لضرورة دعت، أو لنازلة وقعت، فيحيل السؤال ميامنة، حتى يدور السؤال إلى الشيخ، فإن علم أنّه في الجمع أكفى منه في تلك المسألة أذن له في الكلام فيها، وإلاّ تكلّم بما عنده، ثم يسأل كذلك من يشاء ويبحث كيف

(1)« وسمّوا بذلك لاستعمالهم الألواح الخشبيّة في حفظ القرآن »، أصحاب الألواح. م.م.إ، ج٢، ص ٩٤٢.

يشاء، وللسائل أن ينبِّهه إذا غفل. ويذكِّره إذا نسي. ويفتح له إذا ارتجَّ عليه. ويعترض إذا احتاج إلى زيادة إيضاح. أو علم من الحاضرين إرادة استزادة كشف.

وإذا حضر المجلس، غير الطلبة المعنيّين، يكره إدارة ما يستشنع من المسائل الشاذة، التي تضل الغبيَّ أو تجعله ينسب الرشد إلى الغيّ.ومن أراد القيام فلا يقوم حتى يستأذن من يليه، ثم يقوم، وإن لم يأذن له بقيّ في مكانه.

الطلبة العاجزون (القاصرون) [١]

وهم أنواع، فمنهم الطرش والعميان وذوو الأمراض المزمنة والهرمون وذوو الأفهام القاصرة، وممكن أن يوجد فيهم من هو ذو قدرة على الاستيعاب ولكنه ألحق نفسه بهؤلاء تكاسلا وتماطلا، فهؤلاء « كل ميسَّر لما خلق له»، شأنهم الإصغاء والاستماع ليحصلوا على ما يمكن أن يحصلوه من الفوائد والسيّر والأخلاق، ويوجّههم الشيخ إلى العرفاء لمساعدتهم ولخدمة الطلبة وأهل الخير من الحلقة في الشؤون المختلفة كل حسب طاقته، ليوفيهم الله أجورهم ويزيدهم من فضله.

حلقة النساء

اهتم الشيخ أبو عبد الله بشؤون المرأة فعقد لهن مجلسا في حلقته، من وراء حجاب، يستمعن فيه إلى درس الشيخ ويسألن عن أمورهن، وذكر عن أمِّ الشيخ عدل بن اللؤلؤ[٢] واسمها ‹ ورتنجير › هيَّ وصاحبتها، رمضان كلّه، إذا أفطرتا في بني ويليل، رأس الوادي، صلّتا القيام عند أبي عبد الله في غاره، نحو من ثلاثة فراسخ، فتبيتان في الحلقة، فإذا صلّتا الصبح، تمضيان إلى أهلها، فلا تطلع الشمس إلاّ وهما في تِينْ يَسْلِمانْ، فتجدان النواسج (النساء) لم يقمن إلى المنسج، بركة

---

(١) « المعوّقون: من ذوي الاحتياجات الخاصّة. عرّف نظام رعاية المعوّقين المعوّقَ بأنّه: كلّ شخص مصاب بقصور كلّي أو جزئي بشكل مستقرّ في قدراته الجسميّة أو الحسّية أو العقليّة أو التواصليّة أو النفسيّة، إلى المدى الذي يقلّل من إمكانية تلبية متطلّباته العاديّة في ظروف أمثاله من غير المعوّقين، هذا المصطلح تندرج تحته جميع فئات ذوي الإعاقات المختلفة مثل: المعوّقين بصريا، سمعيا، عقليا، جسميا وصحيا، وذوي صعوبات التعلّم، والمضطربين تواصليا، وسلوكيا وانفعاليا، والتوحّدين، ومزدوجي ومتعدّدي العوق إلى غير ذلك «. ينظر: وزارة التربيّة الوطنية، الجزائر، المعجم التربوي، مصطلحات ومفاهيم تربوية، ٢٠٠٩م، ص ٧٢.

(٢)الشيخ عدل بن اللؤلؤ، ط١٠: ٤٥٠-٥٠٠هـ/١٠٥٨-١١٠٦، معاصر لأبي موسى الزغليني، من أفاضل أهل وارجلان، كان مشهورا بالعبادة والورع الكرم، مؤذن بإحدى مساجد وارجلان وكان جهير الصوت، يسمعه من بعيد أهل تُمانْتِيسَنْتْ. ينظر: الوسياني، سيّر، ج١، ص٤٤٩.

وقوّة.

وكانت امرأة، في عهده، تخدم التلاميذ وتعتني بما يحتاجونه من أمور معاشهم، محسنة إليهم، فتزوجها رجل وغاب عنها في نواحي طرابلس من أحياء مزاته، وبلغ ذلك في الشيخ مبلغا عظيما لمكانتها في الحلقة، فوجه رجلين إلى زوجها بطرابلس، وأشهدتهما على نفسها، أنّه متى فارقها أسقطت عنه المهر، فلما استوثقا منها سارا إلى طرابلس، فوصلا إلى الرجل وأشهدهما أنّه خلىّ سبيلها، فكرّا راجعين إلى أريغ[1].

خلاصات تربوية

- للمدرسة نظام صارم ممزوج بالرحمة، يشرف عليه مسئول عام وهو الشيخ، ويساعده العرفاء الذين يكونون تحت إمرته.

- مع صرامة هذا النظام، فهو يتسم بالمرونة اللازمة لمسايرة الزمن والنوازل، وحسن صرف الاستثناءات التي تقتضيها الظروف الخارجة عن نطاق قدرة الإنسان عامة، ويُلحظ ذلك في العبارات المستعملة مثل: ... بغير إذن، ... ولم يكن له عذر، فعلى ما يجتهد فيه العريف، إلا أن يكون...، يستعين بمن استحسن.

- مراقبة ومحاسبة المسئولين، دوريّا، ومجازاتهم، فمن حمدت أحواله حمد الله وشكره على فوزه، ومن عيب عليه شيء، فالخِطّة.

- المدرسة داخلية[2]، بالنسبة للذكور، وخارجية بالنسبة للنساء.

- المدرسة متنقلة، في فصول معيّنة، بين أحياء أهل الدعوة، من أريغ إلى جبال بني مصعب إلى جبل نفوسة على إفريقية، مرورا بالقرى المجاورة لهذا المسار.

---

(١) الدرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص ٣٧٨.

(٢)« حيث يتحوّل الغار إلى بيت كبير تسكنه أسرة كبيرة، الشيخ وتلاميذه في حياة علم وعمل وتعبّد ونوم وراحة وأكل،...، وفي هذا الجوّ الاجتماعي تختفي الظواهر السيكولوجية المَرَضِيّة في سلبياتها، كالنفور من الدراسة، والبغض للمعلم،...، فالتفاعل صحّي في معظم حالاته، يقوم على العطف والتفاهم والتواضع من قبل الشيخ، والتعاون والعزيمة والنشاط من قبل المتعلّمين». ينظر محمد قمبر، دراسات تراثية في التربيّة الإسلاميّة، ص ٣٨٩.



- نظـام المدرسـة عملـي[1] أكثـر منـه نظـري، فالتطبيـق الميدانـي للتربيـة، أكسـبه هـذه المرونـة فـي التعامل مع المستجدات واحتوائها في حينها.

- موقـع المدرسـة، مـدروس بعنايـة: بعيـد عـن صخـب المدينـة وضجيـج الأسـواق، أي بعيـد عـن المؤثـرات السـلبيّة علـى التلميـذ والجـوّ المدرسـي.

- توفّر وسائل الترفيه والراحة، خارج المقر، في حدود الآداب العامّة.

- الـروح الجماعيـة والمهابـة والسكينة والوقـار التـي تطفـي علـى التلاميـذ، وهـم كالحوارييـن، تجعـل النـاس يُعجبـون بـهـم فـيتسابـقون ويـتـهافـتون علـى خدمتهم فـي حلّهم وترحالهم.

- نظـام المدرسـة ممتـدّ، يشـمل التربيّـة الفرديـة للتلاميـذ العادييّـن، والتربيّـة الاجتماعيـة المتمثلـة فـي احتضـان الفئـات الخاصـة، وبإبعادهـم عـن الوسـط السـلبي مـن المجتمـع، وتوفّـر لهـم وسـطا علميّـا واجتماعيـا إيجابيّـا يسـوده الشـعور بـروح الإنسـانيّة والرحمـة يعـوض لهـم الـدفء الأسـري، « ممّـا يقلـب جـوّ الحلقـة التعليمـي إلـى جـوّ الأسـرة الاجتماعـي، ويحـوّل ربـاط الزمالـة إلـى الأخـوّة، ويقضـي علـى العلاقـات الشـكليّة أو المتحفّظـة التـي تعرفهـا المؤسّسـات الرسـميّة »[2].

الخاتمة

بعـد هـذا العـرض لموضـوع التربيّـة عنـد أبـي عبـد الله محمـد بـن بكـر الفُرْسُـطّائي، فـي حياتـه، فـي القـرن الخامـس الهجـري / الحـادي عشـر الميـلادي، مـن خـلال مـا ذكرتـه كتـب السيَر، يليـق أن يضـاف لـه نسبة الريغـي والمزابـي، لأنّ نظامـه ترعـرع بأريـغ ثـم أقـام بمـزاب واسـتمرّ بـه، فهـي مثـال حـيّ عـن الأعمـال التـي تكـون خالصـة لله تعالـى، ابتغـاء مرضاتـه، بعيـدا عـن الريـاء وابتغـاء السـمعة.

نظـام الحلقـة نظـام حياتـيّ تربـوي أساسـه التديّـن، ووسـيلته القـدوة الحسـنة، فالديـن المعاملـة، يتّسـم بالصرامـة والجـدّ، وبالمرونـة اللازمـة ليحتـوي مسـتجدات الزمـان والمـكان، فقـد وضـع مـن القواعـد

(١)« والإباضيّة مع تديّنهم عمليّون، لا يميلون للزهد الصوفي الذي يبعد بهم عن العمل». ينظر: نفسه، ص٣٧٧.

(٢)محمد قمبر، دراسات تراثية في التربيّة الإسلاميّة، ص ٣٨٩.

مـا يمكـن أن يعتبـر: « فقـه التربيّـة عنـد أبـي عبـد الله محمـد بـن بكـر».

فمشـاهدة كيـف كان الشـيخ مُـرَبّ فـي بيتـه مـع أهلـه وأولاده، وفـي مجتمعـه، ثـم تتبّـع أثـره فـي المدرسـة واقـتفاء رسـم سيّر حلقـة العزّابـة، التـي أنشـأها الشـيخ أبـو عبـد الله محمـد بـن بكـر الفرسـطائي، وأراد لهـا أن تكـون وتبقـى للتربيـة والتعليـم والتعلـم، بعيدا عـن الدنيـا الدنيئـة، نقتنـع لذلـك.

كمـا كان يوصـي تلامذتـه بالجدّ والمثابـرة والآداب، التـي جعلهـا ركـن الأركان فـي مدرسـته، بـل العلـم الأول الـذي يجـب أن يتعلّـم لينـتقـل إلـى غيرهـا مـن العلـوم.

النصـوص التـي تُمكّـن مـن مطالعتهـا لا تذكـر الكثيـر مـن التفاصيـل فـي الموضـوع، كمـا يغلـب عليهـا اللسـان البربـري، ممّـا صعّـب فهم بعـض مفرداتهـا، مـع الجهـد المقلّ، فقـد مكّـنته هـذه الفرصـة مـن الإطـلاع علـى عـدد مهـمّ مـن المصـادر والمراجـع فـي السـيّر الإباضيـة، ورحـلات تواصليّـة إلـى المناطـق الإباضيـة لاسـتنطاق معالمهـا والوقـوف علـى رسـمها والترحّـم علـى أوائلنـا والتواصـل مـع معاصرينـا.

والإشـكاليّات التـي بقيّـت عالقـة والتـي تصلـح لبحـث جديـد هـي مـدّة التكويـن، ومحتـوى المـادة العلميّـة، أي البرنامـج الدراسـي والمقرّرات فـي هـذه المدرسـة؟ والكشـف عـن مؤلفاتـه المذكـورة عنـه، والاعتنـاء بجمـع آرائـه الفقهيّـة والعقديّـة وحتـى التفسـيريّة.

والـذي حفّـز الباحـث أكثـر، مـا قـرأه فـي كتـاب الطبقـات، وهـو: « أنّ مـن لـم يـأل جهـدا فهـو مأجـور وإن لـم يحصـل، وأنّ المتضيّـع المفـرط راض لنفسـه بالقـوت الحـرام واكتسـاب الآثـام، ومرتكـب لسـخط العـلام؛ نسـأل الله أن يسلمنا ويختـم لنـا بخواتـم الإسـلام»[١].

أسـأل الله تعالـى أن يغفـر للباحـث فيمـا قصّـر، مـن غيـر قصـد، وأن يتقبـل منـه هـذا العمـل، ويجعلـه علمـا يُـنتَفَع بـه، ويبعثـه روحـا وريحانـا علـى ضريـح وَالديـه الكريميـن ومشـايخه، ويصلـح لـه زوجـه وذرّيتـه وأن ينصـر بـه الديـن.

---

(١) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ١، ص١٨٢.

المــصادر والمراجـع

١. إبراهيم بن بانوح مطياز، تاريخ امزاب، مخ، كراس مصوّر، د.ت.

٢. إبراهيـم بـن صالـح بابـا حمـو أعـزام، غصـن البـان فـي تاريـخ وارجـلان، دراسـة وتحقيـق إبراهيـم بـن بكيـر بحّـاز وسـليمان بـن محمـد بومعقل، مطبعـة العالميـة، غردايـة، ط١، جمـادى الأولـى ١٤٣٤ه/ أفريـل ٢٠١٣م.

٣. إبراهيـم بـن عيسـى أبـو اليقظـان ، سلسـلة مؤلفاتـه، تـر: الإمـام أبـو عبـد الله محمد بـن بكر الفُرْسُـطّائي النفوسـي، مص، القرارة، صيف ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤. ابـن منظـور جمـال الديـن أبـي الفضـل، لسـان العـرب، (٦٣٠-٧١١ه)، تنسـيق علـي شـيري، دار إحيـاء التـراث العربـي، بيـروت، ط ١، ١٤٠٨ه/ ١٩٨٨م، جديـدة ومنقحـة.

٥. أبـو العبـاس أحمـد أبـي عُثمـان سـعيد بـن عبـد الواحـد الشـماخي، كتـاب السيّر، دراسـة وتحقيـق د. محمـد حسـن، دار المـدار الإسـلامي، ط ١، مـارس ٢٠٠٩م.

٦. أبـو العبـاس أحمـد بـن سـعيد الدرجينـي، طبقـات المشـايخ بالمغـرب، تـح الشـيخ إبراهيـم بـن محمـد طـلاي، ط٢، د.م.ط، د.س.ط، [كتـب فـي هامـش مقدمـة الطبعـة الأولـى للمحقق علـى الطبعـة الأخيـرة هـذه، معلّـلا علـى إعـادة تحقيقـه، تاريـخ: ٢٨ شـوال ١٤٢٨ه - ١٠/١١/٢٠٠٧م].

٧. أبـو حفـص عمـرو بـن جميـع، مقدّمـة التوحيـد وشـروحها، الشـمّاخي والتلاتـي، صحّحهـا وعلّـق عليهـا أبـو إسـحاق إبراهيـم طفيـش، الشـرح الأول.

٨. أبـو زكريـا يحيـى بـن أبـي بكـر، كتـاب السيّرة وأخبـار الأئمـة، تـح، عبـد الرحمـان أيـوب، الـدار التونسـية للنشـر، بـن عـروس، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٩.أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك، الناشر:

Librairie d'amérique et d'orient، ADRIEN- 28MAISONNEUVRE، 11،rue Saint-Sulpice (VI°). P

١٠.أبي عمّار عبد الكافي، سيّر أبي عمّار، تح ونشر: مسعود مزهودي، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، مسقط، ط ١، ١٤١٦ه/١٩٩٦م.

١١.أحمد إلياس حسن، الإباضيّة في المغرب العربي، مكتبة الضامري، مسقط، ط ١، ١٩٩٦م.

١٢.سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان، جواهر التفسير، أنوار من بيان التنزيل، مكتبة الاستقامة، مسقط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

١٣.إسماعيل بن بيدير الهواري، كتاب فضائل أهل الدعوة، مخ، مك الشيخ عمّي سعيد، غرداية.

١٤.السيد قطب، تفسير في ظلال القرآن، ط٦.

١٥.الشيخ امحمد اطفيش، تيسير التفسير، تح الشيخ ابراهيم بن محمد طلاي، المطبعة العربيّة، غرداية، ط١، ١٩٩٨.

١٦.المنير بن عبد الحميد بن سعدون ، ببليوغرافيا عن الشيخ صالح لَعْلي، اليوم الدراسي حول الشيخ، بني يزقن، يوم: ٢٠١٠/١٢/٢٥م، مرقون.

١٧.أوراق تعريفية، مرقونة ومصورة عن مدينة نالوت عبر التاريخ، ٢٠٠٥م.

١٨.بكير بن بلحاج وعلي، الإمامة عند الإباضيّة بين النظرية والتطبيق مقارنة مع أهل السنة والجماعة ، جمعية التراث، المطبعة العربيّة، القرارة، غرداية، الجزائر، ط١، ١٤٢١هـ١٢٠٠١م.

١٩.بكير بن سعيد أعوشت، وادي مزاب في ظل الحضارة الإسلاميّة دينيا تاريخيا اجتماعيا،

المطبعـة العربيّـة، غردايـة، ١٩٩١م.

٢٠.تاديـوس ليفيتسـكي، المؤرّخـون الإباضيـون فـي شـمال أفريقيـا، تـر: ماهـر وريمـا جـرار، دار الغـرب الإسـلامي، ط١، ٢٠٠١م.

٢١.جرجـس ميشـال جرجـس، معجـم مصطلحـات التربيّـة والتعليـم، ط١، بيـروت لبنـان، دار النهضـة العربيّـة، ٢٠٠٥م.

٢٢.صالح باجيه، الإباضيّة بالجريد، الجامعة التونسية، دار بوسلامة، تونس،ط١، ١٩٧٦، ملحق٢.

٢٣.الحاج صالح لعلي، القول الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، مرقون، بمكتبته، ٨٩-١٩٩٩م.

٢٤.صـلاح مسـعود الدبْلـي، باحـث فـي تـراث جبـل نفوسـة، ورقـات مخطوطـة، بطلـب مـن الباحـث، حـول فُرْسُـطّاء، طرابلـس، ٠٣ أفريـل ٢٠٠٩م.

٢٥.طـلاي إبراهيـم بـن محمـد، وثيقـة حـول شـخصية أبـو عبـد الله الفُرْسُـطّائي، مـخ، دت [تسـعينيات ق٢٠].

٢٦.عبـد الرحمـن النقيـب، عـن محمـود حمـدي زقـزوق، الموسـوعة الإسـلاميّة العامـة، وزارة الأوقـاف، مصـر، القاهـرة، ٢٠٠٣م.

٢٧.عبـد الله بـن يحـي البارونـي، رسـالة سَّـلم العامـة والمبتدئيـن إلـى معرفـة أئمـة الديـن، أَلَّـفَه سـنة ١٢٩٠ هـ تقريبـا، د ت ط، مطبعـة النجـاح مصـر، لصاحبهـا محمـد حسـين التـرزي، ٨ ذي الحجـة ١٣٢٤هـ.

٢٨.عثمـان حجـازي، تطـور الفكـر التربـوي الإباضـي فـي الشـمال الإفريقـي مـن القـرن الأول حتـى القـرن العاشـر الهجـري ٩٥هـ/٧١٣م – ٩٢٨هـ/١٥٢٠م، المطبعـة العصريـة، بيـروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٩.عمـر بـن صالـح بباعلـي ، ترجمـة الشـيخ صالـح لَعْلـي، اليـوم الدراسـي حـول الشـيخ، بنـي يزقـن، يـوم: ٢٠١٠/١٢/٢٥م، مرقـون.

٣٠.عمر لقمان بوعصبانة، معالم الحظارة الإسلاميّة بوارجلان، ورقلة من نهاية الدولة الرستمية إلى زوال سدراته، جمعية الوفاق بمساهمة ولاية ورقلة مديرية الثقافة، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٣١.فرحات الجعبري، نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبية في جربة، المطبعة العصرية تونس، ١٩٧٥م.

٣٢.فرحات الجعبيري، العلاقة بين إباضبة المغرب وإباضيّة البصرة وعُمان من القرن الأول إلى الحادي عشر الهجري/٨-١٧م، سراس للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٣.مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان، معجم مصطلحات الإباضيّة، مطابع النهضة ش.م.م، مسقط، ط ١، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م.

٣٤.محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضيّة، جمعية الثرات القرارة، المطبعة العربيّة، غرداية، ط١، ١٩٩٩.

٣٥.محمد أيوب صدقي، حلقة العزابة وتأثيرها عبر العصور، مخ، بني يزقن ١٩٨٨/٠٧/٢١، [بمناسبة مهرجان الذكرى الألف لتأسيس حلقة العزابة، معهد عمي سعيد، غرداية، من: ٢١ إلى ٢٩ جويلية ١٩٨٨م].

٣٦.محمد أيوب صدقي، المجالس العرفية بوادي ميزاب، شوال ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م، مر.

٣٧.محمد قمبر، دراسات تراثية في التربيّة الإسلاميّة، الدراسة السادسة التربيّة عند الإباضيّة، دار الثقافة، الدوحة، ط ١، ١٩٩٢م.

٣٨.مصطفى بن صالح باجو ومصطفى بن محمد شريفي، فهارس كتاب طبقات المشايخ للدرجيني، تح الشيخ إبراهيم طلاي، جمعية التراث، القرارة، أفريل ١٩٩٥م.

٣٩. مكتب جمعية « جربة التواصل»، عن البطاقة التعريفية للجمعية، ٢٠١١/٠٧/٢٤.

٤٠. وزارة التربيّة الوطنية، الجزائر، المعجم التربوي، مصطلحات ومفاهيم تربوية، ٢٠٠٩م.

٤١.وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدار الفكر، ط١، ١٩٩١م.

٤٢.ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ط٣، ٢٠٠٧م.

٤٣.يحي بن بهون حاج امحمد، من الرحلات الحجازيّة لعلماء المغرب الإسلامي، رحلة الوارجلاني، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الوارجلاني، ٥٠٠-٥٧٠هـ/ ١١٠٦-١١٧٥م.

٤٤.يحي بن بهون حاج امحمد، من الرحلات الحجازيّة لعلماء المغرب الإسلامي، رحلة المصعبي، الشيخ إبراهيم بن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني اليسجني المصعبي، المتوفى سنة ١٢٣٢هـ ١٨١٧م.

٤٥.يحي بن بهون حاج امحمد، من الرحلات الحجازيّة لعلماء المغرب الإسلامي، رحلة القطب، الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش الشهير بـ» قطب الأيمّة»، ١٢٣٨هـ١٨٢١م / ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.

٤٦.يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربيّة، غرداية، ط٢، مزيدة ومنقّحة، ٢٠٠٦م.

الكلمة الختامية

سناء مهنى الباروني

بسم الله

والصلاة والسلام على خير خلق الله

المشائخ الأجلاّء الأساتذة الأفاضل والأستاذات الفضليات

حضور هذا الحفل العلمي الكريم

عليكم سلام الله تحية طيبة وبعد

فإن للعطاء الفكري يوم يستحق فيه الاحتفاء والتقدير والشكر الجزيل لكل من أسهم فيه وشارك.

بالأمس كنت ألقي عليكم أوّل عروضه. والآن أقف بينكم معلنة انتهاء فعاليّاته.

وفي ختامِ هذه الندوة ندوة «كتب السّير الإباضيّة» أتوجّه إليكم جميعا أصالةً عن نفسي كباحثة في الفكر الإباضي ونيابةً عن رئيس هذه الندوة شيخنا الأستاذ الدكتور فرحات الجعبيري ونيابة عن جمعية جربة التواصل وكلّ من اشتغل معها وتفاعل مع جهودها العلمية ، أتوجّه بأحرّ عبارات الشّكر على تشريفكم بحضورِ أعمالها والمساهمة فيها بفعاليّة وإخلاص. ولقد أقمتم الدّليل من جديد على أنّكم شركاء جديّون وغيورون متحمّسون يعوّل عليهم في الإضافة الفكرية والبحث العلمي .فمتون السير الإباضية مجال بحث رحب يشدّ بثرائه ومفاتيحه التي مازالت مقفلة العديد من أبوابها، كلّ من يروم الدّرس الجاد منها والبحث المنهجي الموضوعي فيها الذي لن يزيدها إلا نماءً و ثراءً.

واسمحوا لي بالتّعبيرِ عن جزيل الشكر للمشائخ والدكاترة والأساتذة الأفاضل والفضليات من مختلف المواقع والمستويات لتشريفهم هذه الندوة بالبحوث والأوراق والعروض التي قدّموها وأثْرَوْا بها خبرات التّفكير والبحث في ساحة الفكر الإباضي وتحديدا في متون سيره التاريخية ، وإنّنا لنبدي تقديرنا الكبير للجهود التي بذلوها في الإعداد لمشاركاتهم، وللطرافة التي أظهروها في عَرضها والطرافة هنا جاءت بمعنى الجدّة والإضافة . ولقد فازوا -فوق ذلك- بشرف المبادرة والسّعي ومكابدة مشاق السّفر والترحال من داخل البلاد وخارجها ، من مشرقها ومغربها فلهم على ذلك شكر مضاف.

وفي إطار الجهد العلمي لجمعيّة جربة التواصل، فإنّه لا يفوتنا أيضا أن نوجّه تحية امتنان وتقدير مخصوصين لجنود الخفاء بهذه الجمعيّة رجالا ونساء على الجهود السّخيّة التي بذلوها في إطار التّعاون مع اللّجنة العامّة للإعداد للندوة واللّجان المنضوية تحتها. فقد كانت وراء المشهد العامّ الذي رأيتموه للندوة شراكةٌ مثابرة بين جميع هذه الأطراف لا تراها الأعين ولكن تدركها الضّمَائر وتتلَقّاها بالامتنان.

وتتشرف جمعية جربة التواصل اليوم بأن حازت و تحوز قصب السبق في الدعوة إلى عقد مثل هذا الحفل العلمي الذي يبرز جوانب الإبداع والانبعاث المتجدّد لمناهج السير التأريخية للجموع الإباضية العلم والفكر إطارا لها دون سواهما من المجالات .

لذا فإن هذه الجمعيّة تستنهض مزيدا من همم الباحثين والمفكّرين في العالم العربي والإسلامي وتحملهم إلى عالم رحب في سير المذهب الإباضي سيّما وأنّ قسوة التاريخ عليها حالت في كثير من الأوقات من إجلاء القيم السمحة في نظامهم الفكري والخلقي وحالت دون اكتناه قيمة مصادره التاريخية التي تجمع بين علوم شتى ولها في كل فن القدح المعلى مما يتيح الفرصة لكثير من أهل العلوم أن يتناولوا إبداعات أصحابها بعقل فاعل لا بعقل سائد .

ثُمّ إنّني لأفرد -قبلَ ذلك كلّه- شكرا خاصّا للأفاضل والفضلياتِ السّادة والسّيّدات بمختلف مستوياتهم ضيوفِ الحضور لندوة السير الإباضية من مشرقنا المشرق بزخم نشاطه الفكري سلطنة عمان هذا البلد المعطاء على الدّوام بعقول وقلوب طيّبة غيورة ، وضيوف أعزّاء من الجبل الأغر جبل نفوسة ولولا نفوسة لما كانت جربة ومزاب ،ومن وادي مزاب مهد

العلم و أبناء الشيخ عمّي سعيد الجربي مثبّت الأصول التي بزغت فروعا في السماء طيبة تؤتينا أكلها النافع كلّ حين . ومن جزيرة جربة جسر التواصل بين أتباع جابر بن زيد الأزدي أمس واليوم وغدا بإذن الله تعالى . ومن تونس العاصمة و مختلف الأماكن الأخرى من الجمهورية التونسية الذين دفعتهم إرادة المساهمة في إنجاح هذه الندوة وجاؤوا للإفادة وإثراء الحوار المعرفي وتعميق التعارف بين أهل العلم في كل مكان شكرا لكل هؤلاء الحاضرين الذين لولاهم لما كان للندوة كنهها الجميل .

وأخيرا اسمحوا لنا نيابة عنكم جميعا وعن رئيس هذه الندوة ورئيس جمعيّة جربة التواصل الشيخ الدكتور فرحات الجعبيري بأنْ نقدّمَ إلى الأساتذة المحاضرين هديّة تكريميّة رمزيّة تتمثّل في شهادات شكر ... ، عربونَ امتنان وتقدير لبحوثهم .

فبارك الله جهودكم أجمعين ، ووفّق مساعيَكم، وجازاكم خير الجزاء.

قَالَ تَعَالَى: «وَقُلِ اِعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونْ» صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله

الخلايا الجذعية والأحكام الشرعية

Stem Cells

د.صلاح الدين عمرو الباروني
وكيل جامعة طرابلس للشؤون الطلابية والتعليمية / ليبيا
selbaruni@gmail.com

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم {وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلا }[١]، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبع هداه إلى يوم الدين وبعد:

إن العلم اليوم في تقدم وبسرعة هائلة نحو الاكتشافات في جميع المجالات والتخصصات، ومن ضمن هذه العلوم علم الطب الذي به يتم الوصول إلى علاج العديد من الأمراض وحل الكثير من المشاكل الطبية، وقد تطور هذا العلم وعالج العديد من الأمراض التي لم يسبق علاجها في القرون السابقة ومازال هذا العلم في تقدم وتطور واستخدام تقنيات جديدة لم تكن معهودة في السابق، ورغم هذه التطورات والاكتشافات فإن الشريعة الإسلامية قد استجابت لكل المستجدات والتقنيات ولم تظهر أي تناقض بين القرآن الكريم والسنة مع الحقيقة العلمية الثابتة، لأنها شريعة خالدة وشاملة، وإن العلاج بالخلايا الجذعية وإستخدامها تعتبر من العلاجات المستحدثة لم يسبق استعمالها في القرون السابقة.

إن الخلايا الجذعية هي المنشأ الأساسي للكائن الحي وهي التي منها تتكون وتتخلق

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥

كل أجهزة وأعضاء الجسم البالغ، وأي خلل في جينات هذه الخلايا ينتج عنه تشوه أو مرض للمولود الجديد. وبتقنيات معينة توصل العلم الحديث واستطاع خارج رحم الأم (في المعامل) أن يخلق وينشيء من الخلايا الجذعية بعض أنواع من الخلايا المتخصصة مثل الخلايا العظمية أو البنكرياسية أو الخلايا العضلية والقلبية. والأبحاث الطبية الحديثة في تفاؤل كبير من أن العلاج بالخلايا الجذعية سوف يغير ويأخذ مكاناً كبيراً في علاج العديد من الأمراض وبالأخص الأمراض المستعصية مثل السرطانات وأمراض الحبل الشوكي والداء السكري وغيرها من الأمراض. حيث تهدف الدراسات الحديثة إلى الاستفادة من الخلايا الجذعية لإنتاج أعضاء معينة يمكن استبدالها بأعضاء مريضة في الجسم. والأبحاث العلمية الحديثة توصلت إلى استبدال وتغيير بعض الأعضاء المريضة بأعضاء سليمة ناتجة من الخلايا الجذعية.

والهدف من هذا البحث:

١ـ معرفة الحكم الشرعي في أخذ واستعمال الخلايا الجذعية في التجارب والعلاجات لأن العلم الحديث والتقنيات الجديدة في تطوّر وتقدّم سريع لمحاولة استخدام الخلايا الجذعية في مجالات علاجية واسعة من زراعة وترميم أعضاء مريضة.

٢ـ ومن أسباب اختيارنا لهذا البحث هو معرفة أنواع الخلايا الجذعية وطرق الحصول عليها وحفظها ومعرفة الوقت المسموح به شرعاً في أخذ والحصول على الخلايا الجذعية واستخدامها للعلاج. مع الأخذ في الاعتبار أن من طرق الحصول على الخلايا الجذعية هي بإسقاط وإجهاض الجنين في مراحل تطوره قبل نفح الروح ولذا كان لزاما علينا معرفة الحكم الشرعي لهذه الحالات، ولذلك تطرقنا في هذا البحث إلى حكم الإجهاض في الدين الإسلامي وذكرنا أراء الفقهاء في هذا الباب وتطرقنا إلى حكم الإجهاض تبعاً للقاعدة الفقهية الضرورات تبيح المحظورات.

٣ـ أن العلم قد تطور وقدم للمجتمعات البشرية العديد من التسهيلات وعالج العديد من الصعوبات في شتى المجالات، في علم الطب وعلم الفلك وغيرذلك من العلوم، وإن هذا التطور قد سهل على الإنسانية العديد من الصعاب مثل وسائل التنقل ووسائل الاتصالات والطرق الحديثة المستخدمة في علاجات الأمراض مثل زراعة الأعضاء وغيرها من الوسائل المستخدمة في عصرنا هذا والتي لم تكن معهودة في أسلافنا وليس لها نص شرعي خاص أو مباشر في حكم استخدامها

والاستفادة منها ولم تذكر في المصنفات الفقهية القديمة، واستخدام الخلايا الجذعية في العلاجات تعتبر من العلوم الحديثة التي لم يتطرق لها الفقهاء القدامى وليس فيها نص شرعي على حكم استخدامها والاستفادة منها، ولذا رأينا من خلال هذا البحث أن نقدم فكرة عن هذه الخلايا وحكم استخدامها، وحكم استنساخ هذه الخلايا وحكم إصلاح أو استبدال جينات مسببة للمرض بجينات سليمة داخل هذه الخلايا في المراحل الأولى من تكوين الجنين.

٤- ومن الأسباب العلمية لاختيار لهذا البحث أن مراكز الأبحاث العلمية في محاولة لتكوين وبناء أعضاء الجسم مثل الكلى والبنكرياس وغيرها من الأعضاء باستعمال الخلايا الجذعية ثم زراعتها واستبدالها مكان أعضاء أخرى مريضة في جسم الإنسان، وهذا السبب جعلنا نتطرق إلى حكم تكوين وبناء هذه الأعضاء وحكم نقلها إلى جسم الإنسان.

الفصل الأول الخلايا الجذعية

• المبحث الأول التعريف بالخلايا الجذعية Stem Cells

الخلايا الجذعية هي البناء الأساسي والمنشأ الأساسي لكل خلايا وأجهزة وأعضاء الجسم ولها قدرات وميزات لاتوجد في أي خلايا أخرى حيث أنها لها القدرة على المحافظة على النوع بالتجديد ((الانقسام الفتيلي)) أي الانقسام إلى نفس النوع من الخلايا وكذلك لها القدرة على التمايز والانقسام إلى عدة أنواع أخرى من الخلايا، أي تكوين وتخليق كل الخلايا المتخصصة الأخرى الموجودة في الجسم التي يصل عددها إلى حوالي أكثر من ٢٢٠ نوع في جسم الإنسان البالغ مثل الخلايا العضلية والخلايا العظمية والخلايا الغضروفية والخلايا الشحمية والخلايا العصبية وغيرها من الخلايا. وتسمى بالخلايا الجذعية ، والخلايا الجذرية ، والخلايا الأرومية ، والخلايا الأولية ، والأساسية ، والمنشأ [١].

• المبحث الثاني كيفية تخليق أو تكوين الخلايا الجذعية الجنينيةEmbryonic stem cells

من المعروف أن مرحلة تكوين الجنين تبدأ باتحاد المشيجين أي اندماج واتحاد الحيوان المنوي الذكري بالبويضة الأنثوية حيث باتحادهما يكونان اللقحة Zygocyte ثم تبدأ اللقحة بالانقسام

---

(١) انظر المجلة العلمية Science بحث Jeffrey

الجزئي إلى اثنين ثم أربع ثم ثمانية وهكذا كل انقسام يتكون ينقسم إلى اثنان لمدة ٤-٥ أيام ثم بعد ذلك تتحول اللقحة إلى المرحلة التوتية Morula ثم الكيس الأرومية (البلاستيولا)Blastocyst والتي تحتوي على ٥٠-١٥٠ خلية وتتكون البلاستولا من طبقة خارجية من الخلايا المسؤولة عن تكوين المشيمة والأنسجة الداعمة الأخرى التي يحتاج إليها الجنين أثناء عملية التكوين في الرحم ، بينما الخلايا الداخلية يخلق الله منها أنسجة وخلايا الجسم الكائن الحي المختلفة. ومن ضمن الخلايا الداخلية ,الخلايا المتكتلة الداخلية Inner cell mass وهذه الخلايا المتكتلة الداخلية تنشق وتتكون منها الخلايا الجذعية الجنينية Embryonic stem cells وهذة المرحلة تعتبر هي المرحلة الأولى لتكوين الجنين (١).

قال الله تعالى في سورة الحج:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٢)}

وكما أشرت أن الخلايا الجذعية الجنينية لها القدرة على التمايز (متعددة القدراتPluripotent cells) أي أن لها القدرة على اشتقاق الطبقات الجرثومية الثلاثة (الخارجية والداخلية والوسطى (Ectoderm, Endoderm, Mesoderm) وهذه الطبقات الثلاثة هي التي تخلق وتكون كل أنواع الخلايا المتخصصة الموجودة في الجسم البالغ التي يصل عددها إلى أكثر من ٢٢٠ نوع من الخلايا التي تبني أجهزة وأعضاء الجسم .

فالطبقة الجرثومية الخارجية (Ectoderm (External Layer هي التي تخلق الأنسجة والخلايا السطحية للجسم مثل الجلد وخلايا الجهاز العصبي وغيرها والطبقة الجرثومية الداخلية ((Endoderm ((Internal Layer تخلق الأنسجة والخلايا الداخلية للجسم مثل الخلايا المبطنة للجهاز الهضمي وأنسجة وخلايا الغدد مثل البنكرياس والكبد وخلايا المثانة البولية وغيرها أما

(١) أنظر بحث Hardy (١٩٨٩)

(٢)سورة الحج آية رقم(٥)

الطبقة الوسطى ((Mesoderm ((Middle Layer فتخلق الأنسجة التي بين الطبقة الخارجية والداخلية مثل الأنسجة العضلية وكرات الدم الحمراء وغيرها من الخلايا المتخصصة والأنسجة [1]. ومن هذا نفهم أن الخلايا الجذعية الجنينية هي المنشأ الأساسي للكائن الحي وهي التي منها تتكون وتتخلق كل أجهزة وأعضاء الجنين وأي خلل في جينات هذه الخلايا ينتج عنه تشوه أو مرض للمولود الجديد. والخلايا الجذعية خلايا غير متخصصة وغير مكتملة الانقسام لا تشابه أي خلايا متخصصة في الشكل تحت المجهر. ولكنها قادرة على تكوين خلايا بالغة متخصصة بعد أن تنقسم في ظروف مناسبة داخل الرحم أو معملياً .

• المبحث الثالث أنواع الخلايا الجذعية

١ - الخلايا الجذعية الجنينية: (embryonic stem cells Pluripotent stem cells

يتم الحصول على هذا النوع من الخلايا في المرحلة الأولى لتكوين الجنين من بعد عملية الإخصاب في المرحلة التوتيةMorula ومن الجزء الداخلي للكيس الأرومية (البلاستيولا) Blastocyst. تفرز الخلايا الجذعية إنزيم تيلوميرز Telomerase الذي يساعدها على الانقسام باستمرار وبشكل نهائي. لها القدرة على التمايز أو التحول إلى جميع أنواع الأنسجة الموجودة في جسم الإنسان وبهذا يفضل استخدامها علاجياً بدل من الخلايا الجذعية البالغة. هذا النوع من الخلايا الجذعية أثارت جدلا واسعاً للعمل عليها في الأبحاث والتجارب والعلاجات[2].

٢ - الخلايا الجذعية البالغة : (Multipotent stem cells (Adult stem cells

هي خلايا جذعية توجد في الأنسجة وما بين الخلايا كالنخاع العظمي والرئة والدم والعضلات لكل من الأطفال والبالغيين على حد سواء. وهذه الخلايا مهمة لإمداد الأنسجة بالخلايا التي تموت لانتهاء عمرها المحدد في النسيج . توجد هذه الخلايا بكميات قليلة مما يجعل من الصعب عزلها وتنقيتها للاستفادة منها ، كما أن عددها قد يقل مع تقدم العمر بالإنسان. تفرز الخلايا الجذعية البالغة إنزيم تيلوميرز Telomeraseبكميات قليلة أو على فترات متباعدة مما يجعلها محدودة

---

(١) انظر بحث (٢٠٠٢) Draper والموقع الإلكتروني Stem cell information

(٢) انظر الموقع الإلكتروني Stem cell information موضوع What are embryonic stem cells

العمـر. إن هـذه الخلايـا ليـس لهـا نفـس القـدرة علـى التمايـز والتحـول إلـى جميـع أنـواع الأنسـجة كالخلايـا الجذعيـة الجنينيـة(١).

٣ - الخلايا الجذعية المستخرجة من دم الحبل السرى: Umbilical cord blood stem cells

إن الخلايـا الجذعيـة المسـتخرجة مـن دم الحبـل السـري هـي خلايـا أوليـة لدرجـة قد تسـاويها مـع الخلايـا الجذعيـة الجنينيـة وهـي تسـتخرج مـن الـدم المتبقـي فـى الحبـل السـري والمشـيمة للطفـل بعـد الـولادة وهـذا الـدم غنـي جداً بهـذا النـوع مـن الخلايـا. وهـذه الخلايـا الجذعيـة تسـتطيع التحـول إلـى أي نـوع مـن أنـواع الخلايـا الموجـودة فـى الجسـم عنـد إعطائهـا المنشـط المناسـب. وهـذا النـوع مـن الخلايـا مصـرح مـن هيئـات عالميـة للعمـل عليهـا فـي الأبحـاث والتجـارب والعلاجـات.

٤ - الخلايا الجذعية السرطانية :(Cancer stem cells (CSC

وهـي مـن أخطـر أنـواع السـرطانات حيـث أن العديـد مـن الأبحـاث تشـير إلـى أن هـذا النـوع مـن الخلايـا هـي السـبب فـي انتشـار وانتقـال السـرطان بيـن أنسـجة وأعضـاء الجسـم. وممـا يزيـد خطـورة هـذه الخلايـا أنهـا هـي السـبب فـي إعـادة نمـو الـورم بعـد عـلاج المريـض وشـفائه كليـاً مـن السـرطان.

٥ - الخلايا الجرثومية الجنينية : Embryonic germ cells

هـي خلايـا تنشـأ أو تنشـق مـن النسـيج الجنينـي فـي الأسـابيع الأولـى (٥- ١٠ أسـبوع) مـن تكويـن الجنيـن وبعـد هـذه الفتـرة فإنهـا تكـون غـدة جنسـية وبعدهـا تتطـور إلـى الخصيتيـن إن كان الجنيـن ذكـر أو مبيـض إن كان الجنيـن أنثـى. والخصيتـان همـا المسـؤلتان عـن إنتـاج الحيوانـات المنويـة عنـد الرجـال ولا تتوقـف عـن هـذا الإنتـاج مـن سـن البلـوغ حتـى الشـيخوخة ولذلـك ليـس للرجـال سـن اليـأس، أمـا المبيـض فهـو المسـؤل عـن إنتـاج البويضـات فـي الأنثـى. فعندمـا تكـون الأنثـى فـي رحـم أمهـا يكـون لديهـا مـا بيـن ٧ إلـى ٢٠ مليـون بويضـة وعنـد ولادة الأنثـى يبقـى لديهـا ٢ مليـون بويضـة، وينخفـض هـذا العـدد إلـى (٤٠٠,٠٠٠) أربعمائـة ألـف بويضـة تقريبـاً حتـى سـن البلـوغ، والمـرأة تحتـاج إلـى مـا يقـارب ٤٠٠ بويضـة فـي حياتهـا الإنجابيـة أى مـا بيـن سـن البلـوغ وسـن اليـأس ولذلـك تعتبـر البويضـات مـن أطـول خلايـا الجسـم عمـراً لأنهـا لا تنقسـم ولا تصلـح نفسـها إذا مـا حـدث لهـا تغيـر

(١) انظر الموقع الإلكتروني Stem cell information موضوعWhat Is an Adult Stem Cell

جيني. وكلا من الخلايا الجرثومية الجنينية والخلايا الجذعية لها القدرة على التمايز إلى أنواع أخرى من الخلايا ولكن هذا التمايز غير مطابق فالخلايا الجرثومية الجنينية إما أن تنتج حيوانات منوية أو بويضات أما الخلايا الجذعية فلها القدرة على التمايز إلى جميع أنواع أنسجة الجسم.

ومن الممكن الحصول على الخلايا الجذعية بالاسترجاع أي بمعالجة الخلايا المتخصصة مثل خلايا الجلد وتحويلها وإعادتها إلى جذعية. والأنواع الثلاثة الأولى من الخلايا الجذعية الهامة والتي يعمل عليها العلماء بكثرة في استخداماتهم والخلايا الجذعية الجنينية أثارت جدلا كبيراً في استخدامها في الأبحاث[1].

الفصل الثاني
طرق الحصول على الخلايا الجذعية وحفظها واستخداماتها

• المبحث الأول: طرق الحصول على الخلايا الجذعية

١- الخلايا الجذعية الجنينية :

لا يمكن الحصول على هذا النوع من الخلايا إلا بعد اتحاد المشيجين (اندماج الحيوان المنوي بالبويضة) ثم تنمو وتتطور لمدة مابين ٤-٥ أيام إلى أن تصل إلى المرحلة التوتية Morula والكيس الأرومية (البلاستيولا) والتي تحتوي بداخلها على الخلايا المتكتلة الداخلية Inner cell massوهذه الخلايا المتكتلة الداخلية تنشق وتتكون منها الخلايا الجذعية الجنينية Embryonic stem cells . بذلك يمكن الحصول على هذا النوع من الخلايا بأحد الطرق الآتية :

- o الإجهاض
- o عمليات الإخصاب الصناعي (أطفال الأنابيب)
- o الاستنساخ

في طريقة الإجهاض يتم الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية بإجهاض وإسقاط الجنين

(١)الموقع الإلكتروني Oogenic meiosis. Developmental و Wikipedia

بقصد في الأسابيع الأولى للإخصاب أو عند طريق سقوط الجنين بدون قصد أي حالة مرضية تتعرض لها الأم يؤدي إلى سقوط الجنين، وبتلك الحالتين يتم سحب الخلايا الجذعية الجنينية مباشرة بعد عملية الإجهاض ويتم حفظها. أما في الإخصاب الصناعي غالباً ما يتم إخصاب عدد كبير من البويضات وتنقل عادةً ثلاثة أجنة إلى رحم الأم في آن واحد وباقي البويضات المخصبة تحفظ لمدة حوالي خمس سنوات عند اللزوم ثم بعد ذلك يتم إتلافها والتخلص منها. ومن هذه البويضات التالفة يمكن الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية بإذن أو بدون إذن الوالدين، ثم يتم تنميتها في مزارع خلوية واستعمالها في الأبحاث والتجارب والعلاجات. فهي بذلك عبارة عن خلايا باقية زائدة غير مرغوب في إستعمالها للحمل وتكوين جنين ومصيرها الإتلاف. أما في طريقة الاستنساخ يتم نقل نواة الخلايا الناضجة (غير الحيوان المنوي) إلى بويضة مفرغة أو منزوعة النواة منها، أو نقل الكروموزومات (الصبغيات) من خلية إلى خلية جذعية أو إلى بويضة مفرغة، وتحت ظروف معملية خاصة تنمو وتتطور إلى المرحلة التوتية والكيس الأرومية (البلاستيولا) التي تحتوي بداخلها على الخلايا المتكتلة الداخلية التي تنشق وتتكون منها الخلايا الجذعية الجنينية. والهدف من هذه الطريقة ليس إنتاج كائن حي كامل، وإنما الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية لاستخدامها في الأبحاث والعلاج. وتمتاز هذه الطريقة بأن الخلايا الجذعية الناتجة ستطابق وراثيا (جنياً) مع الفرد الذي أخذت منه النواة أو الكرموزومات (الصبغيات) وزرعت في البويضة مما يحل مشكلة رفض الأنسجة من قبل الجهاز المناعي في حالة استعمالها للعلاج. كما تعتبر البويضة المخصبة من الخلايا الجذعية الأكثر بدائية والأكثر قدرة، إذ أن لديها القدرة على تكوين أي نوع من الأنسجة داخل الجسم.

٢- الخلايا الجذعية البالغة

يتم الحصول على الخلايا الجذعية البالغة إما من المشيمة أو من خلايا أنسجة البالغين كالنخاع العظمي والخلايا الدهنية وغيرها من الخلايا.

٣- الخلايا الجذعية المستخرجة من دم الحبل السري

طريقة الحصول على هذا النوع من الخلايا تُعد من أبسط الطرق وهي عملية آمنة، لا تسبب أى ألم للأم أو طفلها، تتم هذه العملية بعد انفصال الحبل السري تماماً عن الأم وطفلها

أو أثناء تواجد المشيمة بالرحم وذلك لضمان ضخ نسبه عالية من دم الحبل السري. وتتم عملية تجميع الدم عن طريق إبرة توضع فى وريد الحبل السري بالقرب من نهايته ويتم تجميعه فى كيس يحتوى على مضادات التجلط وهذه الطريقة مشابهه لطريقة سحب الدم من المتبرعين. وهناك أكثر من ١٠,٠٠٠ وحدة من دم الحبل السري محفوظه فى البنوك العامة والخاصة في جميع أنحاء العالم لاستخدامها فى المستقبل لعلاج الجنين.

٤- الخلايا الجرثومية الجنينية

حيث يتم عزل هذا النوع من الخلايا من الأجنة المجهضة غالباً بأخذ خلايا من الغدة المكونة للخصية أوالمبيض في الجنين لاحقا أو من البالغين من الخصية نفسها.

• المبحث الثاني: طريقة حفظ الخلايا الجذعية

بعد عزل الخلايا الجذعية الجنينية من الكيس الأرومية (البلاستيولا) والخلايا الجذعية البالغة من الأنسجة يتم زراعتها في وسط غذائي (Media) ليتم تنميتها وتكاثرها ثم يتم حفظها وتخزينها. والخلايا الجذعية المستخرجة من دم الحبل السري إما أن يتم حفظ الدم كاملا دون فصل الخلايا الجذعية وإما يتم فصل الخلايا الجذعية ثم حفظها وتخزينها منفصلة. وطريقة الحفظ تكون بعد تجميع الخلايا الجذعية يتم وضعها فى إمبولات خاصة تتحمل درجات البرودة المنخفضة جداً ثم تحفظ فى درجة -١٩٦ تحت الصفر درجة مئوية في وسط سائل النيتروجين. وفي هذا السائل يمكن حفظها لمدة طويلة تكون فيها صالحة للاستخدام. حتى الآن لايوجد تاريخ محدد تنتهي فيه صلاحيتها في هذه الدرجة المنخفضة من البرودة ولكن يمكن القول تحفظ لفترة لا تقل عن العشرين عاماً.

• المبحث الثالث: إستخدامات الخلايا الجذعية

- توصل العلم الحديث واستطاع خارج رحم الأم ((في المعامل)) أن يميز وينشئ من الخلايا الجذعية بعض أنواع من الخلايا المتخصصة مثل خلايا العظام والبنكرياس وخلايا الدم وخلايا عضلة القلب[1].

(١) انظر بحث Kaichi (٢٠١٠)

- لقد تم زراعة وتنمية الخلايا الجذعية حول أنبوب بلاستيكي ثم زراعة هذا الأنبوب جراحياً مكان الجزء المتلف والمصاب من القصبة الهوائية للمريضة[1].

- استطاع الباحثون باستخدامات الخلايا الجذعية إنتاج خلايا الدم وهذا مما يفتح في المستقبل الباب أمام إقامة بنوك للدم ليس بالتبرع من الأشخاص بل بتخليق وإنتاج الدم من الخلايا الجذعية.

- أثبتت الأبحاث إلى إمكانية تحويل الخلايا الجذعية إلى خلايا عصبية لمعالجة أمراض الدماغ ويحتمل بهذا توظيف الخلايا الجذعية كمصدر للخلايا العصبية.

- توصل العلماء باستخدام خلايا الدم الأولية (الجذعية) الموجودة بالنخاع العظمى لرجل إلى تحويلها إلى خلايا كبدية بعد زراعتها في امرأة، واكتشفوا بعد ذلك وجود خلايا كبدية ذكرية في تلك المرأة وهذا مما يساعد على علاج مرضى الكبد.

- توصلت الأبحاث العلمية إلى استبدال وتغير بعض الأعضاء المريضة بأعضاء سليمة ناتجة من الخلايا الجذعية في حيوانات التجارب.

- توصل الباحثون إلى إنشاء وبناء أسنان عن طريق الخلايا الجذعية في حيوانات التجارب[2].

- وكذلك توصلوا إلى غلق فجوة في جمجمة حيوانات التجارب عن طريق زرع الخلايا الجذعية بعد تحويلها إلى خلايا عظمية متخصصة.

- وفي الكائن البشري قد عالجوا بعض حالات سرطان الدم بنقل النخاع الشوكي لاحتوائه على الخلايا الجذعية البالغة Adult stem cells .

- عالجوا حالة ضمور في أنسجة عضلة القلب بزراعة خلايا جذعية بعد تحويلها إلى خلايا

---

(١) انظر بحث Bader (٢٠١٠)

(٢) انظر بحث Dadu (٢٠٠٩)

متخصصة لترميم وإعادة بناء العطب الموجود في أنسجة القلب [1].

- أقيمت عملية زراعة الخلايا الجذعية المستخرجة من دم الحبل السري لطفل مصاب بمرض ورم أرومة العصبية Neuroblastoma وتم علاجه منها.

- أثبت الباحثون أنهم قاموا بتحويل خلايا جذعية إلى كتلة خلايا بنكرياسية متخصصة (جزر لانجرهانز) تنتج الانسولين وهرمونات بنكرياسية وهذا مما يحدث ثورة في علاج مرضى السكر [2].

- يعتبر مرض الروماتيزم أكثر أمراض المناعة الذاتية حيث قام الباحثون بتحطيم جهاز المناعة المولد للأجسام المضادة التي تهاجم جسم الإنسان بالأدوية الكيمياوية وإعادة بنائه على أسس سليمه باستخدام الخلايا الجذعية وهذا يعتبر من استخدامات الخلايا الجذعية في الهندسة الوراثية وعلاج التهاب المفاصل.

- استطاع العلماء على الحصول على سن بديل في فم فأر التجارب، وذلك بزرع خلايا جذعية في حنك الفأر. وأكدوا أن هذه الأنسجة نمت بانتظام وكونت سناً متكاملة تعادل قوتها قوة الأسنان الطبيعية.

- لقد تم تحويل واسترجاع خلايا متخصصة بالغة إلى خلايا جذعية وهذه تعتبر عملية تميز أو تخصيص ارتجاعي.

- استعملت الخلايا الجذعية في مهاجمة خلايا سرطان الكلى بعد تثبيط الجهاز المناعي للمريض وحقنه بخلايا جذعية من أحد أشقاءه لأن غالباً ما تهاجم الخلايا الجذعية على الجسم بشكل عام وعلى الخلايا السرطانية بشكل خاص عند نقلها الى المصابين بأورام سرطانية.

- أقيمت عملية زراعة نخاع عظام معتمدة على الخلايا الجذعية المستخرجة من الحبل

---

(١) انظر بحث Wollert (٢٠١٠)

(٢) انظر بحث Hansson (٢٠١٠)

السري لطفل مصاب بمرض فقر الدم (متلازمة فنكونى) وأخرى لمصاب بسرطان دم مزمن وأظهرتا نجاحاً كبيراً[1].

- أثبتت الدراسات نجاح زراعة الخلايا الجذعية المستخرجة من دم الحبل السري لأقارب الطفل.

والأبحاث الطبية الحديثة في تفاؤل كبير من أن العلاج بالخلايا الجذعية سوف يغير ويأخذ مكاناً كبيراً في علاج العديد من الأمراض وبالأخص الأمراض المستعصية مثل السرطانات كسرطان الدم، وسرطان الغدد الليمفاوية، وسرطان الرئة وسرطان الثدي والرحم وغيرها من السرطانات، وأمراض الحبل الشوكي، وأمراض الدم كفقر الدم وأمراض الوراثة مثل أنيميا الخلايا المنجلية ومرض تالاسيمية بيتا، وأمراض القلب، والسكته الدماغية، وإصلاح جروح الحبل الشوكي، ومرض الشلل الرعاش، ومرض التصلُّب المتعدد وغيرها من الأمراض المزمنة والمستعصية. وتهدف الدراسات الحديثة إلى الاستفادة من الخلايا الجذعية لنمو أوعية دموية وإنتاج أعضاء معينة يمكن استبدالها بأعضاء مريضة في الجسم كالكبد والكلية. ومن الممكن خلال الأعوام القادمة سيتزايد استخدمات الخلايا الجذعية العلاجية.

بدأ الاهتمام والتركيز في مختلف أنحاء العالم على حفظ وإنشاء البنوك لحفظ الخلايا الجذعية المستخرجة من الحبل السري للاستخدامات العلاجية عند اللزوم، ومستقبلاً يحتمل أن يكون لكل مولود يولد خلايا جذعية محفوظة.

تعتبر الخلايا الجذعية الجنينية بسبب قدرتها الانقسامية اللامحدودة وتعدد خياراتها مصدراً كامنا للعديد من الأفكار في مجال الطب الاستبدالي واستبدال الأعضاء. ويعتقد العلماء أنه من الأفضل استخدام خلايا المنشأ المأخوذة من جسم المريض نفسه تجنباً لحدوث مضاعفات يسببها جهاز المناعة عندما يهاجم الأجسام الغريبة. ولكن تجارب الخلايا الجذعية من الأجنة البشرية أثارت جدلاً دينياً وأخلاقياً واسعاً خصوصاً من قبل الجماعات المناهضة للإجهاض والمحافظين. وهناك بعض الاختلافات الدينية في استخدام الخلايا الجذعية في الأبحاث والعلاج.

---

(١) انظر بحث Sahni (٢٠١٠)

الفصل الثالث

الاختلاف الديني في استعمال الخلايا الجذعية

منذ أن تم عزل وفصل الخلايا الجذعية وبدء استخدامها في الأبحاث والعلاجات والعديد من الديانات في قلق وتخوف من هذا التطور الذي يعبث بالحياة البشرية ويعتبرونه تدمير وتخريب للحياة البشرية وباستخدام وفصل الخلايا الجذعية الجنينية يعتبرونه نوع من القتل العمد وتعدي على حياة إنسان له نفس الحقوق البشرية مثل الإنسان البالغ وهذا التعدي يعتبر غير أخلاقي. ولذلك فإنهم يفضلون استخدام الخلايا الجذعية البالغة في الأبحاث والعلاجات عوضا عن الخلايا الجذعية الجنينية ومؤخراً العديد من المجموعات الدينية تساهم وتنفق على الأبحاث التي تستخدم الخلايا الجذعية البالغة وذلك لتقليل استخدام الخلايا الجذعية الجنينية. ولكن عزل ونمو الخلايا الجذعية الجنينية معمليًا أسهل من الخلايا الجذعية البالغة وكذلك تعتبر الخلايا الجذعية الجنينية طازجة وحديثة السن ولها قدرات على التمايز والتحول غير موجودة في الخلايا الجذعية البالغة.إن معظم طوائف المسيحية تعارض إجراء بحوث على الخلايا الجذعية من الجنين البشري من اليوم الأول للحمل. ولا تختلف الأديان السماوية الثلاث حول جواز استخدام الخلايا الجذعية من دم الحبل السري أو المشيمة أو نخاع العظام في البحوث.

-الكنيسة الأورتوتكس اليونانية والكاثوليكية الرومانية

لا تمانع هاتان الكنيستان من استعمال الخلايا الجذعية البالغة وتمنع استخدام الخلايا الجذعية الجنينية لأن حياة الإنسان عند هاتين الكنيستين تبدأ ببداية الحمل أي باتحاد المشيجين وهذا الجنين وإن كان في أول أيام التخليق إلا أن له نفس حقوق الإنسان البالغ[1].

-الكنيسة البروتيستانية

هذه الكنيسة لم يكن لها صوت موحد في استخدام الخلايا الجذعية وهذا الخلاف أدى إلى أن لكل دولة لديها رأي خاص بها في استخدام الخلايا الجذعية[2].

---

(١) انظر بحث Lori Knowles

(٢) انظر بحث Lori Knowles

-الكنيسة الكاثولوكية

هذه الكنيسة ضد استعمال واستخدام الخلايا الجذعية في الأبحاث لأنها تعمل على تدمير وقتل أجنة بشرية وتعتبر هذا يقود إلى عمليات الإجهاض(١).

-الديانة اليهودية

لا ترى أي مانع من استخدام الخلايا الجذعية الجنينية والبالغة في الأبحاث وفي العلاج إن كان الحصول على الخلايا قبل نفخ الروح في الجنين على ما تنص الشريعة اليهودية أي قبل واحد وأربعين يوما من الإخصاب على حسب رأي الديانة اليهودية، ويرون من الواجب مساعدة المرضى الذين يعانون من أمراضهم (٢).

-الدين الإسلامي

الدين الإسلامي هو الذي يهمنا في هذا البحث وهو الذي سوف نسلط الضوء عليه، إن مما عرفنا سابقاً أنه لا يمكن الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية إلا بعد اتحاد المشيجين (اندماج الحيوان المنوي بالبويضة) ثم نمو وتتطور الخلايا إلى أن تصل إلى المرحلة التوتية أو الكيس الأرومية، ولكن إذا كان الشرع يعتبر الجنين آدميًا في جميع مراحله من بعد اتحاد المشيجين فإن ذلك يكون قتلاً للجنين ويسد الباب تماماً في الانتفاع بالخلايا الجذعية، وأما إذا لم يكن الجنين آدميًا في مرحلة من مراحله أي قبل نفخ الروح فإن ذلك يفتح مجالا لتحقيق مصالح معتبرة وفتح مجال للبحث العلمي للوصول إلى علاج العديد من الأمراض المستعصية، ومن المعروف إن حقيقة الإنسان لم تتحدد بما يحتويه هيكله وجسده من مواد وعناصر مادية وإنما تتحدد بإسكان الروح فيه، وإن أبا البشرية سيدنا آدم عليه السلام لم يكتسب آدميته ولم يسجد الله له ملائكته إلا بعد أن نفخ فيه من روحه حيث قال الله تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِين)(٣) وبذلك إن التطور الذي يقع للجنين فإنه ينقله من حقيقة إلى أخرى فيصبح آدميا بعد أن ينفخ فيه

(١)أنظر بحث Lori Knowles

(٢)أنظر بحث Lori Knowles

(٣)سورة الحجر آية رقم (٩٢)

الـروح. إن الشـريعة الإسـلامية قـد حـددت أن الـروح تنفـخ فـي الجنيـن بعـد مائـة وعشـرين يومـا مـن تكونـه وإن هـذه الـروح هـي أصـل الحيـاة الإنسـانية وباتصـالهـا بـالجسـد الجنينـي يصبـح الجنيـن إنسـانا ويظـل كذلـك مـا دام جسـده وروحـه متحديـن. وقبـل الحديـث عـن حكـم اسـتعمال الخلايـا الجذعيـة يجـب معرفـة الحكـم الشـرعي فـي إسـقاط وإجهـاض الجنيـن لأن اسـتخدام بعـض الأنـواع مـن الخلايـا الجذعيـة مرتبـط بمعرفـة حكـم إجهـاض الجنيـن.

الفصل الرابع

حكم الإجهاض في الدين الإسلامي

لـم يـرد فـي الشـريعة الإسـلامية نـص مباشـر يـدل علـى الإجهـاض لا آيـة قرآنيـة ولا حديـث شـريف، ولكـن الـذي ورد فـي كتـاب الله علـى تحريـم قتـل النفـس بغيـر حـق حيـث قـال تعالـى {وَمَـن يَقْتُـلْ مُؤْمِنًـا مُّتَعَمِّـدًا فَجَـزَآؤُهُ جَهَنَّـمُ خَالِـدًا فِيهَـا وَغَضِـبَ اللَّهُ عَلَيْـهِ وَلَعَنَـهُ وَأَعَـدَّ لَـهُ عَذَابًـا عَظِيمًـا}[١] وورد عـن رسـول الله -صلـى الله عليـه وسـلم- فـي مراحـل خلـق الإنسـان، عـن الأعمـش عـن زيـد بـن وهـب عـن عبـد الله قـال: حدثنـا رسـول الله -صلـى الله عليـه وسـلم- وهـو الصـادق المصـدوق (إن أحدكـم يجمـع خلقـه فـي بطـن أمـه أربعيـن يومـاً، ثـم يكـون فـي ذلـك علقـة مثـل ذلـك، ثـم يكـون فـي ذلـك مضغـة مثـل ذلـك، ثـم يرسـل الله الملـك، فينفـخ فيـه الـروح، ويؤمـر بأربـع كلمـات.....) الـخ الحديـث[٢]. عـن سـليمان الأعمـش قـال: سـمعت زيـد بـن وهـب عـن عبـد الله قـال: حدثنـا رسـول الله -صلـى الله عليـه وسـلم- وهـو الصـادق المصـدوق قـال: (إن أحدكـم يجمـع فـي بطـن أمـه أربعيـن يومـاً، ثـم علقـة مثـل ذلـك، ثـم يكـون مضغـة مثـل ذلـك، ثـم يبعـث الله ملـكا فيؤمـر بأربعـة......) الـخ الحديـث[٣].

اتفـق الفقهـاء علـى تحريـم إسـقاط الجنيـن بعـد مـرور أربعـة أشـهر علـى تكوينـه، حيـث ينفـخ فيـه الـروح بعـد هـذه المـدة كمـا أخبـر -صلـى الله عليـه وسـلم- والجنيـن إذا نفـخ الـروح فيـه صـار نفسـاً آدميـة، ولا يحـل قتـل الآدمـي بغيـر سـبب شـرعي. واتفـق الفقهـاء علـى أن الإجهـاض قبـل تمـام الأربعـة أشـهر الأولـى لا يعـد إزهاقـاً لـروح آدمـي، ولا يعتبـر قتـلاً ولا نقـلاً مـن الحيـاة إلـى مـوت، وإن

(١)سورة النساء آية رقم (٣٩)

(٢)صحيح مسلم – كتاب القدر– حديث رقم ٦٧٢٣

(٣)صحيح البخاري– كتاب القدر – حديث رقم ٦٥٩٤

كان الإجهاض قبل تمام الأربعة أشهر الأولى حراماً، إنما هو إتلاف لشيء نافع وإن تحريمه أقل بكثير من إثم قتل النفس. وهذا اختلاف المذاهب الفقهية في إسقاط أو إجهاض الجنين قبل نفخ الروح أي قبل أربعين يوم من تكوين الجنين .

مذهب الحنفية

يرى معظم فقهاء هذا المذهب إلى إباحة الإجهاض قبل نفخ الروح بإذن صاحبي الحق (الزوج والزوجة)، والبعض يرى بالجواز مع الكراهية، والبعض الآخر يرى بتحريم الإجهاض لأن هذا الجنين أصل آدمي وإن كان قبل نفخ الروح [1].

مذهب الشافعية

إن القول المعتمد في هذا المذهب هو جواز الإجهاض مادام الجنين لم ينفخ فيه الروح، ويرى البعض بالكراهة تنزيهاً، والبعض يرى بالتحريم في أي مرحلة من مراحل الإجهاض، والعديد من فقهاء هذا المذهب ينصوا على جواز الإجهاض قبل نفخ الروح إذا كان الجنين ابن زنى [2].

مذهب المالكية

ذهب جمهور هذا المذهب إلى تحريم الإجهاض بعد استقرار المني في الرحم، ويرى البعض بالكراهية، وبعضهم يرى بإباحة الإجهاض قبل الأربعين ولاشيء فيه، والبعض رخص بالإجهاض إذا كان الجنين من الزنى وخاصة إذا خافت المرأة القتل بظهور الحمل [3].

مذهب الحنابلة

إن الراجح في هذا المذهب إباحة الإجهاض في الأربعين يوم الأولى للجنين ولا يجوز إسقاطه بعد الأربعين، والبعض يرى بالتحريم في جميع مراحل الجنين، والبعض الآخر يرى

---

(١) حاشية ابن عابدين ج٦ ص ٥٩٠-٥٩١، والمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - بحث حكم الإجهاض في الفقه الإسلامي

(٢) حاشية الجمل ج٥ ص٤٩١

(٣) فتح العلي ج١ ص٣٩٩، والمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - بحث حكم الإجهاض في الفقه الإسلامي، الفقه المالكي في ثوبه الجديد.

بإباحـة إسـقاط الجنيـن مطلقـاً قبـل نفـخ الـروح [1].

ومـن هنـا يتضـح أن الجنيـن الـذي نفـخ فيـه الـروح يحـرم إجهاضـه لأي عـذر سـوى عـذر واحـد وهـو إن كان بقـاءه سـوف يتسـبب فـي هـلاك الأم. وأمـا الإجهـاض قبـل نفـخ الـروح فالذيـن أباحـوا الإجهـاض مطلقـا لغيـر عذرلـم يكـن لديهـم دليـلاً يعتـد بـه إلا أن البعـض اسـتدلوا بـأن الجنيـن ليـس آدميـا. والذيـن أباحـوا الإجهـاض قبـل الأربعيـن يـوم كانـوا يعتقـدون أن الجنيـن لاينعقـد فـي هـذه المـدة ولكـن العلـم أثبـت أن إنعقـاد الجنيـن يحـدث فـي الأسـبوع الأول مـن اسـتقرار المنـي فـي الرحـم وكمـا عرفنـا سـابقاً أن الخلايـا الجذعيـة تتكـون فـي المـدة مـن ٤-٥ أيـام مـن اتحـاد المشـيجين (الحيـوان المنـوي بالبويضـة) وهنـا يعتبـر الجنيـن انعقـد وبـدأ فـي التطـور والنمـو، والإجهـاض قبـل نفـخ الـروح يجـب أن يخضـع لأعـذار وحاجـات بحيـث تسـقط عنـه الحرمـة ولا ينبغـي فتـح البـاب علـى مصراعيـه فـي إفسـاد وإتـلاف مـا هـو نافـع ومـا هـو أصـل ومؤهـل لأن يكـون آدميـا بمشـيئة الله [2]. وأحـد الطـرق للحصـول علـى الخلايـا الجذعيـة الجنينيـة يكـون بالإجهـاض فـي الأسـابيع الأولـى مـن عمليـة الإخصـاب وممـا عرفنـا سـابقا إن الإجهـاض قبـل نفـخ الـروح لايعتبـر إزهاقـاً لـروح آدمـي، لأن لا روح للجنيـن فـي هـذه المرحلـة والإجهـاض يجـوز إن كان لحاجـة ضروريـة، ومـن هنـا يطـرح سـؤال هـل يجـوز الإجهـاض فـي الأيـام الأولـى مـن تكويـن الجنيـن للانتفـاع بـه أو اسـتخدامه لإنقـاذ حيـاة بشـرية ثابتـة؟ إن البحـث العلمـي اليـوم فـي تقـدم واكتشـاف مسـتمر وسـريع وهـذا التقـدم مـن الممكـن أن يصـل إلـى اسـتخدام الخلايـا الجذعيـة الجنينيـة فـي عـلاج الأمـراض المسـتعصية والخطيـرة للوالديـن أو الأقـارب، ومـن الممكـن أن لا يتحقـق هـذا العـلاج إلا باسـتخدام خلايـا جذعيـة جنينيـة عـن طريـق الإجهـاض، إذن فـي هـذه الحالـة هـل هنـاك رخصـة فـي شـريعتنا الإسـلامية لإسـقاط الجنينـن فـي المراحـل الأولـى لتكوينـه والاسـتفادة منـه لعـلاج وإنقـاد حيـاة بشـرية ثابتـة بيقيـن كالأب أو الأم أو أحـد الأقـارب كالإخـوة؟

إن مـن القواعـد الفقهيـة الضـرورات تبيـح المحظـورات [3]، والضـرورة هـي (أن تطـرأ علـى

---

(١) المجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – بحث حكم الإجهاض في الفقه الإسلامي، وبحث حقيقة الجنين وحكم الإنتفاع به في زراعة الأعضاء والتجارب العلمية.

(٢) فتاوي مصطفى الزرقا–حكم الإجهاض برضا الزوجين وممارسة الطبيب له ص٢٨٤

(٣) شرح القواعد الفقهية– القاعدة العشرون ص١٨٥

وإشعاعات ومؤثرات خارجية عندما كان في الجسم. ولكن إن كان الهدف من هذه الطريقة ليس إنتاج كائن حي كامل، وإنما فقط الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية لاستخدامها في علاج الأم التي هي صاحبة البويضة المفرغة والحامض النووي DNAالذي زرع في البويضة، ثم يتم تنميتها وتحويلها إلى خلايا متخصصة مثل خلايا القلب أو الكبد أو البنكرياس ثم تستخدم لعلاج الأم، وهذه الطريقة تمتاز بأن الخلايا الجذعية الناتجة والخلايا التي تم تحويلها متطابقة جينياً مع جينات الأم وكذلك الأجسام المضادة لأنها هي صاحبة النواة والبويضة وهذا يحل مشكلة رفض الأنسجة من قبل الجهاز المناعي . كما تعتبر البويضة المخصبة من الخلايا الجذعية الأكثر بدائية والأكثر قدرة على التمايز، إذ لديها القدرة على تكوين أي نوع من الأنسجة داخل الجسم، فلذلك فإننا لا نرى أي مانع شرعي يمنع هذا النوع من الاستنساخ للحصول على الخلايا الجذعية الجنينية لاستخدامها للعلاج وبالأخص علاج الأم. وهذه الطريقة لا تؤدي إلى أعمال تتنافى مع مقاصد الشريعة، والأصل الجواز في استخدام الخلايا الجذعية الجنينية في العلاجات ما لم تستعمل في أغراض تتنافى مع مقاصد الشريعة وما دام مصدرها ليس محرَّماً.

الخلايا الجرثومية الجنينية التي يتم الحصول عليها وعزلها من الخصي والمبايض فهذا النوع من الخلايا يجوز استعمالها في الأبحاث والتجارب العلمية للوصول إلى نتائج وعلاج حالات العقم ومعرفة أسبابه ولكن يحرم شرعاً نقلها إلى مرضى العقم واستخدامها كعلاج بدل خلاياهم المريضة أو الضعيفة لأن هذا النوع من الخلايا تنمو وتتطور إلى عدة مراحل حتى تكون الحيوانات المنوية في الخصية، وبذلك تكون الصفات الوراثية لهذه الحيوانات المنوية تتبع الناقل منه (المتبرع) وليس الناقل له (المتلقي)، لأن عند نمو وتطور الخلايا من مرحلة إلى مرحلة فإن الصفات الوراثية (الجيناتDNA) تنتقل مع تطور الخلايا حتى تصبح حيوان منوي وبذلك تكون هذه الحيوانات المنوية حاملة الصفات الوراثية من الناقل (المتبرع) وهذا يؤدي إلى خلط الأنساب والشرع حرم كل ما يؤدي إلى نسبة الولد إلى غير صاحب المني أو غير صاحبة البيضة [١]. وكذلك الحال يحرم نقل المبيض أو البويضات من امرأة (متبرعة) وزرعها في امرأة أخرى وإن كانت المتبرعة جنين ساقط بالإجهاض. وكذلك لا يجوز الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية

(١)بحث إمكانية نقل الأعضاء التناسلية في المرأة- طلعت أحمد القصبي ص٤-٥.

واستخدامها إذا كان مصدرها محرَّماً مثل التلقيح المتعمد أي بأخذ بويضة من متبرعة وحيوان منوي من متبرع غير الزوجين ويتم إخصابهم معمليّا مثل أطفال الأنابيب.

الفصل السادس

الحكم الشرعي في العلاج الجيني للخلايا الجذعية

إن أي خلل في الحامض النووي DNAوالقواعد النتروجينية في الجينات المتحكمة في إنتاج البروتين يؤدي إلى مرض من الأمراض ولكن يعتبر الشخص حاملاً للمرض إذا كان لديه جين واحد مصاب والجين الآخر سليماً ، ويظهر المرض عندما يرث الشخص الجين المصاب من كلا الأبوين أو عندما يتزوج من امرأة حاملة بنفس الجين الذي فيه خلل فتكون نسبة ٢٥٪ من ظهور المرض في الذرية. وهناك العديد من الأمراض الوراثية تنتقل من أحد الأبوين عبر جين واحد.

العلاج الجيني هو إصلاح الخلل في الجينات المسببة للمرض، أو استئصالها وإستبدالها بجينات سليمه. والعلاج الجيني لا يكون عشوائي بل بطرق حديثة ودقيقة حيث يتم إستبدال أو إصلاح جين معين من بين الألاف من الجينات داخل الخلية. بما أن الخلايا الجذعية الجنينية تعتبر هي الأساس والمنشأ لكل كائن بشري لذلك سوف نتطرق في هذا الفصل إلى حكم العلاج الجيني للخلايا الجذعية الجنينية بعد الإخصاب أي بعد أن تتم عملية الإخصاب وتبدأ مرحلة تكوين الخلايا الجذعية إما داخل الرحم أو في أطفال الأنابيب. إن للعلاج الجيني والهندسة الوراثية دوراً كبيرا في منع الكثير من الأمراض الوراثية متوقع حدوثها والإقلال منها. ولكن لا بد قبل أن نشرع في هذا النوع من العلاج أن نتأكد من أن العلاج الجيني لا يؤدي إلى تغير أو التأثير في خلقت وشكل الجنين مستقبلا وكذلك لا يؤثر في البنية الجينية والسلالة الوراثية بل فقط إصلاح الخلل الموجود في الجين المطلوب إصلاحه لأن ذلك ربما يؤدي إلى تغير خلق الله.

• المبحث الأول الحكم الشرعي للعلاج بصفة عامة

الحكم الشرعي في تعديل وإصلاح جينات الخلايا الجذعية الجنينية بعد عملية الإخصاب.
إذا كان هناك خلل جيني في جينات الجنين وهذا الخلل يؤدي إلي إصابة المولود بمرض أو ظهور تشوهات خلقية في جسده فهل من الممكن شرعا تعديل وإصلاح الخلل الجيني باستبداله

بجين آخر من متبرع؟ قبل الشروع في معرفة الحكم الشرعي للعلاج الجيني للخلايا الجذعية يجب أن نعرف الحكم الشرعي في العلاج بصفة عامة. اختلف الفقهاء في حكم العلاج بصفة عامة على حسب الأحكام التكليفية الخمسة (الوجوب، والندب، والتحريم، والكراهة، والإباحة). فيكون العلاج واجباً إذا كان المرض معديا تبعاً للقاعدة الفقهية (لا ضرر ولا ضرار) [1] وكذلك يكون واجباً إذا ترتب على عدم العلاج هلاك النفس. ومادام العلاج واجباً فيكون تركه حراماً عند الضرورة. ويكون مستحباً إذا كان العلاج مظنون الشفاء وليس يقين، ويكون العلاج مباحا ً إذا كان العلاج لا يجدي نفعاً. ومن هنا يجب القول بأن العلاج سبب من الأسباب يجب الأخذ به كما يؤخذ بالأسباب في كل الأمور الأخرى، وتركه يكون محرماً إذا ترتب عليه ضرر أو هلاك النفس. وتعتبر الأمراض الوراثية شبيهة بالأمراض المعدية من حيث انتقالها أي تنتقل من جيل إلى جيل وراثياً. وهناك العديد من العائلات قد حرموا من نعمة الأطفال بسبب الأمراض الوراثية لأن بعض الأنواع من الأمراض الوراثية تتسبب في وفاة الجنين في مراحل تكونه المبكرة في الرحم والبعض تتسبب في وفاته في مراحل مبكرة بعد الولادة. والأسوأ من ذلك أن هناك العديد من الأسر تعاني من أمراض وتشوهات خلقية في أطفالها، ففي بعض العائلات كل أطفالهم ولدوا مصابين بعاهات وأمراض وتشوهات خلقية سببها أمراض وراثية. وتعتبر نعمة الأطفال من الضروريات وكذلك ولادتهم أصحاء معافين تعتبر من الضروريات بل من الواجب حيث أن في بعض حالات الحمل يطلب الأطباء بإسقاط الجنين بسبب ظهور تشوهات خلقية في الجنين أثناء الحمل. ويعتبر هذا النوع من الأمراض التي تنتشر تدريجياً داخل المجتمع إلى أن تؤثر في المجتمع كاملاً ففي بعض المجتمعات المنغلقة والدول تجد أن أغلب سكانها حاملين لجين معين يحدد أشكالهم وألوانهم والبعض منهم حاملين لأمراض لاتظهر في أقرانهم وبني مجتمعهم ولكن إذا خرجوا وتزوجوا من مجتمعات أخرى ظهرت هذه الأمراض وانتشرت. إن الاستفادة من علم الهندسة الوراثية والعلاج الجيني في الوقاية من الأمراض أو العلاجات، أو تخفيف بعض الأضرار يكون واجباً في بعض الحالات بشرط أن لا يترتب على ذلك ضرر أكبر أو حدوث تغير آخر أو خلل آخر في جين آخر داخل الخلية. فإذا أثبت العلم أن هناك طرق حديثة ودقيقة في علاج جين معين مصاب داخل الخلايا الجذعية فيكون جائز شرعاً من استخدام هذه التقنية في

(١)شرح القواعد الفقهية- القاعدة الثامنة عشرة ص١٦٥

العلاج والتقليل من العديد من الأمراض المستعصية التي تعاني منها العديد من الشعوب والأسر. فالشريعة الإسلامية مبنية على تحقيق المصالح ودرء المفاسد ويعتبر هذا النوع من العلاج من درء المفاسد وتحقيق الضروريات والعمل بالواجب وترك الحرام. فمن درء المفاسد التقليل من الأمراض والقضاء عليها، ومن تحقيق الضروريات هو التمتع بنعمة الأطفال أصحاء معافين من الأمراض والتشوهات، ومن العمل بالواجب وترك الحرام هو الأخذ بالأسباب للعلاج والشفاء من الأمراض وعدم نقل هذه الأمراض إلى الأجيال التالية.

- **المبحث الثاني الحكم الشرعي في نقل وتبديل جين من متبرع إلى الخلايا الجذعية الجنينية**

بعد أن عرفنا حكم العلاج وحكم العلاج الجيني يبقى تساؤل هل يجوز شرعاً نقل وتبديل جين سليم من متبرع إلى خلايا جذعية جنينية التي هي المنشأ والأساس في تكوين كل أجهزة وأعضاء الجسم مع العلم بأن هذا الجين سوف ينتقل إلى الأجيال التالية؟.

إن في مثل هذا النوع من العلاجات ينتقل الجين من المتبرع إلى الأبناء والذرية وهذا الجين ليس من الوالدين، وهنا تظهر علامات الاستفهام وتقع احتمالات عدم شرعية هذا العلاج لما فيه من تغير البنية الجينية والسلالة الوراثية. ولكن نقول هذا يعتمد على نوع الجين ووظيفته. فإن كان الجين المنقول من المتبرع مسؤول على إصلاح خلل ما في أحد أعضاء الجسم مثل القلب أو الكبد أو إصلاح التشوهات الخلقية للجنين والأجيال التالية ففي هذه الحالة هذا النوع من العلاج يأخذ نفس حكم نقل الأعضاء. ولكن إذا أدى هذا العلاج الجيني إلى تغير أو تأثير على الأجهزة التناسلية فهنا تقع الحرمة وعدم الإباحة لأنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب أو تغير جنس المولود (١). وكذلك تقع الحرمة والمنع من استخدام هذه التقنية إذا أدى هذا العلاج إلى استبدال ونقل العديد من الجينات من المتبرعين مما يؤدي إلى تغير البنية الجينية والسلالة الوراثية وهذا يؤدي إلى ظهور جيل تختلف صفاته الوراثية عن الصفات الوراثية للآباء وهذا يعتبر من تغيير خلق الله حيث قال تعالى (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) (٢). فالمانع الشرعي يكون مع الضرر المحقق، والجواز يكون مع المصلحة ودرء المفسدة. ولكن إذا لم يؤدي هذا العلاج إلى تغير في

---

(١)بحث العلاج الجيني من منظور الفقه الإسلامي – أ.د علي محي الدين القرهداغي

(٢)سورة النساء الأية (١١٩)

البنيـة الجينيـة والسـلالة الوراثيـة ولـم يؤثـر فـي الأجهـزة التناسـلية للجنيـن والأجيـال اللاحقـة وكذلـك لـم يتسـبب فـي ضـرر أكبـر أو تغيـر خلقـة الجنيـن فإنـا لانـرى مانعـاً شـرعياً يمنـع هـذا النـوع مـن العـلاج الـذي فيـه دفـع المفاسـد وتحقيـق مصالـح معتبـرة، وحفـظ النفـس والنسـل والاهتمـام بالصحـة. ويجـب أن تكـون المنافـع المتوخـاة مـن العـلاج محققـة ونسـبة نجاحهـا كبيـرة ، أمـا إذا كانـت مشـكوكاً فيهـا أوموهومـة فـلا يجـوز إجـراؤه علـى الإنسـان.

الفصل السابع

حكم استخدام الخلايا الجذعية لبناء الأعضاء وحكم نقل الأعضاء

• المبحث الأول: علاقة الخلايا الجذعية بالأعضاء

إن السـبب مـن تعرضنـا إلـى حكـم نقـل الأعضـاء فـي بحـث الخلايـا الجذعيـة هـو أن مراكـز الأبحـاث العلميـة فـي تسـابق ومحاولـة لتكويـن وبنـاء أعضـاء جسـم إنسـان كاملـة باسـتعمال الخلايـا الجذعيـة. عرفنـا ممـا سـبق إن البحـوث العلميـة قـد توصلـت إلـى تحويـل الخلايـا الجذعيـة إلـى خلايـا كبديـة وخلايـا بنكرياسـية متخصصـة (جـزر لانجرهانـز) تنتـج الانسـولين وتوصلـوا إلـى إنشـاء أسـنان عـن طريـق الخلايـا الجذعيـة وكذلـك تـم الحصـول علـى سـن متكاملـه قوتهـا تعـدل قـوة الأسـنان الطبيعيـة فـي حنـك فـأر بعـد زراعـة الخلايـا الجذعيـة. إن هـذه مؤشـرات تشـير إلـى أنـه مـن الممكـن بنـاء وتكويـن أعضـاء جسـم إنسـان كاملـة مثـل الكبـد والكلـى والبنكريـاس بتنميـة وتطويـر الخلايـا الجذعيـة معمليـا ثـم زراعـة هـذه الأعضـاء واسـتبدالها مـكان أعضـاء أخـرى مريضـة فـي جسـم إنسـان مريـض. وإذا توصـل العلـم إلـى هـذا التقـدم فإنـه سـوف تكـون هنـاك نقلـة طبيـة كبيـرة فـي عـلاج العديـد مـن الأمـراض ومـن المحتمـل سـيكون هنـاك مصـارف ومراكـز لإنتـاج أعضـاء جسـم الإنسـان باسـتخدام الخلايـا الجذعيـة. وفـي هـذه الحالـة مـا حكـم تكويـن هـذه الأعضـاء ومـا حكـم نقلهـا إلـى جسـم إنسـان مصـاب؟. ولهـذا يجـب معرفـة حكـم التبـرع بالأعضـاء والاسـتفادة منهـا.

• المبحث الثاني: حكم التبرع بالأعضاء الآدمية والاستفادة منها

ليـس هنـاك نـص شـرعي خاصـة أو مباشـر فـي حكـم التبـرع بالأعضـاء الآدميـة، ولايـكاد أن يكـون فـي المصنفـات الفقهيـة القديمـة نصـوص تناولـت أحـكام نقـل وزراعـة الأعضـاء والانتفـاع بهـا.

وورد عنهم التشديد والمنع من التصرف بأجزاء الإنسان حال حياته أو بعد مماته ومن خلال عباراتهم تستفاد أن الانتفاع بأجزاء الإنسان حرام وذلك لكرامته. فورد عنهم عدم جواز بيع شعور وعظام الإنسان وعدم بيع لبن الآدمي لأنه جزء من الآدمي [١]، وجميع أجزاء الآدمي محترم ومكرم. وقد حرموا بيع العضو المقطوع من الإنسان وحرموا أن يقطع الإنسان شيئا من أعضائه ويعطيها للمضطر ليأكلها لينقذ نفسه من الهلاك. وورد عن الفقهاء استثناءات أباحوا فيها الانتفاع بأجزاء جسم الإنسان وهذه الاستثناءات مقيدة بالضرورة، ففقهاء المالكية والشافعية والحنابلة أجازوا بيع لبن المرأة. وأباح فقهاء الشافعية والحنابلة للمضطر أن يأكل من بدن إنسان مستحق القتل كالمرتد والزاني المحصن. وأباح فقهاء الشافعية للمضطر أن يقطع جزء من نفسه ليأكلها وذلك لإتلاف البعض لاستبقاء الكل [٢]. فورد عن فقهاء الشافعية وبعض الحنابلة عن جواز الأكل من جثة الإنسان الميت للمضطر، وورد عن جمهور الفقهاء إلى جواز شق بطن الميت لاستخراج مبلغ من المال المعتبر أو استخراج جنين ترجى حياته، وكذلك ورد عن الشافعية إلى جواز جبر عظم الإنسان الحي بعظم إنسان ميت [٣]. إن السبب في تشديد الفقهاء القدامى هو ما جعله الإسلام للإنسان من كرامة وحرمة. ويرى الكثير منهم أن هذه الكرامة والحرمة تتفاوت بين الإنسان الحي والميت، وعبروا بأن حرمة الحي أعظم من حرمة الميت. والاستثناءات كانت مبنية على قاعدة شرعية ارتكاب أخف الضررين لدفع أشد الضرر. ويلاحظ في رأي الفقهاء القدامى واجتهادهم في استنباط الأحكام كان محكوما على الذي توصل إليه علم الطب في عصرهم في التشخيص والعلاج . وإن نتائج التشخيص والعلاج في عصرهم كانت غير يقينية أو قريبة من اليقين في تقدير أضرار الأمراض أو تقدير الآثار الجانبية عن العمليات الجراحية، وهذا التقدير والنتائج المظنونة قد أثرت على ثقة الفقهاء في التشخيصات الطبية في عهدهم وكان لهذا أثره على الأحكام المستنبطة في الانتفاع بالأعضاء الآدمية والاستفادة منها. وإن الفقهاء القدامى لم

(١) بنوك الحليب وعلاقته بأحكام الرضع – د.محمد الهواري، بنوك اللبن (الحليب) – الشيخ يوسف القرضاوي

(٢) حكم التبرع بالأعضاء في ضوء القواعد الشرعية والمعطيات الطبية– د.نعيم ياسين ، حكم نقل الأعضاء من الحيوان إلى الإنسان – د.عبدالرحمن بن حسن النفيسة

(٣) حكم نقل الأعضاء من الحيوان إلى الإنسان و حكم من يبيع أحد أعضائه بحجة حاجة إلى إطعام نفسه ومن يعول–د.عبدالرحمن بن حسن النفيسة، حكم التبرع بالأعضاء في ضوء القواعد الشرعية والمعطيات الطبية و حقيقة الجنين وحكم الإنتفاع به في زراعة الأعضاء والتجارب العلمية – د.نعيم ياسين، حاشية ابن عابدين ج٣ ص١١٥

الإنسان حالة من الخطر أو المشقة بحيث يخاف حدوث ضرر أو أذى بالنفس أو بالعضو أو بالعرض أو بالعقل أو بالمال ويتعين أو يبيح عندئذ ارتكاب الحرام أو ترك الواجب أو تأخيره دفعا للضرر عنه ضمن قيود الشرع)، ولقد أباحت شريعتنا الإسلامية أكل الحرام كالميتة وشرب الخمر عند الضرورة، وأباحت للصائم أن يفطر إن خاف على نفسه الهلاك. وإنقاذ حياة بشرية تُعد ضرورة شرعية تبيح الإجهاض في الأسابيع الأولى بالنسبة للمذاهب التي لا ترى بتحريم الإجهاض قبل نفخ الروح، ومما عرفنا سابقا أن أغلب آراء المذاهب الفقهية لاتحرم الإجهاض قبل نفخ الروح وبالأخص إن كان لحاجة ضرورية، وإنقاذ حياة بشرية ثابتة بيقين تعتبر من الضروريات. والإجهاض في هذه الفترة للاستفاده من الخلايا الجذعية الجنينية لإنقاد حياة أحد الوالدين لايعتبر قتل نفس لإحياء نفس أخرى، لأن حياة الأم أو الأب تعتبر نفس معصومة ثابتة بيقين وهي الأصل، أما الجنين قبل نفخ الروح لا يعتبر نفس لأنه مخلوق مجرد عن الروح، وإن سقط لوحده فإنه لايغسل ولايصلى عليه، وبذلك فهو مخلوق ليس له دمة كاملة. وبما أن هذا الإجهاض يعتبر إفساد وإتلاف إلا أن الإتلاف يختلف حكمه باختلاف المتلف، فقد يكون واجباً كإتلاف المحرم استعماله أو ضاراً كالخمر، وقد يكون محرماً إن كان المتلف نافعا إلا لضرورة، وعلاج نفس بشرية تعتبر من الضروريات. ولكن يجب الأخذ بالاعتبار أن يكون علاج واستخدام هذه الخلايا محققاً طبياً لا أن يفتح باباً للعبث بمخلوق مؤهل لأن يكون آدميا وإن الأصل هو تحريم الإجهاض قبل نفخ الروح ولكنه تحريم غير مطلق وإنما يخضع لقاعدة الضرورات، وقاعدة الأخذ بأعظم المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين. وهذا التحريم ليس كتحريم الإجهاض بعد نفخ الروح الذي هو تحريم مطلق لا يخضع لقاعدة الضرورة. ونرى أن إسقاط الجنين في المراحل الأولى لتكوينه للاستفادة منه يجب أن يكون مشروطاً ببعض الشروط منها تحقيق مصلحة معتبرة ومؤكدة طبياً للآدمي الذي ستنقل له هذه الخلايا كذلك يجب أخذ موافقة الأبوين على الإجهاض واستعمال الخلايا ومن الشروط أن لا توجد طريقة أخرى لتحقيق هذه المصلحة التي من أجلها تتم عملية الإجهاض، والشرط الآخر أن لا تستعمل هذه الخلايا لزراعتها أو لتكوين وزراعة أحد الأجهزة التناسلية (الخصية أو المبيض) لأن هذا يؤدي إلى اختلاط الأنساب وأن الخلايا الجذعية المنقولة تحتفظ بصفاتها الوراثية (الحامض النووي DNA) من الناقل (الجنين).

الفصل الخامس

حكم استخدام الخلايا الجذعية في الدين الإسلامي

قد ذكرنا سابقا أن الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية يكون بالإجهاض أو من اللقائح الزائدة لأطفال الأنابيب أو عن طريق الاستنساخ، وقد تطرقنا إلى الحكم الشرعي في عملية الإجهاض التي تدور حولها الشبهات والخلافات من الناحية الشرعية، أما بالنسبة للخلايا الجذعية الجنينية المتحصل عليها عن طريق اللقائح الزائد لأطفال الأنابيب أو عن طريق الاستنساخ فالأصل فيها الجواز في استخدامها في الأبحاث العلمية أو العلاجات التي لا تؤدي إلى اختلاط الأنساب أو أعمال تتنافى مع مقاصد الشريعة، لأن استعمال هذا النوع من الخلايا ليس فيه لا إفساد ولا إتلاف ما هو نافع ولم يكن حصولها عن طريق الإجهاض بل هي خلايا باقية زائدة غير مرغوب في استعمالها ومصيرها الإتلاف، ولدى استخدامها في ما هو نافع ومعتبر يكون أولى من إتلافها. وكذلك الخلايا الجذعية البالغة والمستخرجة من دم الحبل السري والخلايا الجذعية السرطانية فكل هذه الأنواع من الخلايا الأصل فيها الجواز في استخدامها في الأبحاث العلمية أو العلاجات مالم تستعمل في أغراض تتنافى مع مقاصد الشريعة ويفضل أخذ الإذن من الوالدين قبل استخدامها.

وبالنسبة للخلايا الجذعية الجنينية المتحصل عليها عن طريق الاستنساخ فإن المجمع الفقهي الإسلامي في دورته السادسة المنعقدة بجدة في مارس ١٩٩٠م يمنع طريقة الاستنساخ للحصول على الخلايا الجذعية الجنينية[١]. ومن هذا نقول إن كان المجمع الفقهي منع هذا النوع من الاستنساخ لعدم التلاعب بالحياة البشرية وذلك بزرع هذه البويضة في رحم الأم وتركها حتى تتطور وتنمو لتكون جنين مثل ما حدث في عملية استنساخ النعجة دوللي Dolly فيكون من الواجب المنع والتشديد على مثل هذا النوع من الاستنساخ لإنه يؤدي إلى ظهور أطفال حديثي العمر بهيئة الشيخوخة وتكون أعمارهم قصيرة لأن الحامض النووي DNA الذي زرع في البويضة من خلايا الجسم الناضجة، وكذلك هذا النوع من الاستنساخ يؤدي إلى ظهور جيل ربما يكون مشوهاً و مريضاً لأن الحامض النووي DNA الذي زرع قد تعرض لمواد كيماوية

(١) استخدام الأجنّة مصدراً لزراعة الأعضاء – مجلس مجمع الفقه الإسلامي

يكن لديهم أي افتراض أو تخمين على الذي وصل إليه الطب في الوقت الحاضرمن عمليات زرع الأعضاء وكيفية الاستفادة منها، وكم من المرضى قد أوشكوا على الهلاك وقد تعافوا وشفوا من أمراض مزمنة وخطيرة بزراعة عضو من إنسان حي أو ميت. إن الفقهاء القدامى كانوا منطقيين في استنباطهم الإحكام بالانتفاع من الأجزاء الآدمية على حسب معارفهم الطبية في ذلك الوقت. ولذلك لايصح خضاع -اجتهاد الفقهاء القدامى في مسألة الانتفاع والتبرع بالأعضاء في هذا الزمن. وكما ذكرنا سابقا سبب منع الفقهاء القدامى الانتفاع بأجزاء الإنسان هي كرامة وحرمة الإنسان ولكن الذي توصل له الطب الحديث في هذا الزمن من زراعة الأعضاء ونقلها من إنسان مكرم حي أوميت إلى إنسان آخر مكرم كانت حياته مهددة بالهلاك لاتتنافى هذه المنفعة مع الكرامة الإنسانية، بل هي نقل عضو من جسد إنسان إلى جسد إنسان آخر ليؤدي نفس الوظيفة ويكون سبباً في إنقاذ حياته بإذن الله. وإن نقل الأعضاء من إنسان إلى آخر ليس فيها إتلاف لا للأعضاء ولا لأصحاب الأعضاء، بل هو أخذ أو نقل عضو ثنائي في الجسم دون أن يترتب عليه وفاة المتبرع أو تعرضه للهلاك أو يفقد المتبرع وظيفة هذا العضو، وترتب على هذا النقل إنقاذ حياة بشرية ثابتة بيقين. وبناء على ماتقدم يجوز نقل وتبرع عضو غير وحيد من إنسان إلى آخر دون أن يتسبب في وفاة المتبرع أو تعطل وظيفة أساسية في جسم المتبرع مثل أن يتبرع الإنسان بلسانه أو قلبه أو البنكرياس. ويجوز التبرع والإستفادة من أجزاء الآدمي ما لم تتسبب في اختلاط الأنساب مثل التبرع بالخصية أو المبيض، ويجب مراعاة والتأكد من نجاح هذه العملية والاستفادة منها وأن النفع المتوقع يكون أرجح من الضرر المترتب.

المبحث الثالث: حكم استخدام الخلايا الجذعية لبناء الأعضاء ونقلها

ما دام يجوز التبرع والاستفادة من الأجزاء الآدمية ونقل الأعضاء من إنسان إلى آخر لإنقاذ حياته من الموت، فإن بناء وتكوين أعضاء آدمية باستخدام الخلايا الجذعية يكون من باب أولى. فإن بناء وتكوين أعضاء آدمية باستخدام الخلايا الجذعية لايترتب عليه أي ضرر لا على المتبرع ولا المتبرع له. وإذا تحقق هذا التقدم العلمي في استخدام الخلايا الجذعية لزراعة الأعضاء فإنه سوف يحل مشكلة رفض الأنسجة من قبل الجهاز المناعي بالنسبة للمتبرع له، لأن

مـن الممكـن اسـتخدام خلايـا جذعيـة مـن المريـض نفسـه لتكويـن وبناء عضـو وزراعتـه لنفس المريض.

إن نعمـة الأطفـال مـن نعـم الله علينـا وهـي مـن الضـروريـات والعـلاج مـن الأمـراض التناسـلية تعتبـر مـن الواجبـات لحفـظ النسـل وحفـظ النـوع، وبهـذا التقـدم سـيكون هنـاك حـل وعـلاج العديـد مـن أمـراض العقـم باسـتخدام الخلايـا الجذعيـة لبنـاء وتكويـن أعضـاء وأجهـزة تناسـلية مثـل الخصيـة وزراعتهـا لنفس صاحـب الخلايـا الجذعيـة وهـذا النـوع مـن النقـل لا يـؤدي إلـى اختـلاط الأنسـاب لأن المتبـرع بالخلايـا الجذعيـة هـو نفسـه المتبـرع لـه بالعضـو. وبنـاء علـى مـا تقـدم فإنـه يجـوز اسـتخدام الخلايـا الجذعيـة لبنـاء وتكويـن أجـزاء وأعضـاء آدميـة وزراعتهـا للعـلاج أو بـدل عضـو متلـف وبالأخـص إن كان المتبـرع بالخلايـا الجذعيـة هوالمتبـرع لـه.

ملخص البحث

١- الخلايا الجذعية هي البناء الأساسي والمنشأ الأساسي لكل خلايا وأجهزة وأعضاء الجسم.

٢- تبدأ تكوين الخلايا الجذعية الجنينية في مرحلة الكيس الأرومية من تكوين الجنين.

٣- الخلايا الجذعية الجنينية لها القدرة على اشتقاق الطبقات الجرثومية الثلاثة.

٤- الخلايا الجذعية لا تشابه أي خلايا متخصصة في الجسم.

٥- أنواع الخلايا الجذعية

أ - الخلايا الجذعية الجنينية

ب - الخلايا الجذعية البالغة

ت - الخلايا الجذعية المستخرجه من دم الحبل السري

ث - الخلايا الجذعية السرطانية

ج - الخلايا الجرثومية الجنينية

٦- تحفظ الخلايا الجذعية تحت درجة البرودة حوالي -١٩٦ تحت الصفر.

٧- باستخدام الخلايا الجذعية تم تكوين خلايا متخصصة، إنتاج خلايا الدم، بناء أسنان، علاج حالات سرطان الدم، وضمور في أنسجة عضلة القلب.

٨- تهدف الدراسات الحديثة إلى علاج الأمراض المستعصية وإنتاج أعضاء واستبدالها بأعضاء مريضة باستخدام الخلايا الجذعية.

٩- بدأ إنشاء بنوك لحفظ الخلايا الجذعية لاستخدامها للعلاج عند اللزوم.

١٠- اختلفت الأديان السماوية حول استخدام الخلايا الجذعية فالكنيسة الأورتوتكس والكاثوليكية تمنع استخدام الخلايا الجذعية الجنينية، والكنيسة البروتيستانية في خلاف في استخدامها، والديانة اليهودية لا تمانع من استخدام كل أنواع الخلايا الجذعية.

١١- اتفق الفقهاء على تحريم إسقاط الجنين بعد نفخ الروح، واختلفت قبل نفخ الروح، فالراجح عند مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة إباحة الإجهاض والراجح عند المالكية التحريم بعد النفخ.

١٢- الإجهاض قبل نفخ الروح يعتبر من أحد الطرق للحصول على الخلايا الجذعية الجنينية وعند الضرورة باستخدام هذه الخلايا لإنقاذ حياة بشرية ثابتة بيقين يجوز إسقاط الجنين قبل نفخ الروح .

١٣- جواز استخدام الخلايا الجذعية الجنينية المتحصل عليها عن طريق اللقائح الزائدة في الأبحاث العلمية أو العلاجات إذا استعملت في أعمال لا تتنافى مع مقاصد الشريعة.

١٤- جواز استخدام الخلايا الجذعية البالغة والخلايا الجذعية السرطانية في الأبحاث العلمية أو العلاجات مالم تستعمل في أغراض تتنافى مع مقاصد الشريعة.

١٥- جواز استخدام الخلايا الجذعية الجنينية المتحصل عليها عن طريق الاستنساخ في العلاج الأم إذا كانت هي صاحبة البويضة المفرغة والحامض النووي DNA .

١٦- يجوز استعمال الخلايا الجرثومية الجنينية في الأبحاث والتجارب العلمية ويحرم شرعا نقلها

إلـى مـرض العقم واسـتخدامها كعـلاج.

١٧- لا يجوز استخدام الخلايا الجذعية الجنينية إذا كان مصدرها محرَّماً.

١٨- يجوزتعديل وإصـلاح جينـات الخلايـا الجذعيـة الجنينيـة بعـد عمليـة الإخصـاب إذا أثبـت العلـم دقـة هـذا النـوع مـن العـلاج للتقليـل مـن الأمـراض الوراثيـة المسـتعصية.

١٩- يجـوز نقـل جيـن سـليم مـن متبـرع لإصـلاح الخلايـا الجذعيـة الجنينيـة للجنيـن إذا لـم يـؤدي هـذا العـلاج إلـى تغيـر فـي البنيـة الجينيـة والسـلالة الوراثيـة ولـم يؤثـر فـي الأجهـزة التناسـلية للجنيـن والأجيـال اللاحقـة.

٢٠- يجـوز اسـتخدام الخلايـا الجذعيـة لبنـاء وتكويـن أجـزاء وأعضـاء آدميـة وزراعتهـا للعـلاج أو بـدل عضـو متلـف أومصـاب.

٢١- يجـوز بنـاء وتكويـن أعضـاء تناسلية باسـتخدام الخلايـا الجذعيـة بشـرط زراعاتهـا لنفـس المريـض صـاحـب الخلايـا الجذعيـة ولايجـوز زراعتهـا لغيـره.

أسئلة تحتاج إلى فتوى شرعية

س١: ما الحكم الشرعي في الحصول على الخلايا الجدعية الجنينية بالآتي:

١- بالإجهاض

٢- بالإخصاب (أطفال الانابيب)

٣- بالاستنساخ

س٢: مـا الحكـم الشـرعي فـي اسـتعمال الخلايـا الجذعيـة التالفـه بعـد الإخصـاب بـإذن أو بـدون إذن الوالديـن ؟

س٣: ما حكم استعمال الخلايا الجرثومية للجنين في الأجهزة التناسلية للوالدين وغير الوالدين ؟

س٤: ما الحكم الشرعي في استعمال الخلايا الجذعية لتجديد الخلايا العصبية (الدماغ)؟

س٥: ما الحكم الشرعي في استعمال الخلايا الجذعية لعلاج الأنسجة المريضة للمتبرع والخارجين؟

س٦ ما الحكم الشرعي في استعمال الخلايا الجذعية من دم الحبل السري في علاج الأقارب ؟

س٧: ما الحكم في إنشاء بنوك للحبل السري للأجنة وما الحكم في حالة الاختلاط بقصد أو بدون قصد ؟

س٨: هل يجب شرعا تحديد ووضع ضوابط لعزل وفصل الخلايا الجذعية واستعمالها؟

س٩: ما حكم الإباضية في الإجهاض بجميع أنواعه ومراحله قبل وبعد نفخ الروح ؟

س١٠: معرفة الحكم الشرعي في استعمال الخلايا الجذعية قبل نفخ الروح في الأبحاث والعلاج؟

س١١: هل يجب شرعا تحديد ووضع ضوابط للإجهاض واستعمال الخلايا الجذعية قبل نفخ الروح ؟

س١٢: هل يجوز الإجهاض واستعمال الخلايا لعلاج وإنقاذ إنسان ثابت بيقين من الأقارب والخارجين؟

س١٣: ما حكم علاج الأجهزة التناسلية للأب أو الأم من خلايا الجنين مع العلم بأن المورثات منقوله من الوالدين ؟

س١٤: ما حكم علاج الأجهزة التناسلية للأبناء من خلايا الأب والأم ؟

س١٥: ما حكم استعمال بويضة الأم أو كرموزومات (صبغيات) أو جينات الأم لعلاج البنات ؟

س١٦: ما الحكم الشرعي في حالة استبدال أو إصلاح خلل جيني (مورثة) بجين من متبرع وتحديد ضوابط لذلك ؟

س١٧: ما الحكم الشرعي في حالة استبدال أو إصلاح خلل جيني (مورثة) بجين أخر من متبرع وهذا يؤدي لتغير أو تأثير في الأجهزة التناسلية ؟

س١٨: ماحكم تكوين أو تصنيع أعضاء بالخلايا الجذعية وما حكم نقلها إلى جسم إنسان آخر؟

المصادر والمراجع

• المراجع العربية:

١. القران الكريم - مصحف المدينة النبوية- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢. صحيح البخاري- للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي -١٩٤- ٢٥٦ هـ - الطبعة الثانية - دار السلام الرياض.

٣. صحيح مسلم- للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري - ٢٠٤ -٢٠٦ هـ الطبعة الثانية - دار السلام الرياض.

٤. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب – للإمام فخر الدين الرازي – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م لدار الكتب العلمية بيروت.

٥. العلاج الجيني من منظوم الفقه الإسلامي – أ.د محي الدين القره داغي. المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث.

٦. بنوك الحليب وعلاقته بأحكام الرضع – د.محمد الهواري . ذو القعدة ١٤٢٤هـ كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٣ م المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث.

٧. بنوك اللبن (الحليب) – الشيخ يوسف القرضاوي . المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث.

٨. حكم نقل الأعضاء من الحيوان إلى الإنسان – د.عبدالرحمن بن حسن النفيسة –مجلة البحوث الفقهية المعاصرة- العدد الأربعين ١٤١٩هـ.

٩. حكم من يبيع أحد أعضائه بحجة حاجة إلى إطعام نفسه ومن يعول - د.عبدالرحمن بن حسن النفيسة- مجلة البحوث الفقهية المعاصرة- العدد الأربعين ١٤١٩هـ.

١٠. حقيقـة الجنيـن وحكـم الإنتفـاع بـه فـي زراعـة الأعضـاء والتجـارب العلميـة – د.نعيـم ياسـين- المجلـة الشـرعية والدراسـات الإسـلامية- العـدد السـابع عشـر ١٩٩٠م .

١١. حكم التبرع بالأعضـاء فـي ضـوء القواعد الشـرعية والمعطيات الطبيـة – د.نعيم ياسين – مجلـة الحقـوق- جامعـة الكويـت- العـدد الثالـث ١٩٨٨م.

١٢. الإستنسـاخ مـن الزوجيـن والأحـكام التـي تترتـب علـى ذلـك – د.عبدالسـتار أبو غـذة- ١ – ٢٠٠٣/٠٧/٦م المجلـس الأوروبـي للإفتـاء والبحـوث.

١٣. إمكانيـة نقـل الأعضـاء التناسـلية فـي المـرأة- دطلعـت أحمـد القصبـي- النـدوة الفقهيـة الطبيـة الخامسـة ٢٣-٢٦ أكتوبـر -الكويـت

١٤. الفقـه المالكـي فـي ثوبـه الجديـد- محمـد بشـير الشـقفة–الطبعة السادسـة ١٤٢٢هــ١-٢٠٠م – الطبعـة السادسـة- دار القلـم دمشـق.

١٥. حاشية ابن عابدين- الطبعة الثانية ١٩٦٦م و١٢٧٢هـ- دار الطباعة المصرية .

١٦. فتح العلي المالك- محمد أحمد عليش – طبعة مصطفى الحلبي ١٩٥٨م.

١٧. المغني – ابن قدامة – ١٩٨٣م – دار الكتاب العربي بيروت.

١٨. شـرح القواعـد الفقهيـه – الشـيخ أحمـد بـن الشـيخ محمـد الزرقـا- الطبعـة الثانيـة- الطبعـة السـابعة ١٤٢٨هــ - ٢٠٠٧م - دار القلـم دمشـق.

١٩. فتـاوي مصطفـى الزرقـا – أعتنـى بهـا مجـد أحمـد مكـي- قـدم لهـا د يوسـف القرضـاوي- الطبعـة الثالثـة ١٤٢٥هــ -٢٠٠٤م – دار القلـم دمشـق.

٢٠. مجلـس مجمـع الفقـه الإسـلامي -النـدوة الفقهيـة الطبيـة السادسـة -جـدة المملكـة العربيـة السـعودية الموافـق ١٤- ٢٠ مـارس ١٩٩٠م.

٢١. فتاوي الشيخ محمد أبوزهرة – د محمد عثمان شبير- الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م – دار القلم دمشق.

٢٢. أثر الأختلاف في القواعد الأصولية في إختلاف الفقهاء- د مصطفى سعيد الخن- الطبعة السادسة ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م- مؤسسة الرسالة بيروت.

٢٣. في ظلال القرآن – السيد قطب – ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م – الطبعة السابعة عشرة- دار الشرق.

٢٤. روائع البيان تفسير أيات الأحكام من القرآن – محمد علي الصابوني .

٢٥. المعجزة الخالدة – حسن ضياء الدين عتر – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٢٦. الاستنساخ البشري بين الثورة العلمية والضوابط الأخلاقية والفقهية - الدكتور محمد الهواري.

٢٧. الفحص الطبي قبل الزواج من منظور الفقه الإسلامي - أ.د محي الدين القره داغي .

٢٨. حكم الإجهاض في الفقه الإسلامي – مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – العدد الثالث – جامعة الكويت ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٢٩. شرح القواعد الفقهية – الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الزرقا- ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م الطبعة الثانية- دار القلم دمشق

٣٠. الفقه المالكي في ثوبه الجديد- للإمام مالك بن أنس– محمد بشير الشقفة – ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م الطبعة السادسة – دار القلم دمشق

٣١. بداية المجتهد ونهاية المقتصد – للإمام القاضي ابوالوليد القرطبي الأندلسي – ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م- المكتبة العصرية بيروت.

٣٢. الموطأ - للإمام مالك بن أنس- الإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي- ١٤١٤هـ -١٩٩٣م دار الجليل بيروت ودار الإفاق الجديدة المغرب.

٣٣. المجلة العلمية للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث (العدد الثالث) .

٣٤. المجلة العلمية للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث (العدد السادس) .

٣٥. المجلة العلمية للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث (العدد السابع) .

٣٦. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الكويت (العدد السابع).

٣٧. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الكويت (العدد الثالث عشر) .

٣٨. مجلة الحقوق – جامعة الكويت (العدد الثالث) .

• **المواقع ا لإلكترونية:**

٣٩. الموقع الإلكتروني الهيئه العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www.eajaz.org) .

٤٠. الموقع الإلكتروني للمجلة العلمية Stem Cell Information (stemcells.nih.gov).

٤١. الموقع الإلكتروني للمجلة العلمية Nature (www.nature.com) .

٤٢. الموقع الإلكتروني للموسوعة الحرة ويكيبيديا Wikipedia (www.en.wikipedia.org)

٤٣. الموقع الإلكتروني Pup med (www.ncbi.nlm.nih.gov) .

٤٤. الموقع الإلكتروني دار الإفتاء المصرية (www.dar-alifta.org).

٤٥. الموقع الإلكتروني فتاوي الطبيب المسلم وقرارات الفقة الإسلامي (www.saaid.net).

• **المراجع الأجنبية:**

46. Draper(2002). Surface antigens of human embryonic stem cells: changes upon differentiation in culture. Journal of Anatomy 200, 24958-.

47. Hardy (1989). The human blastocyst: cell number, death and allocation during late preimplantation development in vitro. Development. 107, 597604-.

48. Jeffrey Stem cells: Beyond somatic cell nuclear transfer.Science

49. Lori Knowles. Religion and Stem Cell Research. Stem Cell Network

50. Kaichi (2010). Cell line-dependent differentiation of induced pluripotent stem cells into cardiomyocytes in mice. Cardiovascular research

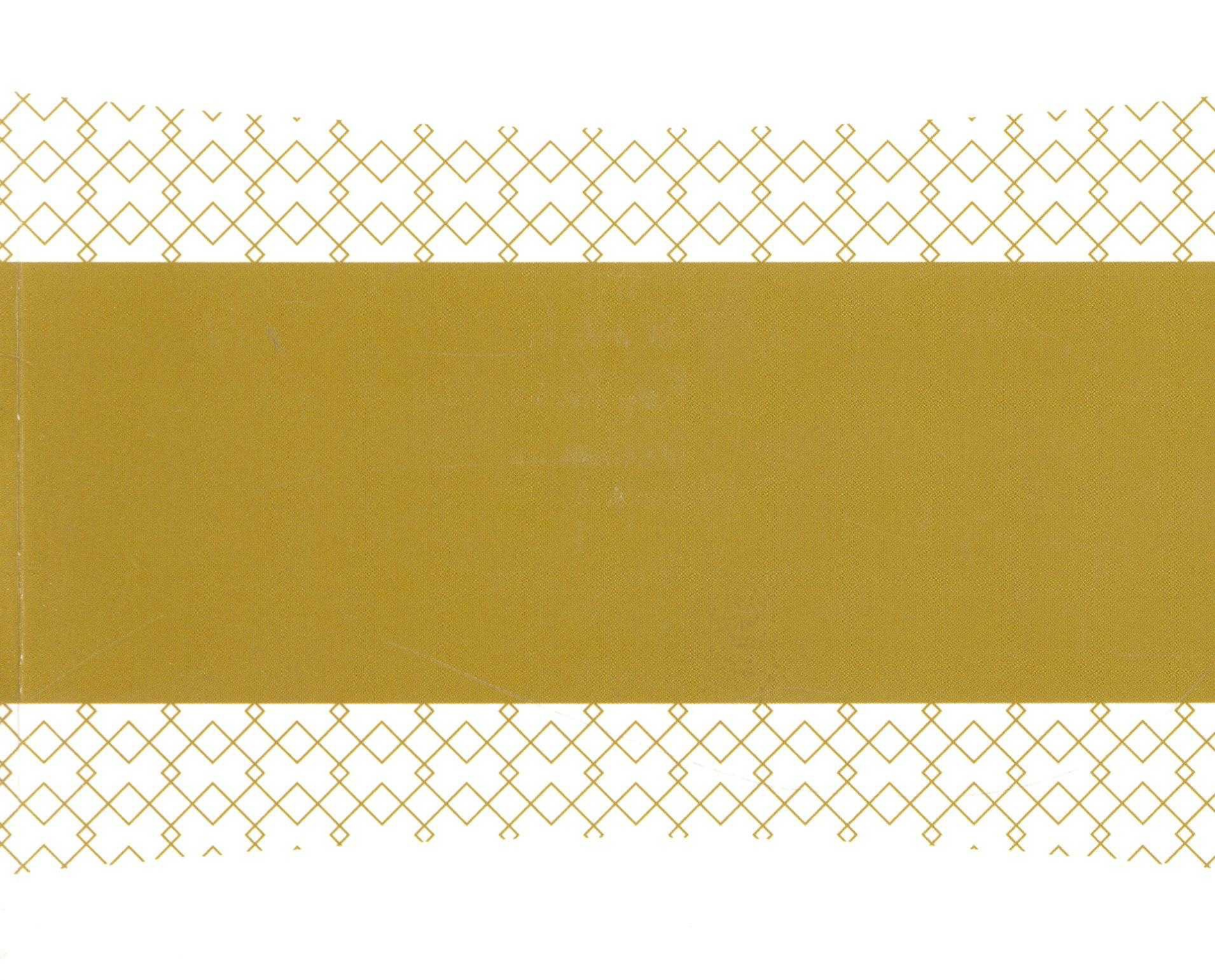
51. Bader (2010). Moving towards in situ tracheal regeneration: the bionic tissue engineered transplantation approach. Journal of cellular and molecular medicine

52. Dadu (2009). Tooth regeneration: current status. Indian journal of dental research

53. Wollert (2010). Cell therapy for the treatment of coronary heart disease: a critical appraisal. Nature reviews. Cardiology

54. Hansson (2010). Pluripotent stem cells, a potential source of beta-cells for diabetes therapy. Current opinion in investigational drugs Oogenic meiosis. Developmental

55. Sahni (2010). Stem cell therapies for spinal cord injury. Nature reviews



مطبعة جامعة السلطان قابوس، مسقط- سلطنة عُمان ٢٠١٥م